THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

W. Arthur Jeffery

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء العاشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

BP
130.4
.M312
v.4

v.4

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

18916G

الجزء العاشر

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى
عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ
بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَوْ
تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، لِيَهْلِكَ
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)
إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ
فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، لِيَقْضِيَ
اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الغُنْم والمغنم والغنيمة : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادى ، وقولهم الغُرْمُ بالغُنْم : أى يقابل به، والفىء : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وتصير الدار دار إسلام ، وهو لكافة المسلمين ، وليس فيه الخمس ، والنفَل : ما يحصل للانسان من الغنيمة قبل قسمتها .

المعنى الجملى

لما أمر الله بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستتبعا لأخذ الغنائم منهم ـ ناسب أن يذكر بعده مايرضيه سبحانه فى قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه. والجمهور على أن هذه الآية نزلت فى غزوة بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

الإيضاح

(واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين ، فاجعلوا أوّلا خمسه لله تعالى ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة للاسلام ، وإقامة شعائره وعمارة الكعبة وكسوتها ، ثم أعطوا للرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته

نسباً وولاء ، وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بنى هاشم و بنى أخيه المطلب المسلمين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المسلمين ، وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مُطعم بن جُبير (من بنى نَوْفل) قال : مشيت أنا وعثمان ابن عفان (من بنى عبد شمس) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد .

وسرّ هذا أن قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بنى هاشم من مكة وحصرتهم فى الشِّعْب لحمايتهم له صلى الله عليه وسلم دخل معهم فيه بنو المطلب ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل — إلى ما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبى صلى الله عليه وسلم و يؤلّب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علىّ وقاتله .

والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو — أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين والدفاع عن الأمة ، وهو ما جعل لله فى الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها ، وهو سهم الرسول فيها ، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته وهو سهم ذوى القربى ، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولايزال هذا الاعتبار مراعى معمولا به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية ، ولاسيما الأمور الحربية ، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوها .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدول فى هذا العصر حقًّا فى أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالا من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين فى وقت الحاجة فقط .

وعن ابن عباس أنه قال (فأن لله خمسه) مفتاح كلام أى إنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه ، لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن لله سهما مفرداً ، لأن ما فى السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعى ، فقد قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

(إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شىء قلّ أو كثر فأن لله خمسه ، لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر وهو يوم بدر الذى التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(والله على كل شىء قدير) ومن قدرته أن نصركم على قلتكم وجوعكم وضعفكم على ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر ، وأيد رسوله وأنجز وعده له .

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) العدوة (مثلثة العين) جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد .

والمعنى — إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر

لا فى غيره ، والأعداء فى الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

(والركب أسفل منكم) أى والعير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادما بها من الشام .

(ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى ولو تواعدتم أنتم وهم القتال وعلمتم مالهم وما لكم لاختلفتم فى الميعاد ، كراهة للحرب لقلتكم ، وعدم إعداد العُدّة لها ، وانحصار همكم فى العير ، ويأسا من الظفر عليهم ، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأمنون نصر الله له ، لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكبارا وعنادا لا اعتقادا .

(ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ليقضى الله أمرا كان فى علمه وحكمته أنه واقع لامحالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصركم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، وإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

(ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة) البينة الحجة الظاهرة ، أى فعل ذلك ليترتب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر ، على حقية الاسلام ، بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين ، بحيث تنتفى الشبهة ، ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها ، فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطاً فى الأعمال .

(وإن الله لسميع عليم) لا يخفى عليه شىء من أقوال الكافرين والمؤمنين ، ولا من عقائدهم وأفعالهم ، فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة ، والأعذار التى يعتذر بها عن تقصيره فى أعماله ، ويعلم ما يكنّه من ذلك ومن غيره ، ويجازى كلا على حسب ما يسمع ويعلم

والخلاصة — إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم كما بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم كما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال فى ذلك للمكابرة والتأويل .

(إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) أى إنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعدوهم قليلا فى الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين ، وتطمئن قلوبهم ، وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجترئون عليهم .

(ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر) أى ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرا لفشل أصحابك وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء فى أمر القتال ، إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة ، فيطيع الله ورسوله ويقاتل ، ومنهم الضعيف الذى يثبط عن القتال بمثل الأعذار التى جادلوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى قوله « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ » .

(ولكن الله سلم) أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذى تضيق به فتحجم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث فى النفس الطمأنينة والصبر فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التى تفضى إلى ما يريده منها .

(وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا) الخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى وفى الوقت الذى يريكم الله الكافرين عند التلاقى معهم عدداً قليلا ، بما أودع فى قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبتثبيتكم بملائكته والاستهانة بهم ، ويقللكم فى أعينهم لقلتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور (أى لقلتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم) .

والخلاصة — إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه مدلّ ببأسه ، وهذا متكل على ربه ، واثق بوعده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أمراً كان فى علمه مفعولا ، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديراً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه نعمه على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر — قفى على ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

(١) الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التوانى والتكاسل .

(٢) ذكر الله كثيرا وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم ، تنبيها إلى أن الإنسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره فى أشد الأوقات حرجا . وقد طلب إلينا الثبات والطاعة لله ورسوله حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) أى إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب فى النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعا ، ولكن قد يخطر له أن خصمه

ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا فى الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس ، بل الثبات نافع فى كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة فى الفوز والنجاح فيها .

(واذكروا الله كثيرا) أى وأكثروا من ذكر الله فى أثناء القتال فى قلوبكم ، بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتيه من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه ، وبالدعاء والتضرع إليه مع اليقين بأنه لا يعجزه شىء .

(لعلكم تفلحون) أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز ؛ ويعدان للفلاح فى القتال فى الدنيا ، وفى نيل الثواب فى الآخرة .

وفى ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر ما يكون هما ، وأشغل ما يكون قلباً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره .

(وأطيعوا الله ورسوله) أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك ، فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم فى القتال ، فطاعته هى جماع النظام ، والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم فى الرأى والتدبير والاستشارة فى الأمور

(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى لا يكن منكم تنازع واختلاف ، فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة ، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد فى الأجسام ما هو أقوى منها ، فهى تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع ، ومن ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد ، كما يقال : ركدت رياحه إذا ضعف أمره وولت دولته .

(واصبروا إن الله مع الصابرين) أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده ، فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأييده ، ومن كان الله معينا له فلا يغلبه غالب .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

شرح المفردات

الذين خرجوا : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ، والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة، ويعرف ذلك فى الحركات المتكلفة والكلام الشاذ ، والرئاء : أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به ، وتراءت الفئتان : قرب كل منهما من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله، ونكص: رجع القهقرى وتولى إلى الوراء ، والمنافق : من يظهر الإسلام ويسر الكفر ، والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات ، فتزلزل اعتقادهم حينا وتسكن حينا آخر .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات ومحاسن الآداب التى تكون سبب الظفر فى القتال ، ونهاهم عن التنازع ـ قفَّى على ذلك بنهيهم عما كان عليه مشركو قريش حين خرجوا لحماية العِير من البطر والكبرياء والصد عن سبيل الله .

الإيضاح

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) أى عليكم أن تمتثلوا ما أمرتم به وتنتهوا عما نهيتم عنه ، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم فى مكة وغيرها من الأماكن التى استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوة ونعم لا يستحقونها ، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة .

(ويصدون عن سبيل الله) أى وهم بخروجهم يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عن تبليغ دعوته ؛ وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار .

(والله بما يعملون محيط) أى والله عليم بما جاءوا لأجله ، ومن ثم فهو يجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة بمقتضى سننه فى ترتيب الجزاء على الأعمال وصفات النفوس .

وفى هذا زجر وتهديد عن الرياء والتصنع والبطر والكبرياء ، وأنه سيجازى عليها أشد الجزاء .

قال البغوى : نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك

وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » قالوا ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى يرد بدرا ـ وكان موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام ـ فنقيم ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسق الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فوافوها فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان .

فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحِسبة فى نصر دينه ومؤازرة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى واذكر أيها الرسول للمؤمنين حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى رُوعهم ، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعُددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين .

(فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) أى فلما قرب كل من الفريقين المقاتلين من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يصطلى نار القتال معه ـ نكص على عقبيه أى رجع القهقرى وتولى إلى الوراء وهى الجهة التى فيها العقبان ، والمراد أنه كف عن تزيينه لهم وتغريره بهم .

(وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله) أى تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة .

(والله شديد العقاب) قد تكون هذه العبارة من كلام الشيطان ، وقد تكون من كلامه تعالى .

والخلاصة ـــ إن جند الشيطان كانوا منبثين فى المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة بما يُغريهم ويغرهم ، كما كان الملائكة منبثين فى المؤمنين يلهمونهم

بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم ، فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما فر الشيطان بجنوده من بين المشركين ، لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين (وهما ضدان لا يجتمعان ، ولو اجتمعا لقضى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما وهم الشياطين) .

فخوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين ، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق متلاش أمامه لا يبقى منه شىء .

(إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) أى وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم حين يقول المنافقون ومن فى حكمهم من مرضى القلوب : ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم — إلا غرورهم بدينهم ، ولا غرو أن تصدر هذه المقالة ممن حرم الإيمان الكامل والثقة بالله والتوكل عليه .

روى عن مجاهد أنه قال : هم فئة من قريش ، قَيْسُ بن الوليد بن المغيرة والحرث ابن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطّلب ويعلى بن أمية والعاص بن منبه ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

(ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) أى ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه ، وأنه لا يعجزه شىء ولا يمتنع عليه شىء أراده — يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم ، لأنه العزيز الغالب على أمره ، الحكيم الذى يضع كل أمر فى موضعه بمقتضى سننه فى نظام العالم ، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل .

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

شرح المفردات

أدبارهم ، أى ظهورهم وأقفيتهم ، وعذاب الحريق : عذاب النار بعد البعث ، والدأب : العادة المستمرة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال هؤلاء الكفار من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطرا ورئاء الناس ، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم — قفى على ذلك بذكر أحوالهم حين موتهم و بيان العذاب الذى يصل إليهم فى ذلك الوقت .

الإيضاح

(ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) أى لو عاينت أيها الرسول حال الكفار حين يتوفاهم الملائكة ،

فينزعون أرواحهم من أجسادهم ضاربين وجوههم وأقفيتهم ، قائلين لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون (وهذا الضرب والكلام من عالَم الغيب ، فلا يقتضى أن يراه الذين يحضرون وفاتهم ، ولا أن يسمعوا كلامهم حين يقولون ذلك لهم) لو رأيت ذلك لرأيت أمرا عظيما هائلا يرد الكافر عن كفره ، والظالم عن ظلمه إذا هو علم عاقبة أمره .

وقد روى أن ضرب الوجوه والأدبار كان ببدر ، كان المؤمنون يضربون من أقبل من المشركين من وجوههم والملائكة يضربونهم من أدبارهم .

(ذلك بما قدمت أيديكم) أى هذا العذاب الذى ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم من سىء الأعمال فى حياتكم الدنيا من كفر وظلم ، وهذا يشمل القول والعمل .

ونسب ذلك إلى الأيدى و إن كان قد يقع من الأيدى والأرجل وسائر الحواس أو بتدبير العقل ، من أجل أن العادة قد جرت بأن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها .

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى و بأن الله لا يظلم أحدا من عبيده ، فلا يعذب أحدا منهم إلا بجرْم اجترمه ، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه ، وقد وقع ذلك منكم ، فأنتم الظالمون لأنفسكم فلوموها ، ولا لوم إلا عليها . روى مسلم عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله يقول يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا ؛ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم) أى فِعْل هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر كعادة قوم فرعون وفعلهم وفعل من قبلهم من الأمم الخالية ، كفروا بآيات ربهم فأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين .

وكما كانت سنته تعالى فى أولئك أن أخذهم بذنوبهم ، فسنته فى هؤلاء كذلك فقد نصر رسوله والمؤمنين فى بدر ، وأهلك هؤلاء بذنوبهم .

(إن الله قوى شديد العقاب) أى إن الله قوىّ لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، شديد العقاب لمن استحق عقابه وكفر بآياته وجحد حججه ، وقد جعل لكل شىء أجلا .

روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن أبى موسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته » .

(ذلك بأن الله لم يك مغيّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى ذلك الذى ذكر من أخذه لقريش بكفرها بنعم الله عليها ، إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، فكذبوه وأخرجوه من بينهم وحاربوه ، كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم - فقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التى استحقوا بها تلك النعمة .

وفى الآية إيماء إلى أن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة منهم ، كانت تلك النعم ثابتة لهم ، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جُرم ، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال ، غيّر الله حالهم وسلب نعمتهم منهم فصار الغنى فقيرا والعزيز ذليلا والقوى ضعيفا .

وليست سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطة بسعة الثروة ولا كثرة العدد كما كان يظن بعض المشركين وحكاه الله عنهم بقوله « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وكذلك لا يحابى الله تعالى بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوّة أو مادونها فيؤتيهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إليهم كما كان شأن بنى إسرائيل فى غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب

بنسبهم ، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم ، إذ اتبعوا سنتهم واغتروا بدينهم وإن كانوا من أشد المخالفين له .

(وإن الله لسميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما يقول مكذبو الرسل، عليم بما يأتون وما يذرون ، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكلّ كانوا ظالمين) أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا مماثلا لدأب آل فرعون ، فهم قد كذبوا كما كذب أولئك فحل بهم مثل ما حل بأولئك السابقين.

والدأب الأول فى بيان كفرهم بجحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة ، وفى تعذيب الله إياهم فى الآخرة ، فهو دأب وعادة فيما يتعلق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته ، وفى الجزاء الدائم على الكفر به الذى يبتدئ بالموت وينتهى بدخول النار .

والدأب الثانى فى تكذيبهم بآيات ربهم ونعمه من حيث إنه هو المربى لهم ، ويدخل فى ذلك تكذيب الرسل وعنادهم وإيذاؤهم وكفر النعم المتعلقة ببعثتهم ، وفى الجزاء على ذلك بتغيير حالهم وعذابهم فى الدنيا .

وخلاصة ذلك — إن ما دوّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض ، ومن عقاب الله اياها — جار على سننه تعالى المطردة فى الأمم ، ولا يظلم ربك أحدا بسلب نعمة منهم ولا بإيقاع أذى بهم ، وإنما عقابه لهم أثر طبيعى لكفرهم وظلمهم لأنفسهم .

وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوى فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها ثم فعلوا ذلك .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا

تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩).

شرح المفردات

الدابة : لفظ غلب استعماله فى ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه الأرض ، وهو المراد هنا ، عند الله : أى فى حكمه وعلمه ، والذين عاهدت منهم : هم طوائف من يهود المدينة ، وثقفه : أدركه وظفر به ، فشرّد بهم : أى نكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد ، ومن خلفهم: هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، والنبذ : الطرح ، على سواء : أى على طريق واضح لاخداع فيه ولا خيانة ولا ظلم ، سبقوا : أى أفلتوا من الظفر بهم ، لا يعجزون : أى لايجدون الله عاجزا عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال مشركى قريش فى قتالهم له ببدر - قفّى على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبي صلى الله عليه وسلم وقاتلوه وهم اليهود الذين كانوا فى بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات فى ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت ، وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة ، ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة ، وبيّن أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

الإيضاح

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لايتقون) أى إن شر ما يدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

(١) الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لايرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول صلى الله عليه وسلم معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه : « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » . وإما مقلدون جامدون على التقليد لاينظرون فى الدلائل والآيات .

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع ، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لاخير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم : « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

(٢) نقض العهد ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهدا أقرهم فيه على دينهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله : وهم لايتقون، أى لايتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرر منهم نقض العهد - أردف ذلك بذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال :

(فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب - فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة النادّة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإثخان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم وتجديده لعهدهم بعد نقضه ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة تترك إذا زال سببها كما قال تعالى: « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » وهم قد أوهموه المرة بعد المرة أنهم يرغبون فى السلم واعتذروا عن نقضهم العهد وكانوا فى ذلك مخادعين .

(لعلهم يذكرون) أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكّرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو فقال : « أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف - ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وفى ذلك إيماء إلى شيئين :

(١) إن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

(٢) إن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم - أمر لا بد منه للعظة والاعتبار حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم.

ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء مافى الصدور من الأحقاد ، والتمتع بالمغانم من مال وعقار .

وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة ـ قفى على ذلك بحكم من لاثقة بعهودهم فقال :

(وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأن تنبذ عهدهم إليهم وتنذرهم بأنك غير مقيد به ولا مهتمّ بأمرهم ، بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .

والحكمة فى هذا أن الإسلام لايبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك — لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء ، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

(إن الله لايحب الخائنين) أى إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها ، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة .

روى البيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء ـ من عاهدته فوفّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ؛ ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها ، مسلما كان أو كافرا ؛ ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه ، مسلما كان أو كافرا » .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال :

(ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا) أى لايحسبن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

(إنهم لا يعجزون) أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم

بل هو سيجزيهم ويمكّن منهم فى الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم وإذاقتهم عاقبة كيدهم، والآية بمعنى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » .

وخلاصة ذلك — قطع أطماعهم فى الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .

وفى الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع الأعداء المخالفين فى الدين ، وما حرّمه من الخيانة فيها ـ لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأييد إلهى ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام (شبه جزيرة العرب).

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) .

شرح المفردات

الإعداد : تهيئة الشىء للمستقبل، والرباط والمِرْبط : الحبل الذى تربط به الدابة ، ورباط الخيل : حبسها واقتناؤها ، والإرهاب والترهيب : الإيقاع فى الرهبة وهى الخوف المقترن بالاضطراب ، وجنح للشىء وإليه : مال ، يقال جنحت الشمس للغروب

أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه ، والسلم (بفتح السين وكسرها) والسلام: الصلح وضد الحرب ، والإسلام دين السلم والسلام كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً » وحسبك الله : أى كافيك وناصرك عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان عز اسمه فيما سلف أن اليهود الذين عقدوا العهود مع النبى صلى الله عليه وسلم و بها أمنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم ـ قد خانوه ونقضوا العهود وساعدوا عليه أعداءه المشركين الذين أخرجوه من دياره ووطنه وتبعوه إلى مهجره يقاتلون فيه لأجل دينهم ، و بذلك صاروا هم والمشركون سواء ـ أردف ذلك بذكر ما يجب على المؤمنين فى معاملتهم أثناء الحرب التى أصبحت لا مناص منها بما أحدثوه من الخيانة والغدر والبداءة بالعدوان ، وذلك سنة من سنن الاجتماع البشرى ، إذ حصول الصراع بين الحق والباطل والقوة والضعف أمر لا مندوحة منه .

الإيضاح

(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) أمر الله المؤمنين بالاستعداد للحرب التى لابد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة .

ويكون ذلك بأمرين :

(١) إعداد المستطاع من القوة ، ويختلف هـذا باختلاف الزمان والمكان ، فالواجب على المسلمين فى هذا العصر : صنع المدافع والطيارات والقنابل والدبابات وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك ، كما يجب عليهم تعلّم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب .

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر وغيرها ، روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وقد تلا هذه

الآية يقول : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثا ، وذلك أن رمى العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك ، وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها ، فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة فى عصره صلى الله عليه وسلم .

(٢) مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها ، إذ هى مداخل الأعداء ، ومواضع مهاجمتهم للبلاد .

والحكمة فى هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فجأها العدوّ على غِرة ، وقِوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء ، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها ، ولا يزال للفرسان نصيب كبير فى الحرب فى هذا العصر الذى ارتقت فيه الفنون العسكرية فى الدول الحربية .

(ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة لترهبوا عدو الله الكافرين به وبما أنزله على رسوله وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر ، إذ لاشىء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب ، فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول :

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم   إن الدم المغبّر يحرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه :

(ا) يجعل أعداءهم لايعينون عدوا آخر عليهم .

(ب) يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم .

(ح) ربما حملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله .

(وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) أى وترهبون به أناسا غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم ، وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون بين هاتين

العداوتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر ـ ممن لاتعلمون الآن عداوتهم بل يعلمهم الله وهو علام الغيوب .

والخلاصة — إن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء ـ يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء ، فالاستعداد للحرب يرهب الأعداء ويمنعهم من الإقدام على القتال ، وهذا ما يسمى فى العصر الحديث (السلام المسلح)

(وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم) أى وما تنفقوا من شىء قليلا كان أو كثيرا فى إعداد المستطاع من القوة والمرابطة فى سبيل الله ـ فالله يعطيكم عليه الجزاء الوافى التام .

(وأنتم لاتظلمون) أى والحال أنه لا يلحقكم ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم ، فإن القوىّ المستعد لمقاومة المعتدى قلما يعتدى عليه أحد ، وإن اعتدى عليه فقلّ أن يظفر به .

وفى هذا إيماء إلى أن إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة فى سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإنفاق الكثير من المال ، ومن ثم رغب سبحانه عباده المؤمنين فى الإنفاق فى سبيله ، ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوف إليهم إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فحسب.

وإذ كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب أكده بقوله :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) أى وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم ولم يعتزّ بقوته فاجنح لها ، لأنك أولى بالسلم منهم .

(وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) أى اقبل السلم وفوض الأمر إلى الله ولا تخف غدرهم ومكرهم ، فالله هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع وإن خفى عليك .

(وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) أى وإن يريدوا بجنوحهم للسلم

الكيد والخداع ليفترصوا الفرص كانتظار الغِرّة التى تمكنهم من أهل الحق ، أو الاستعداد للحرب ، فالله يكفيك أمرهم وينصرك عليهم .

(هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى إن من آثار عنايته بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة متعاونة على نصرك ، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات كالملائكة التى تثبت القلوب يوم بدر .

(وألف بين قلوبهم) أى إنه تعالى جمعهم على الإيمان بك ، وبذل النفس والمال فى مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذى كان أثر حروب طويلة وضغائن موروثة كما كان بين الأوس والخزرج من الأنصار .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

وقد كاد يقع شىء من التباغض بين المهاجرين والأنصار حين قسمة الغنائم فى حُنين ، فكفاهم الله شر ذلك بفضله وحكمة رسوله .

وفى الآية إيماء إلى أن النصر ينال بالأسباب التى من أهمها التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ورحمته بالعباد ومن جَرّاء ذلك قال :

(لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أى إنه لولا نعمة الله عليهم بأخوّة الإيمان التى هى أقوى من أخوة الأنساب والأوطان ـ لما أمكنك أن تؤلف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية ، فالضغائن الموروثة والدماء المسفوكة فى الأنصار لا تزول بالأعراض الزائلة ، وإنما تزول بصادق الإيمان الذى هو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة ، كما أن التآلف بين أغنياء المهاجرين وفقرائهم ، وأشرافهم وعامتهم ، على ما كان بينهم من فوارق فى الجاهلية ، وجمع كلمة البيوت والعشائر مع رسوخ العداوات والإحَنِ ـ لم يكن مما ينال بالمال والآمال فى المغانم ونحوها ، على أن شيئا من ذلك لم يكن فى يد الرسول أول الإسلام وإن كان قد صار فى يده شىء كثير منه فى المدينة بنصر الله له فى قتال المشركين واليهود جميعا .

وكذلك جمع كلمة المهاجرين والأنصار على ما يدل به كل منهما بميزة لا تتوافر لسواه ، فالمهاجرون لهم مزية القرب من الرسول والسبق إلى الإيمان ، والأنصار لهم ميزة المال والقوة و إنقاذ الرسول وقومه من ظلم مشركى مكة و إيواؤهم ومشاركتهم لهم فى أموالهم ، فكل هذا من عوامل التحاسد والتنازع لولا فضل الله وعنايته ، ومن ثم قال :

(ولكن الله ألف بينهم) إذ هداهم إلى الإيمان الذى دعوتهم إليه فتآلفت قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

وقد دلت التجارب على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها ، وأجدى وسائل التحاب والتآلف قوة الإيمان ، ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الرحم لتُقْطع ، و إن النعمة لتكفر ، و إن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء ، ثم قرأ : « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » الآية .

(إنه عزيز حكيم) أى إنه تعالى الغالب على أمره الذى لا يغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين ، الحكيم فى أفعاله ، فينصر الحق على الباطل ، ويفضل الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .

شرح المفردات

حسبك : أى كافيك ما يهمك ، والتحريض : الحث على الشىء ، لا يفقهون : أى لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة ، والضعف (بالفتح والضم) يشمل المادى والمعنوى ، وقيل هو بالضم لما يكون فى البدن ، و بالفتح لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء وربما كان جنوحهم لها مظنة الخداع والمكر ، ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب وضروب الإيذاء والشر ، وامتن عليه بتأييده له بنصره و بالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه — قفى على ذلك بوعده بكفايته له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم وجعل هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

الإيضاح

(يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى إن الله تعالى كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين .

ونحو الآية قوله « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . وقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

و إذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجْدِرْ بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم ولا سيما خاتم أنبيائهم .

والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين والأنصار ولا سيما من شهد منهم بدرا .

(يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه لدفع عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما، إذ ذاك من ضرورات الاجتماع البشرى وسنة التنازع فى الحياة والسيادة.

والخلاصة — حثهم على ما يقيهم أن يكونوا حرضا أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا عِدة منه تعالى و بشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده .

والخلاصة — ليصبرنّ الواحد لعشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم إذا بدءوهم بالقتال .

(ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أى أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل فى إقامة سننه العادلة و إصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة ، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحـــدى الحسنيين النصر والغنيمة الدنيوية ، أو الشهادة والسعادة الأخروية .

وحالهم يخالف حالكم فى كل ما تقدم ، ولا سيا منكرى البعث والجزاء منهم كمشركى العرب فى ذلك العصر ، واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية وحب

الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الـكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم .

وفى الآية إيماء إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون فى العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم وكانوا بها أرباب ملك واسع وعز وجاه عريض ودانت لهم الشعوب الكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية زال مجدهم وسؤددهم وذهب ريحهم ونزع منهم أكثر ذلك الملك .

وبعد أن بين المرتبة العليا التى ينبغى أن تكون للمؤمنين ، قفّى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال :

(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم اهـ .

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف فى الصف مع العسكر أو لم يكن هناك عسكر .

والخلاصة — إن أقل حال للمؤمنين مع الكفار فى القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات وهو وقت غزوة بدر حين كان المؤمنون

لا يجدون ما يكفيهم من القوت ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملى الأهبة والعدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم ، وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهده ومن بعده القدوة فى ذلك ، فقد كان الجيش الذى أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحرث بن عمير الأزدى ثلاثة آلاف وكان الجيش الذى قاتلهم من الروم ومتنصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله بإذن الله أى بمعونته وتوفيقه ، وبمعنى الآية قوله « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وفى ذلك إيماء إلى أن من سنن الله فى الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ومعرفة سنن الله فى خلقه .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) .

شرح المفردات

الأسرى : واحدهم أسير وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القِدّ من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لئلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيذ الحرب وإن لم يشد ، والإثخان فى كل شىء : قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أثخنته الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شىء غليظ فهو ثخين ، والعَرَض : مايعرض ولايدوم سمى به حطام الدنيا لأنه حدث قليل اللبث ، ومسكم : أى أصابكم ، وفيما أخذتم : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ماينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها ـ قفى على ذلك بذكر أحكام الأسرى لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالبا كما وقع فى وقعة بدر وكما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدرجىء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع مايقول : أقطعت رحمك ؟ فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله ابن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد

من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) أنتم عالة فلا يفلتنّ أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ـ فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) إلى آخر الآيتين» .

وروى أحمد من حديث ابن عباس قال : «لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوِى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت يارسول الله أخبرنى ، من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت

بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة منه) وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) » .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم اختيار الفداء كثيرون ، وإنما ذكر فى أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أشار بذلك ، ولأنه أكبرهم مقاما .

وروى ابن المنذر عن قتادة قال : أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر ففادوهم بأربعة آلاف ، أربعة آلاف .

الإيضاح

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) أى ما كان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المنّ والفداء إلا بعد أن يثخن فى الأرض أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه ، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

إلى أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة ، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على ما لا ينبغى ، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك — إن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل ـ ففى المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين ، وفى الحالة العامة التى تعم كل معركة وكل قتال ؛ فبإثخانهم فى الأرض بالقوة العامة والسلطان الذى يرهب الأعداء .

(تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل وهو المال الذى تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه مادمتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنكار لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضيها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبيين ، كما عاتب رسوله أيضا .

(والله عزيز حكيم) ومن ثم يجعل أولياءه يغلبون أعداءه ويتمكنون منهم قتلا وأسرا ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا ، ونحو الآية قوله : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

ولا تتم لهم العزة إلا بتقديم الإثخان فى الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم فى عنفوان قوتهم وكثرتهم .

وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية فى العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التى تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتخرب البلاد وتقتل الأبرياء مع المشاغبين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال بنيران المدافع وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام ـ وهو دين الرحمة والعدل ـ لا يبيح شيئاً من ذلك .

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أى ولولا كتاب من الله سبق فى علمه الأزلى ألا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم - لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس فى أسارى بدر ، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر

اقتلهم ، فقال قائل أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أمر بقتلهم .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أبى بكر ففاداهم فنزل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) فقال رسول الله : إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » .

وبعد أن عاتبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وعدّه من جملة الغنائم التى أباحها لهم فى أول السورة فقال :

(فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالا بإحلاله لكم ، طيبا فى نفسه لاخبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .

(واتقوا الله) فى أن تعودوا إلى أكل شىء من أموال الناس كفارا كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

(إن الله غفور رحيم) أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أولا لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم ، وأباح لكم الانتفاع به .

وخلاصة ما تقدم — إنه ليس من سنة الأنبياء ، ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمنّ عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنبا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته ـ لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم ، والله غفور رحيم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

المعنى الجملى

لما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم، فأنزل الله هذه الآية استمالة لهم وترغيبا فى الإسلام ببيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديدا وإنذارا لهم ببقائهم على الكفر وخيانته صلى الله عليه وسلم ، وبشارة للنبى صلى الله عليه وسلم ، بحسن العاقبة والظفر له ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت فى العباس وعَقِيل بن أبى طالب ونَوْفل بن الحرث ، وكان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم أكرهونى ، فقال عليه السلام : إن يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب علىّ فقال : أما شىء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحرث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لاأدرى مايصيبنى ؟ فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل، فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرنى ربى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن

لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا فى أمرك ، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب .

قال العباس : فأبدلنى الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبدا ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة ؛ وأنا أنتظر المغفرة من ربى .

الإيضاح

(يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيمانا أو سيظهر فى حينه - كما يدعى بعضكم - يعطكم إذ تسلمون ماهو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى المغانم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها .

روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا) الآية .

(ويغفر لكم والله غفور رحيم) أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه ويعدّهم للسعادة فى الدنيا والآخرة .

وفى ذلك من الحضّ على الإسلام والدعوة إليه مالا يخفى .

(وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل) أى وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، فنقضوا الميثاق الذى أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

(فأمكن منهم) يقال مكنه من الشيء وأمكنه منه : أى فمكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد .

(والله عليم حكيم) فهو يعلم ما ينتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم يفعل مايفعل على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين .

وفى الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة فى كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التى علمت مما تقدم .

روى البخارى عن أنس « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان فى أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : ائذن لنا فنترك لابن أختنا العباس فداءه (كانت جدته أنصارية) فقال صلى الله عليه وسلم : والله لاتذرون منه درهما » .

وقد كان فداء الأسير أربعين أوقية ذهبا ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : أللقرابة صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى (يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) الآية فقال العباس (بعد إسلامه) وددت لو كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) اه .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم وما يجب أن يعمل مع الأسرى ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك ،

وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظا غير منبوذ ولا منكوث فقال :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

المعنى الجملى

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها :

(١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر — إلى صلح الحديبية.

(٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .

(٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .

(٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

الإيضاح

(١) (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) أى هؤلاء الكملة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فرارا بدينهم من فتنة المشركين إرضاء لربهم ونصرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله : أى بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق .

أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

(ا) ما ينفق فى التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه فى أوطانهم عند خروجهم منها .

وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(ا) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عَددهم وعُددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

(٢) (والذين آووا ونصروا) أى والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه ونصروهم وآمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها فى أموالهم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ، ومن جرّاء هذا جعل الله حكمهم حكم المهاجرين فى قوله :

(أولئك بعضهم أولياء بعض) أى يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر فى القتال وما يتعلق به من الغنائم لأن حقوقهم ومرافقهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج ، وإغاثة المضطر منهم .

(٣) (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) الولاية بفتح الواو وكسرها ، وقيل هى بالفتح خاصة بالنصرة والمعونة والنسب والدين ، وبالكسر فى الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحِرف ،

أى إن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ، ودارهم دار حرب وشرك لايثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لاسبيل إلى نصر أولئك لهم .

أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لاعهد بينكم وبينهم، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم ، ولا نباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق.

(والله بما تعملون بصير) فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؛ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرا وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر .

وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولا سيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ، وما أكثر ما تنقضها بالتأويل والتحايل فى التفسير إذا رأت فى ذلك مصلحتها ، حتى قال رئيس الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلاقصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى التفصى منها بالتأويل هم الإنكليز .

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أى فى النصرة والتعاون على قتال

الشركين ، فهم فى جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين . وإن كانوا شيعا يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن فى الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ونقضوا العهود التى كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر .

(إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء ـ يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة . ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) أى هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم .

(لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة تامة من ربهم تمحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم فى دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم فى دار النعيم

(٤) (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) أى وهؤلاء الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم ـ فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار وبما تقدم من الولاية والجزاء .

وفى جعلهم منهم دليل على فضل السابقين على اللاحقين ، يرشد إلى ذلك قوله

تعالى « لَا يَسْتَوِى مِنكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى » وقوله : « والسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

ولا يخفى مافى الآية من ترغيب فى الإيمان والهجرة .

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) أولو الأرحام : هم أصحاب القرابات ، والأرحام واحدها رحم (بزنة قفْل وكتِف) وأصله رحم المرأة وهو موضع تكوين الولد ، سمى به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أى وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، و بالتوارث فى دار الهجرة فى ذلك العهد وفى كل عهد ، وقوله : فى كتاب الله ، أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

والخلاصة — إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه و برّه ، ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها، و إذا وجد قريب و بعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » ، أى فللمستحق من الأجانب .

(إن الله بكل شىء عليم) أى فهو سبحانه إنما شرع لكم هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسنن

التشريع والأحكام ـ عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدينية والدنيوية، ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ » .

زادنا الله علما بفقه كتابه ، ووفقنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه هو السميع المجيب .

موضوعات السور المكية والمدنية

تقدم أن قلنا فى آخر سورة البقرة : إن أمهات المسائل التى ذكرت فى السور المكية هى :

أصول الإيمان من الاعتقاد بوحدانية الله والتصديق بالوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وقصص الرسل مع أقوامهم ، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة ، وجاء فى أثناء ذلك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم و إبطال ضلالاتهم والنعى على خرافاتهم .

وأمهات ما جاء فى السور المدنية ـ قواعد التشريع التفصيلية ، ومحاجّة أهل الكتاب ببيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسلهم ، فكثر فى سورة البقرة محاجة اليهود ، وكثر فى سورة آل عمران محاجة النصارى ، وكثر فى سورة المائدة محاجة الفريقين ، وكثر فى سورة النساء الأحكام المتعلقة بالمنافقين ، وكثر فى سورة التوبة فضائح المنافقين .

أهم ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الأحكام

(١) تعليل أفعاله وأحكامه بمصالح الخلق كقوله : « وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » وقوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ » .

(٢) كفاية الله تعالى رسوله مكر مشركى قريش فى مكة حين ائتمارهم على

حبسه طيلة حياته أو نفيه من بلده أو قتله كما قال سبحانه « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) امتناع تعذيب المشركين ما دام الرسول فيهم كما قال : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » .

(٤) استغاثة الرسول ربه وإمداده بالملائكة كما قال : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » .

(٥) كراهة مجادلة الرسول فيما يأمر به ويرّغب فيه من أمور الدين ومصالح المسلمين بعد أن تبين لهم أنه الحق كما قال « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » .

أما المجادلة والمراجعة فى المصالح الحربية والسياسية قبل أن يتبين الحق فيها فمحمودة، إذ بها تتم المشاورة التى عمل بها النبى صلى الله عليه وسلم فى مواطن كثيرة .

(٦) إن من شأن صادق الإيمان أن يتوكل على الله ، أى يكل إليه أموره وحده ، فلا يتكل على مخلوق مربوب لخالق مثله ، فكل المخلوقات سواء فى الخضوع لسننه ، ومن شأن المؤمن المتوكل أن يطلب كل شىء من سببه خضوعا لسننه فى نظام خلقه ، فإذا جهل الأسباب أو عجز عنها وكل أمره فيها إلى ربه داعيا أن يعلّمه ما جهل منها ، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد وحيوان أو إنسان كما قال « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وبين فائدة ذلك بقوله « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(٧) إن الظلم فى الأمم يقتضى عقابها فى الدنيا بالضعف والانحلال الذى قد يفضى إلى الزوال أو فقد الاستقلال ، وإن هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها لا على مقترفى الظلم وحدهم كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ».

(٨) إن الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد ، فإن حب المال والولد من الغرائز التى يعرض للناس فيها الإسراف إذا لم تهذب بهدى الدين وحسن التربية والتعليم كما قال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

(٩) إن تقوى الله فى الأعمال العامة والخاصة تكسب صاحبها ملكة يفرق بها بين الحق والباطل والخير والشر كما قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » .

(١٠) إن تغير أحوال الأمم وتنقلها فى الأطوار من نعم إلى نقم أو بالعكس أثر طبيعى لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والآداب « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(١١) وجوب إعداد الأمة بكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها ، وذلك يشمل السلاح ، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وقد كثرت أنواعه من برّى وبحرى وهوائى ، ومرابطة الفرسان فى ثغور البلاد لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على الأمة ومصالحها أو على أفرادها «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

(١٢) تفضيل السلم على الحرب إذا جنح لها العدو ، لأن الحرب ضرورة من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» .

(١٣) المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق فى الحرب والسلم ، وتحريم الخيانة سرا وجهرا « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » .

(١٤) وجوب معاملة ناقضى العهد بالشدة التى يكونون بها عبرة ونكالا لغيرهم

تمنعهم من الجرأة والإقدام على العودة لمثل ذلك « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » .

(١٥) جعل الغاية من القتال الدينى حرية الدين ومنع الفتنة فيه حتى لا يرجع المشركون أحدا عن دينه « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(١٦) اتقاء التنازع والتفرق حال القتال لأنه سبب الفشل وذهاب القوة « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » ، وقد جرت على ذلك الدول فى العصر الحديث ، فإنها تبطل تنازع الأحزاب زمن الحرب وتكتفى بالشورى العسكرية التى شرعها الإسلام وعمل بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة بدر ، وفرضت عليه فى غزوة أحد « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

(١٧) منع اتخاذ الأسرى ومفاداتهم بالمال فى حال الضعف ، وجواز ذلك حين الإثخان فى الأرض بالقوة والعزة والسيادة ، مع ترغيب الأسرى فى الإيمان و إنذارهم أن يخونوا المسلمين بعد إطلاقهم بمنّ أو فداء .

سورة التوبة — سورة براءة

عدد آيها ثلاثون ومائة ، وهى مدنية ، ولها أسماء كثيرة : منها الواضحة لما تضمنته من ذكر أسرار المنافقين وإنبائهم بما فى قلوبهم من الكفر وسوء النيات ، والمدمدمة ، والمخزية .

وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الاستعداد لها وقت القيظ زمن العسرة ، وفى أثنائها ظهر من علامات نفاق المنافقين ما كان خفيًّا من قبل .

وأولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عليا ليقرأها على المشركين فى الموسم .

روى البخارى عن البراء بن عازب قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ » وآخر سورة نزلت براءة .

ووجه المناسبة بينها و بين ماقبلها ـ أنها كالمتممة لها فى معظم ما فى أصول الدين وفروعه ، وفى التشريع الذى جلّه فى أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك ، وأحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدئ به فى الأولى أتم فى الثانية ـ وهاك أمثلة على ذلك .

(١) تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب فى كل منهما .

(٢) ذكر فى الأولى صدّ المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ » إلى آخر الآيات

(٣) ذكرت العهود فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها .

(٤) ذكر فى سورة الأنفال الترغيب فى إنفاق المال فى سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه فى براءة .

(٥) جاء فى الأولى ذكر المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ـ وفصل ذلك فى الثانية أتمّ تفصيل .

(تنبيه) لم يكتب الصحابة ولا مَن بعدهم البسملة فى أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة . وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوفا بالرحمة يوجبه .

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) .

شرح المفردات

البراءة : من برئ من الدين، إذا أسقطعنه، ومن الذنب ونحوه: إذا تركه وتباعد عنه، والمعاهدة : عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها ، وكان كل فريق يضع يمينه فى يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان ، ومن جراء ذلك سميت أيمانا فى قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ) أى لا عهود لهم ، والسياحة فى الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لايعرض المسلمون لهم فيها بقتال ، وقوله : غير معجزى الله ، أى لاتفوتونه بالهرب والتحصن ، والخزى : الذل والفضيحة بما فيه عار ، والأذان : الإعلام بما ينبغى أن يعلم ، ويوم الحج الأكبر : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ، ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحدا منكم ولم يضروكم ، ولم يظاهروا : أى لم يعاونوا .

المعنى الجملى

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين بالإسلام وأقام بناء دعوته على أساس البراهين المقنعة ، ومنع الإكراه على الدخول فيه والحمل على قبوله بالقوة ، فقاومه المشركون وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدّهم عنه ، ولم يكن أحد يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب إلا بتأمين حليف أو قريب ، فهاجر منهم عدد كثير إلى بلاد الحبشة وإلى جهات كثيرة مرة بعد أخرى ، ثم اشتد إيذاؤهم للرسول حتى ائتمروا فى دار الندوة علناً على حبسه أو نفيه أو قتله ، ورجحوا آخر الأمر قتله ، فأمره الله بالهجرة إلى المدينة وصار يتبعه من أصحابه من قدر عليها ، وقد وجدوا بها أنصارا يحبون الله ورسوله ، ويحبون من هاجر إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم ، وكانت الحال بينهم وبين المشركين حال حرب بطبيعة الحال ومقتضى المألوف فى ذلك العصر ، وعاهد النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى على السّلم والتعاون بينهم ، نخانوا ونقضوا العهد وظاهروا المشركين عليه ، وعاهد المشركين فى الحديبية على السّلم والأمان عشر سنين بشروط كانت منتهى السخاء عن قوة وعزة ، لا عن ضعف وقلة ، حبًّا للسلم ونشر الدعوة بالإقناع والحجة فدخلت خزاعة فى عهده صلى الله عليه وسلم كما دخلت بكر فى عهد قريش ،

ثم عدت الثانية على الأولى وأعانتها قريش بالسلاح ناقضين العهد ، فكان ذلك سبب عودة الحرب بينه و بينهم إلى أن كان فتح مكة ، و به خضدت شوكة الشرك وذل أهله ، ولكنهم ما زالوا يحاربون حيث قدروا ، ودلت التجارب أنه لا عهود لهم ولا يؤمن غدرهم فى حالى القوة والضعف ، ولا يستطيع المسلمون أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات ويأمن كل شر الآخر ما داموا على شركهم ، ولا سيما وقد سبقهم إلى نقض العهد من كانوا أجدر منهم بالوفاء وهم أهل الكتاب .

من جرّاء هذا جاءت هذه السورة بنبذ عهودهم المطلقة و إتمام عهودهم المؤقتة لمن استقام عليها ، فحاربهم النبى صلى الله عليه وسلم وتمّ له الغلب عليهم ومحا الشرك من جزيرة العرب ودانت كلها للإسلام « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » .

الإيضاح

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) أى هذه براءة آتية من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، كما يقال: هذا كتاب من فلان إلى فلان. ونسبه إلى الله ورسوله من قِبَل أنه تشريع جديد شرعه الله وأمر رسوله بتنفيذه ونسب معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين و إن كان الرسول هو الذى عقد العهد ، لأنه عقده بوصف كونه الإمام والقائد لهم ، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه ، فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات ، وللقوّاد من أهل الحل والعقد الاجتهاد فيما لا نص فيه منها ومن أحكام الحرب والصلح ونحوها

قال البغوى : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره الله بنقض عهودهم ، وذلك قوله عز وجل : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » اهـ . قال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذه الآية اختلافا كثيراً ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، ومن

له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت ، لقوله تعالى : « فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ولما سيأتى فى الحديث : « ومن كان بينه و بين رسول الله عهد فعهده إلى مدته » وهذا أحسن الأقوال وأقواها واختاره ابن جرير رحمه الله اه .

(فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) هذا خطاب من الله للمؤمنين مبيّن لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برئ الله ورسوله من عهودهم ، أى قولوا لهم : سيروا فى الأرض وأنتم آمنون لايتعرض لكم أحد من المسلمين بقتال مدة أربعة أشهر تبتدئ من عاشر ذى الحجة من سنة تسع للهجرة وهو يوم النحر الذى بُلّغوا فيه هذه الدعوة ، وتنتهى فى عاشر شهر ربيع الآخر من سنة عشر .

والحكمة فى تحديد هذه المدة أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكر فى عاقبة أمرهم ، والتخير بين الإسلام والاستعداد للقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم ، وهذا منتهى ما يكون من السجاحة والرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين ، حتى لايقال إنه أخذهم على غرة .

(واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين) أى واعلموا أنكم لن تعجزوا الله ولن تفوتوه فتجدوا مهرباً من الله لسياحتكم إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله ، بل سيسلط المؤمنين عليكم ويؤيدهم بنصره الذى وعدهم به ، والعاقبة للمتقين ، فقد جرت سنة الله بخزى الكافرين منكم ومن غيركم فى معاداتهم وقتالهم لرسله فى الدنيا والآخرة كما جاء فى مشركى مكة ومن نحا نحوهم . « كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) أى هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافات

شركهم وضلالهم فى وقت يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام ، وهو يوم الحج الأكبر يوم النحر الذى فيه تنتهى فرائض الحج، ويجتمع الحجاج لإتمام مناسكهم وسننهم فى منى.

ثم أكد ما يجب أن يبلّغوه بلا تأخير بقوله :

(فإن تبتم فهو خير لكم) أى قولوا لهم : فإن تبتم ورجعتم عن شرككم وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد وقَبلتم هدى الإسلام ، فذلك خير لكم فى الدنيا والآخرة ، لأن فى هدايته سعادتكم فيهما .

(وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله) أى وإن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه ، فلن تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغلب كما قال : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى وبشر أيها الرسول الكريم من جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر بعذاب أليم فى الآخرة .

وهذا من أنباء الغيب التى لا تعلم إلا بوحى من الله عز وجل ، واستعمال البشارة فيما يسوء ويكره ضرب من التهكم كما لا يخفى :

(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) أى لا تمهلوا الناكثين للعهود فوق أربعة أشهر ، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم ، فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة إلى قتالهم ، بل أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، بشرط ألا ينقصوا شيئا من شروط الميثاق ولا يضاروكم ، ولا يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم ، كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح .

وفى ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقودا ، وإلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وإلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهِد لنا على ذلك العهد بحذافيره بنصه وفحواه ، فإن نقص شيئا منه وأخلّ بغرض من أغراضه عدّ ناقضا له كما قال : (ثم لم ينقصوكم شيئا)

ويدخل فى الإخلال مظاهرة أحد من الأعداء على المسلمين ، لأن المقصد من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر وحرية التعامل بينهما .

(إن الله يحب المتقين) أى الذين يتقون نقض العهد وخفر الذمم وسائر المفاسد التى تخل بالنظام وتمنع جريان العدل بين الناس .

وفى ذلك إيماء إلى أن مراعاة حقوق العهد تدخل فى حدود التقوى ، وإلى أن التسوية بين الوفىّ والغادر منافية لذلك وإن كان المعاهد مشركا .

وقد ورد فى تنفيذ أمر الله بهذه البراءة والأذان بها : أى التبليغ العلنى أحاديث فى الصحاح أشهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل أبا بكر رضى الله عنه أميرا على الحج سنة تسع وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ، ثم أردفه بعلىّ كرم الله وجهه ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا فى أمرهم ، وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها ، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لنبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة ، وهى نحو أربعين آية.

وقد كان من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبة ، وأن عليا اختص بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبى بكر ، وكان يساعده على ذلك بعض الصحابة كأبى هريرة .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) .

شرح المفردات

انسلاخ الأشهر : انقضاؤها والخروج منها ، يقال : سلخ فلان الشهر وانسلخ منه ، قال تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ » وقال شاعرهم :

إذا ما سلخت الشهر أهلكت مثله   كفى قاتلى سلخى الشهور و إهلالى

والحرم : واحدها حرام ، وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ بقوله : « فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » وقوله : وخذوهم ، أى بالأسر ، والأخيذ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى اقعدوا لهم على كل مرصد ، واستجاره : طلب جواره ، أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى يسمون النصير : جارا ، وأجِرْه : أى أمّنه ، ومأمنه : أى مسكنه الذى يأمن فيه ، وهو دار قومه ، وقوله: لا يعلمون أى ما الإسلام وما حقيقته ، فلابد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم وضلالاتهم على الوجه الذى سبق تفصيله ، قفّى على ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم والأمان الذى أعطى لهم للضرب فى الأرض .

الإيضاح

(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى فإذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرم عليكم فيها قتال المشركين ، فافعلوا معهم كل ماترونه موافقا للمصلحة من تدابير الحرب وشئونها لأن الحال بينكم و بينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذى منحتموه ، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية :

(١) قتلهم فى أى مكان وجدوا فيه من حلّ وحرم .

(٢) أخذهم أسارى ، وقد أبيح هنا الأسر الذى حظر فى سورة الأنفال بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » لأن الإثخان وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد .

(٣) حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمعقل أو حصن ، بأن يحاط بهم و يمنعوا من الخروج والانفلات حتى يسلموا و ينزلوا على حكمهم بشرط ترضونه أو بدون شرط .

(٤) القعود لهم كل مرصد : أى مراقبتهم فى كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه ، ورؤية تجوالهم وتقلبهم فى البلاد .

وهذه الآية تسمى آية السيف ، إذ جاء الأمر فيها بالقتال وقد كان مؤجلا ومنسأ إلى أن يقوى المسلمون ، وكان الواجب عليهم فى حال الضعف الصبر على الأذى .

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) أى فإن تابوا عن الشرك الذى يحملهم على عداوتكم وقتالكم ودخلوا فى الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين ، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها فى الأوقات الخمسة ، والصلاة مظهر الإيمان وأكبر أركانه ، وهى مطلوبة من الغنى والفقير والأمير والمأمور ، وهى حق الله على عباده تزكى أنفسهم وتهذب أخلاقهم وتؤهلهم للقيام بحقوق عباده . « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » وآتوا الزكاة المفروضة فى أموال

الأغنياء للفقراء والمصالح العامة - فخلوا سبيلهم واتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين، وبالكف عن حصرهم إذا كانوا محاصرين، وبالكف عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين، والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم ويرحمهم فيمن يرحم من عباده، وقد جاء فى الأثر « الإسلام يَجُبُّ ما قبله ».

وفى الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجبان لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال إلا بما يوجب عليه الشرع من جناية تقتضى حدا معلوما أو جريمة توجب تعزيرا أو تغريما.

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر مرفوعا « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله ».

والخلاصة — إن اشتراط الأشياء الثلاثة للكف عن قتال المشركين للتحقق من دخولهم فى جماعة المسلمين بالفعل، والتزامهم شرائع الإسلام وإقامة شعائره، إذ مقتضى الشهادة الأولى ترك عبادة غير الله، ومقتضى الشهادة الثانية طاعة الرسول فيما يبلغه عن الله تعالى، واكتفى من أركان الإسلام بالصلاة التى تجب فى اليوم والليلة خمس مرات، لأنها الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين المسلمين، وبالزكاة لأنها الرابطة المالية الاجتماعية، فمن أقامهما كان أجدر بإقامة غيرهما.

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) أى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلا من طلب منكم الأمان ليعلم ما أنزل الله وأمر به من دعوة الإسلام، فإن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغا مقنعا ولم يسمعوا شيئا من القرآن، أولم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة عليهم، فأعرضوا وعادَوُا الداعى وقاتلوه، لأنه جاء بتفنيد ماهم عليه من الشرك، وتسفيه ما كان عليه آباؤهم منه.

والخلاصة — وإن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكى يسمع كلام

الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه ، أو ليلقاك وإن لم يذكر سببا ـ فأجره وأمّنه على نفسه وأمواله لكى يسمع أو لكى يراك ، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك ، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذى يأمن به على نفسه ويكون حرّا فى عقيدته ، حيث لايكون للمسلمين سلطان عليه ، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير غدر .

والمراد بالسماع أن يسمع المقدار الذى تقوم به الحجة ويتبين به بطلان الشرك وحقيقة التوحيد والبعث وصدق الرسول فى تبليغه عن الله ، فإنه إذا ألقى إليه السمع لايلبث أن يظهر له الحق إذا لم تصده العصبية والعدوان للداعى ، فإن لم يفعل ذلك كان له شأنه وكانت له حريته ، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين فى دار الإسلام وهو على هذه الحال .

(ذلك بأنهم قوم لايعلمون) أى إن ما ذكر من إجارة المستجير من المشركين إلى أن يسمع كلام الله من جراء أنهم قوم جاهلون لايدرون ماالكتاب وما الإيمان، وما أعرضوا إلا عن جهل وعصبية واغترار بالقوة وإصرار على الجفوة . فإذا هم شعروا بضعفهم وصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم ، وأعدهم ذلك للعلم بما كانوا يجهلون ، وطلبوا الأمان لهذا السبب أو لغرض آخر يترتب عليه إمكان تبليغهم الدعوة وإسماعهم كلام الله ـ أجيبوا إلى ذلك لأن هذه الطريق المثلى لتعليمهم وهدايتهم ، والرسول صلوات الله عليه إنما أرسل مبشرا ونذيرا .

وفى الآية إيماء إلى أن التقليد فى الدين غير كاف ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، لأنه لوكان كافيا لوجب ألايمهل الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن نقتلك ، فأمهلناه ليحصل له النظر والاستدلال ، فإن ظهر على المشرك علامات القبول للحق ببحثه عن الدليل والتفكير فيه أمهل وترك ، وإن ظهر أنه معرض عن الحق لم يلتفت إليه ووجب تبليغه إلى مأمنه .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ؟ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

شرح المفردات

ظهر عليه : غلبه وظفر به ، ورقب الشيء : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لايرقب الله فى أموره : أى لاينظر إلى عقابه ، فيركب رأسه فى المعصية ، والإلّ : القرابة . قال ابن مقبل :

أفسد الناسَ خُلوفٌ خَلَفوا　　قطعوا الإلّ وأعراق الرَّحِم

والذمة والذمام : العهد الذى يلزم من ضيعه الذم ، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار ، فاسقون : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر براءة الله ورسوله من المشركين وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض أحرارا ، ثم ذكر دعوتهم إلى التوبة من الشرك وإنذارهم سوء العاقبة ، ثم أمر بما يترتب على النبذ وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى وقتت بها ، بمناجزة المشركين بكل أنواع القتال المعروفة فى ذلك العصر من قتل وأسر وحصر وقطع طرق الوصول عليهم ، إلا من يستجير بالرسول ليسمع كلام الله فإنه يجار حتى يسمعه ـ قفى على ذلك ببيان أن هـذا النبذ وما يترتب عليه إنما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين أو دونه .

الإيضاح

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) المراد من المشركين الناكثون للعهد لأن البراءة إنما هى فى شأنهم ، أى بأى حال يكون لهؤلاء المشركين عهد معتدّ به عند الله وعند رسوله يستحق أن يراعى و يحافظ عليه إلى إتمام المدة بحيث لايتعرض لهم على حسبه قتلا وأخذا ، وحالهم مابين فى الآية التالية ـ إن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة .

(إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) أى كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم بنو كنانة و بنو ضمرة ، لأنهم ممن كان قد أقام على عهده ولم يدخل فى نقض ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين قريش يوم الحديبية من العهد .

(فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى فهؤلاء تربصوا بهم ولا تقتلوهم ما استقاموا لكم على العهد ، إذ لايجوز أن يكون نقضه من قبلكم .

(إن الله يحب المتقين) أى الذين يتقون الغدر ونقض العهد ، وهؤلاء المعاهدون المذكورون هنا: هم المذكورون أوّلا بقوله: إلا الذين عاهدتم من المشركين الخ ، وإنما أعيد ذكره هنا لبيان أنه يجب أن تكون الاستقامة على العهد مرعية من الطرفين المتعاقدين إلى نهاية مدته ، و بيان استباحة نبذ عهد الذين لا يستقيمون للمعاهد لهم إلا عند العجز عن الغدر حتى إذا ما قدروا عليه نقضوا عهده أو نقصوا منه كما فعلت قريش فى نقض عهد الحديبية بمظاهرتهم لحلفائهم من بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) أى كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم ـ عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء عند رسوله ـ وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم فى القوة والغلب ، لا يرقبوا الله ولا القرابة فى نقض العهد والميثاق .

والخلاصة — إنه لا عهد لمن كان له عهد وغَدَر فيه ، وكذا من لا عهد له منهم لأنهم لشدة عداوتهم للمؤمنين لم يقيدوا أنفسهم معهم بعهد سلم مطلق ولا مؤقت .

ثم بين ما تنطوى عليه جوانحهم من الضغينة للمؤمنين فقال :

(يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) أى هم يخادعونكم حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسول يرون أنه يرضيكم سواء أكان عهدا أم وعدا أم أيمانا مؤكدة ، وقلوبهم مملوءة ضغنا وحقدا « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » فهم إن ظهروا عليكم نكثوا العهود وحنثوا بالأيمان وفتكوا بكم بقدر ما يستطيعون .

وإنما يفعلون ذلك لأن أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، فليس لهم مروءة رادعة ، ولا عقيدة وازعة ، ولا يتعففون عن الغدر وعما يجر إلى سوء الأحدوثة وثلم العرض .

وإنما وصف الأكثر ، لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهودهم ، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم .

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء ونحوهما مما يمدح عندهم — أردف ذلك بذكر السبب فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله) أى استبدلوا بآيات الله الدالة على توحيده بالعبادة ، وعلى الوحى والرسالة وما فيها من الهداية للناس ، وعلى البعث والجزاء على الأعمال - ثمنا قليلا من حطام الدنيا ، وهو ماهم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال ، فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام ومايقتضيه من الوفاء وصدوا غيرهم أيضا ، وجعله قليلا لأنه زائل غير باق وما عند الله باق دائم وهو خير وأبقى ، لأن ما عندهم قليل بالنظر إلى ما عند غيرهم .

روى أن أبا سفيان لما أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعاما استمالهم به فأجابوه إلى ما طلب .

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى قبح عملهم الذى يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ، والصد عن دين الله وماجاء به رسوله من البينات والهدى .

(لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) أى ومن أجل هذا الكفر لا يرعون فى مؤمن يقدرون على الفتك به قرابة تقتضى الود ، ولاذمة توجب الوفاء بالعهد ، ولار با يحرم الخيانة والغدر ، فذنب المؤمن عندهم أنه لاينقض عهدا ولا يستحل غدرا ولا يقطع رحما .

(وأولئك هم المعتدون) أى المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم ، والعلة فى هذا رسوخهم فى الشرك وكراهتهم للإيمان وأهله ، فلا علاج لهم إلا الرجوع عن الكفر والاعتصام بالإيمان والتمسك بفضائل الأخلاق وما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ

وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه عداوة المشركين للمؤمنين ـ أردف ذلك بما سيكون من أمرهم بعد ذلك وهو لا يعدو أحد أمرين فصلهما فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(١) (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) أى فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم بقتالكم ، عن شركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله وأنابوا إليه وأطاعوه فأقاموا الصلاة أى أدوها بشروطها وأركانها ، وآتوا الزكاة المفروضة فهم إخوانكم فى الدين الذى أمركم به ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وبهذه الأخوّة يزول كل ما كان بينكم من إحَن وعداوات ، ولا تعارف أجمل من التعارف فى المساجد لإقامة الصلوات وأداء الصدقات بمواساة الغنى للفقير ، وهذه المزية الدنيوية كانوا محرومين منها ، إذ كان بعضهم حربا لبعض إلا ما كان من عهد أو جوار .

(ونفصل الآيات لقوم يعلمون) أى وإنا نبين حجج الله وأدلته على خلقه لقوم يعلمون ما نبين لهم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها ، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته .

(٢) (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) يقال نكث الغزل والحبل : حل الخيوط التى تألف منها وأرجعها إلى أصلها ، والأيمان العهود وقد كان كل من العاقدين للعهدين يضع يمينه فى يمين الآخر .

أى وإن نكث هؤلاء ما أبرمته أيمانهم من الوفاء بالعهد الذى عقدوه معكم ، وعابوا دينكم واستهزءوا به وصدوا الناس عنه ، ومن ذلك الطعن فى القرآن وفى النبى

صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم فقاتلوهم فهم أئمة الكفر وحملة لوائه المقدّمون على غيرهم بزعمهم ، فهم الأجدر بالقتل والقتال .

(إنهم لا أيمان لهم) أي إن عهودهم لا قيمة لها ، فهي مخادعة لسانية لا يقصد الوفاء بها كما قال سبحانه « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة .

(لعلهم ينتهون) أي قاتلوهم رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونكث الأيمان ونقض العهود والعودة إلى قتالكم كلما قدروا عليه .

وفي ذلك إيماء إلى أن القتال لا يكون اتباعا لهوى النفس ، أو إرادة منافع الدنيا من السلب والنهب وإرادة الانتقام ، وهذه ميزة الإسلام ، إذ جعل الحرب ضرورة لإرادة منع الباطل وتقرير الحق .

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) .

المعنى الجملي

بعد أن أمر سبحانه بقتال أئمة الكفر ـ ذكر السبب الذي يبعث على قتالهم ، ولعل الله قد علم أن في نفس جماعة من المؤمنين كرها لقتال من بقي من المشركين بعد فتح

مكة وظهور الإسلام لأمنهم من ظهورهم عليهم ورجائهم فى إيمانهم ، وعلم أنه يوجد من المنافقين من يزينون لهم ذلك ، والله يريد أن تطهر جزيرة العرب من خرافات الشرك وأدران الوثنية ، ويمحص المؤمنين من النفاق ومثالبه .

من جرّاء هذا أعاد الكرة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد المعتدين عليهم بالحرب الذين بدءوهم بالقتال وهموا بإخراج الرسول أو حبسه أو قتله .

الإيضاح

(ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ؟) أى قاتلوا هؤلاء المشركين لأسباب ثلاثة :

(١) إنهم نكثوا الأيمان التى حلفوها لتأكيد عهدهم الذى عقدوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ترك القتال عشر سنين يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحرارا فى دينهم ، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم ليلا بالقرب من مكة على ماء يسمى الهجير ، وكان هذا من أفظع أنواع الغدر ، ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لانصرتُ إن لم أنصركم » وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة .

(٢) إنهم هموا بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من وطنه أو حبسه حتى لايبلغ رسالته، أو قتله بأيدى عصبة من بطون قريش ليتفرق دمه فى القبائل ، فتتعذر المطالبة به ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) إنهم بدءوا بقتال المؤمنين فى بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة عيرهم : لاننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه ونقيم فى بدر أياما نشرب الخمر وتعزف على رءوسنا القيان ، وكذا فى أحد والخندق وغيرها .

و بعد أن أورد البراهين والحجج الموجبة لقتالهم قال :

(أتخشونهم ؟) أى أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفا منكم وجُبنا ؟ .

(فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) أى فالله أحق أن تخشوا مخالفة أمره وترك مخالفة عدوه ، إذ المؤمن حق الإيمان لايخشى إلا الله ، لأنه يعلم أنه هو الذى بيده النفع والضر ، ولايقدر أحد على مضرة أو نفع إلا بمشيئته ، فإن خشى غيره بمقتضى سننه تعالى فى أسباب الضر والنفع ، فلا ترجح خشيته على خشية الله ، بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره ، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره .

وهذا احتجاج آخر على جماعة المسلمين الذين لايخلو أن يكون بينهم جماعة من المنافقين ومرضى القلوب الذين يكرهون القتال إذا لم توجبه الضرورة كما قال : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » أو رجاء انتشار الإسلام بدونه بعد فتح مكة والطائف وهدم دولة الشرك .

وخلاصة ما سلف — إنه بعد تلك الحجج التى تقدم ذكرها ، لم يبق من سبب يمنع قتالهم إلا الخشية لهم والخوف من قتالهم ، وخشية الله أحق وأجدر إن كنتم مؤمنين حقا ، كيف وقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة مع ضعفكم وقوتهم وقلتكم وكثرة عديدهم .

وفى الآية إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلاهم همة ولايخشى إلا الله .

و بعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم ، وفند الشبه المانعة من ذلك ـ أمرهم به أمرا صريحا مع وعده لهم بالنصر و إظهار المؤمنين عليهم ، وهــذه العِدَة من أخبار الغيب فى وقعة معينة ، وقد صدق الله وعده فقال :

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) أى قاتلوهم كما أمرتكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك يعذبهم الله بأيديكم و يمكنكم من رقابهم قتلا ، ومن صدورهم ونحورهم طعنا ، و يخزهم بذل الأسر والقهر والفقر لمن

لم يقتل منهم ، وينصركم عليهم حتى لاتقوم لهم قائمة بعد هذا ، فلا يعودون إلى قتالكم كما كان شأنهم بعد وقعة بدر ، ويشف صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم تكونوا تستطيعون دفعه ـ وقد كان فى صدورهم من موجدة القهر والذل ما لاشفاء له إلا بهذا النصر عليهم ـ وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدربهم المشركون كخزاعة وغيرها ممن كانوا فى دار الشرك عاجزين عن الهجرة ، وروى عن ابن عباس أنهم بطون من اليمن وسبأ قدموا إلى مكة وأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال صلى الله عليه وسلم « أبشروا فإن الفرج قريب » .

(ويذهب غيظ قلوبهم) الذى كان قد وقر فيها من غدر المشركين وظلمهم ، ومن طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه وأكملها فإنه يعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة النفس وصدق العزيمة .

وهذا الخزى والتعذيب الذى سينزله بهم لايعمهم ، بل هو خاص بمن استحوذ عليهم الكفر ، فلم يبق فيهم استعداد للإيمان .

(ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) أى وأما غيرهم فسيتوب الله عليهم من شركهم ويوفقهم للايمان ويتقبله منهم ، وهو العليم بما لاتعلمون من استعدادهم فى الحال والاستقبال ، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام لإقامة دينه وإظهاره على الدين كله .

ومن سننه تعالى تفاوت البشر فى العقائد والأخلاق والأعمال ، وقابلية التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات على حسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

شرح المفردات

الوليجة : مايلج فى الأمر أو القوم مما ليس منه أو منهم كالدخيلة ، ويطلق على الواحد والكثير ، ويراد بها هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات التى قبل هذه فى بيان حال المشركين من مواصلتهم ما بدءوا به من قتال المؤمنين لأجل دينهم ، وقتال المؤمنين لهم على الوجه الذى قامت به الحجج الناصعة على كون المؤمنين على الحق فى هذا القتال ؛ والكلام الآن فى بيان حال جماعة المسلمين وشأنهم فى الجهاد الحق الذى يتوقف عليه تمحيصهم من ضعف الإيمان والهوادة فى حقوق الإسلام .

الإيضاح

(أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) الخطاب هنا لجماعة المسلمين الذين من بينهم منافقون ومرضى القلوب يثبطون عن القتال .

والمعنى — هل جاهدتم المشركين حق الجهاد وأمنتم عودتهم إلى قتالكم كما بدءوكم أول مرة ، وأمنتم نكث من عاهدتم منهم لأيمانهم كما نكثوا من قبل ؟ وهل علمتم أنهم تركوا الطعن فى دينكم وصدّ الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهور الإسلام ؟ وهل نسيتم ما اعتذر به المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك من أعذار ملفقة كاذبة ، وما كان من تثبيط من خرج منهم معكم عن القتال ؟ أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان ، ولم يتبين المخلَص من المجاهدين منكم الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانة من المشركين

الذين يحادون الله تعالى بالشرك به ، ويحادون الرسول بالصد عن دعوته ، ويقاتلون المؤمنين أنصار الله ورسوله ـ من المنافقين الذين يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة ويقفونهم على سياسة الأمة كما يفعل المنافقون فى كل زمان .

ونحو الآية قوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » .

وقد عبر سبحانه عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين وتميزهم من المنافقين وضعفاء الإيمان ـ بعدم علمه بهم ، لأن عدم علمه بالشىء دليل على عدم وجوده .

ولا يظهر هؤلاء الممتازون إلا بالابتلاء بالشدائد كما جاء فى قوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

(والله خبير بما تعملون) الآن وبعد ذلك وقبله ، محيط بكل شىء علما ، وقد مضت سنته تعالى بأن التكليف الذى يشق على الأنفس هو الذى يمحص مافى القلوب ويظهر السرائر بقدر ما فيها من حسن الاستعداد ، ويبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء استعدادها .

وخلاصة المعنى — أظننتم أن تتركوا قبل أن يتم التمحيص والتميز بين الصادقين فى جهادهم والكاذبين فاسدى السريرة ومتخذى الوليجة ، وهو لم يعلم الصادقين فى الجهاد لأنهم لم يتميزوا من غيرهم بالفعل ، وما لا يعلم الله وجوده فلا وجود له ، إذ لا يخفى عليه شىء من أمركم ، وهو الخبير بكل ما تعملون .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

شرح المفردات

المساجد : واحدها مسجد، وهومكان السجود ثم صار اسما للبيت الذى يعبد فيه الله وحده كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وعمارة المسجد : تطلق تارة على لزومه والإقامة فيه للعبادة أو لخدمته بتنظيفه أو ترميمه أو نحو ذلك ، وتطلق أخرى على زيارته للعبادة فيه ، ومنها النسك المخصوص المسمى بالعمرة .

المعنى الجملى

بعد أن فتح المسلمون مكة وأدال الله للتوحيد من الشرك وللحق من الباطل ، وزالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام وطهره الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان فيه من الأصنام ، بقى عليه أن يطهره من العبادات الباطلة التى كان المشركون يأتونها فيه ويبين لهم أن المسلمين أحق به منهم ، ومن ثم آذنهم بنبذ عهودهم وأمر عليًا أن يتلو عليهم أوائل سورة براءة على مسامع وفودهم يوم الحج الأكبر من سنة تسع للهجرة، وكان مما يتضمنه هذا البلاغ العام أن يعلموا أن عبادتهم الشركية ستمنع من المسجد الحرام بعد ذلك العام ، فنادى علىّ وأعوانه فى يوم النحر بمنى : لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وإنما أمهلهم هذا العام من قِبَل أن فيهم أرباب عهد مع المسلمين ، كان من شروطه ألا يمنع أحد الفريقين الآخر من دخول المسجد الحرام - إلى أنه كان يتعذر منع من لا عهد لهم بدون قتال فى أرض الحرم ، إذ لا يمكن التميز بين المشرك والمسلم ولا المعاهد من غيره إلا بعد وصولهم إلى البيت وشروعهم فى الطواف فيه .

لهذا كله ناسب أن يذكر بعد نبذ العهود وإعلام جماهيرهم به قبل تنفيذه بزمن

منع عبادة الشرك من المسجد الحرام وإبطال ما كان المشركون يدّعونه ويفخرون به من حق عمارته ، مع تيئيسهم من الاشتراك فيها ، وهذا هو ما تضمنته الآيتان الكريمتان المذكورتان هنا .

روى عن ابن عباس أنه قال : لما أُسر العباس يوم بدر عيّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ له علىّ فى القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولاتذكرون محاسننا ! فقال علىّ كرم الله وجهه : ألكم محاسن ؟ فقال نعم : إننا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج فأنزل الله : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الآية .

الإيضاح

(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى ما كان من شأن المشركين ولا مما ينبغى لهم أن يعمروا مساجد الله التى منها المسجد الأعظم وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه ، ولا أن يزوروه حجاجا أو معتمرين ، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولا وعملا بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها والسجود لما وضعوه منها فى البيت عقب كل شوط من طوافهم وقولهم حينئذ : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

إذ فى عملهم هذا جمع بين الضدين ، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية بعبادته تعالى وحده ، وذلك لايقع إلا من المؤمن الموحد لكنهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه فى العبادة .

وخلاصة ذلك — إنهم يجمعون بين أمرين لايعقل الجمع بينهما على وجه صحيح عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة ، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من لأاصنام والأوثان .

وقوله : شاهدين على أنفسهم ، أى إنهم كفروا كفرا صريحا معترفا به لا تمكن المكابرة فيه .

والمراد بالعمارة الممنوعة عن المشركين للمساجد الولاية عليها والاستقلال بالقيام بمصالحها كأن يكون الكافر ناظرا للمسجد وأوقافه ، أما استخدام الكافر فى عمل لا ولاية فيه كنحت الحجارة والبناء والنجارة فلا يدخل فى ذلك .

وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجدا بناه كافر أو أوصى ببنائه أو ترميمه إذا لم يكن فى ذلك ضرر دينى ولا سياسى ، كما لو عرض اليهود الآن على المسلمين أن يعمروا المسجد الأقصى بترميم ما كان قد تداعى من بنائه ، أو بذلوا لذلك مالا لم يقبل منهم ، لأنهم يطمعون فى الاستيلاء على هذا المسجد ، فربما جعلوا ذلك ذريعة لادعاء حق لهم فيه .

(أولئك حبطت أعمالهم) أى أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله قد بطلت أعمالهم التى يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وقِرى الضيف وصلة الرحم ونحو ذلك مما كانوا يعملونه فى دنياهم ، فلم يبق له أثر ما فى صلاح أنفسهم ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقوله : «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وفى النار هم خالدون) أى وهم مقيمون فى دار العذاب إقامة خلود وبقاء لكفرهم الذى أحبط أحسن أعمالهم ودسّى أنفسهم حتى لم يبق لها أدنى استعداد لجوار ربهم فى دار الكرامة والنعيم .

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) أى إن المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله على

الوجه الذى بينه فى كتابه من توحيده واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه ، والإيمان باليوم الآخر الذى يحاسب الله فيه عباده ويجزى كل نفس ما كسبت ، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها ، وبذا تكسب من يقيمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه ، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين ، وخشية الله دون غيره مما لاينفع ولايضر كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله خوفا من ضرره أو رجاء نفعه .

(فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) أى فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى مايحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حسا ومعنى على حسب سننه تعالى فى أعمال البشر وتأثيرها فى نفوسهم ، وبذا يستحقون عليها الجزاء فى جنات النعيم ، لا أولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله ، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ، ومنع الناس من الإسلام .

هذا وقد ورد فى عمارة المساجد أحاديث كثيرة ، فقد روى الشيخان والترمذى عن عثمان رضى الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولامه الناس قال : إنكم أكثرتم وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة » .

وروى أحمد عن ابن عباس مرفوعا « من بنى لله مسجدا ولو كمَفْحَص (الموضع الذى تفحص التراب عنه وتكشفه لتبيض فيه) قطاة لبيضها ــ بنى الله له بيتا فى الجنة » .

وروى الشيخان وأبو داود وابن ماجة : أن امرأة كانت تقُمّ المسجد ــ تكنسه ــ فماتت ، فسأل عنها النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ماتت، فقال : أفلا كنتم آذنتمونى بها لأصلى عليها ؟ دلونى على قبرها ، فأتى قبرها فصلى عليها .

وروى أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله

صلى الله عليـــه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » وتلا (إنما يعمر مساجد الله) » الآية .

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) .

شرح المفردات

السقاية : الموضع الذى يسقى فيه الماء فى المواسم وغيرها ، وسقاية العباس : موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهو حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم لا تزال ماثلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحرفة كالحجابة وهى سدانة البيت ، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش وقد أقرهما الإســلام ، وفى الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمىّ إلا سقاية الحاج وسدانة البيت » .

وقد كانت قريش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى المـاء ، وكان يليها العباس ابن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

المعنى الجملى

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين، وأن إسلامهم أفضل ممـا كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج ـ إلى قوله ـ والله لايهدى القوم الظالمين) » .

الإيضاح

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟) الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تنازعوا ـ أىّ الأعمال أفضل ـ والمراد ـ إنه لاينبغى أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لايدانون أهل الإيمان والجهاد فى علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا فى قوله :

(لايستوون عند الله) أى لايساوى الفريق الأول الفريق الثانى لافى صفته ولافى عمله فى حكم الله ولا فى مثوبته وجزائه عليه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فضلا عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركى قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت و يستكبرون على الناس بها .

(والله لايهدى القوم الظالمين) أى لايهديهم إلى الحق فى أعمالهم ولا إلى الحكم العدل فى أعمال غيرهم ، إذ ليس من سننه تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدى الظالم إلى شىء من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت وحفظ مفتاحه وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذى يزع النفس عن البغى والظلم ويحبب

إليها الحق والعدل ، ويرغبها فى الخير وعمل البر ابتغاء مرضاة الله لا للفخر والرياء ، وعلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال :

(الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) أى هم أعظم درجة وأعلى مقاما فى مراتب الفضل والكمال فى حكم الله وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنا من كان ، ويدخل فى ذلك أهل السقاية والعمارة .

(وأولئك هم الفائزون) أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث وإن سقى الحاج وعَمَرَ المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد ، ولا ثواب للكافر عليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية وإن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم وبينه بقوله :

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا) أى يبشرهم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت ، برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عُظْمه وكماله ، حال كونهم خالدين فيها أبدا .

(إن الله عنده أجر عظيم) أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذى من أشقه الهجرة والجهاد عظيم لا يقدِر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده المكرمين ، ولاسيما على الإيمان الكامل الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل

والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شىء إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شىء على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء مابين روحى وجسمانى ، فالأول الرحمة والرضوان . والرضوان : هو نهاية الإحسان وهو أعلى النعيم وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

والثانى : هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

شرح المفردات

استحب كذا وأحبه : بمعنى ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، والعشيرة : ذوو القرابة الأدنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر ، والاقتراف : الاكتساب ،

وكساد التجارة : ضد رواجها ، والتربص : الانتظار ، وأمره : عقوبته إن عاجلا أو آجلا .

المعنى الجملى

لما أعلن الله براءته و براءة رسوله من المشركين وآذنهم بنبذ عهودهم بعد أن ثبت أنه لاعهد لهم — عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الإيمان وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرة القرابة وعصبية النسب ، إذ كان لايزال لكثير منهم أولو قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة و بطانة منهم .

من أجل هذا بين الله فى هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ونيل مابشرالله به أهله من رحمته ورضوانه ودخول جناته — لايكمل إلا بترك ولاية الكافرين و إيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم و إخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) أى لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم فى القتال وتظاهرون لأجلهم الكفار أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين ، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان ، فإن فى ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين وخضدا لشوكتهم؛ وقدحدث ذلك منذ ظهور الإسلام إلى نزول هذه السورة، فقد كتب حاطب بن أبي بلتعة وهو من أهل بدر وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم من قتالهم ، ليتخذ له بذلك

يدا عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة للنهى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

(ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) أى ومن يتولهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم بوضعهم الموالاة فى غير موضعها ، فهم قد وضعوا الولاية فى موضع البراءة ، والمودة فى محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نُعَرة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله فى سورة الممتحنة : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

و بعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) أى قل لهم : إن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله الذى وُعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية فى الآخرة ، فانتظروا حتى يأتى أمر الله : أى عقوبته التى تحل بكم عاجلا أو آجلا .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها فى أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ثم ذكر الباقى بلفظ العشيرة .

(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

(٣) الرغبة فى تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة .

(٤) الرغبة فى الأوطان والدور التى بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك — إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهريا .

وبتفصيل ما تقدم فى الآية نجد أنها حوت أمورا ثمانية من أفضل ما يحب .

(ا) حب الأبناء للآباء وهو غريزى فى النفوس فالولد بَضعة من أبيه يرث بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم وفى معاهد الحج كما قال تعالى حاثا على ذكره : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » .

(ب) حب الآباء للأبناء وهو غريزى أيضا ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيرا من الطيبات إيثارا له بها فى حاضر أمره ومستقبله ، ويكابد الأهوال ويركب الصعاب ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

(حـ) حب الإخوة وهو يلى فى المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون فى الكفاح فى الحياة ، والبيوت التى سلمت فطرة أهلها وكرمت أخلاقهم يحبون إخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ، ويكفلون من يتركه أبوه صغيرا فيتربى مع أولادهم كأحدهم .

(ء) حب الزوجة ؛ وبالزوجية يتحد بشران يتم وجود كل منهما وجود الآخر

ويُنْتِجَان بشرا مثلهما ، ومن ثم امتن الله علينا به فقال : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(ﻫ) حب العشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر فى مواطن القتال والنزال والذود عن الحمى والحريم ، وهو يكون على أشده فى أهل البداوة ومن على مقربة منهم من أهل الحضر .

(و) حب الأموال المقترفة : أى المكتسبة ، وهو أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء النفس فى جمعها يجعل لها فى قلبه منزلة لا تكون لما يجىء من المال عفوا .

(ز) حب التجارة التى يخشى كسادها فى حال الحرب ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة تجارة يخشون كسادها فى ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب فى موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) حب المساكن الطيبة المرضية ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة فى مكة كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبغوضا لدى النفوس فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ».

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنواع لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان فى آلاء الله فى خلقه وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ » .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .

(والله لايهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين من حدود الدين والشريعة ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التى يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله .

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة فى فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعا « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » وعنه أيضا « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبىّ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك . فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر» .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق هو ذكر القلب مع حسن النية وصحة القصد وتأمل سنن الله وآياته فى الخلق وأن تذكر حين رؤية كل شىء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله أنه يسبح بحمده تعالى ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر، وترك معاصيه كما نهى، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسى «وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها» رواه البخارى.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧).

شرح المفردات

المواطن: واحدها موطن، وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن؛ والمراد بالمواطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها، وحنين: واد على ثلاثة أميال من الطائف، وغزوته تسمى غزوة أوطاس وغزوة هوازن، والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة، والرحب: السعة، ومدبرين: أى هاربين لا تلوون على شىء، والسكينة: الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس واطمئنانها، وهى ضد الانزعاج، وقد تطلق على الرزانة والوقار.

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لإقامة الحجة على صدق ما قبلها من النهى والوعيد وأن الخير والمصلحة للمؤمنين فى ترك ولاية أولى القربى من الكافرين، وفى إيثار حب

الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها مما يجب - إذ أبان فيها أن نصر الله للمؤمنين فى المواطن الكثيرة لم يكن بقوة العصبية ولا بقوة المال ولا بما يشترى به من الزاد والعتاد ، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول الذى جاءهم بذلك الدين القويم ، وأن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين كان ابتلاء لهم على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها ، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه ، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها .

الإيضاح

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) أى ولقد نصركم الله أيها المؤمنون فى أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم فى صعيد واحد للطعان والنزال إحقاقا للحق و إظهارا لدينه .

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرون ، قاتل بنفسه فى ثمان : بدر وأحد والأحزاب والمصطلق وخيبر ومكة وحنين والطائف .

و بعوثه وسراياه ست وثلاثون ، واختار جمع من العلماء أن المغازى والسرايا كلها ثمانون ولم يقع فى بعضها قتال ، ونصرهم فى كل قتال ، إما نصرا كاملا وهو الأكثر و إما نصرا مشوبا بشىء من التربية على ذنوب اقترفوها كما فى أحد ، إذ نصرهم أولا ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم فى أهم أوامر الحرب وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما فى حنين من الهزيمة فى أثناء المعركة والنصر التام فى آخرها .

(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) أى ونصركم أيضا فى يوم حنين وهو اليوم الذى أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثنى عشر ألفا وكان الكافرون أربعة آلاف فقط ، فقال قائل منكم : لن نغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فكانت الهزيمة : أى فكانت الهزيمة عقوبة على هذا الغرور والعجب وتربية للمؤمنين

حتى لايغتروا بالكثرة مرة أخرى ، فإنها ليست إلا أحد الأسباب المادية الكثيرة المؤدية للنصر .

ومعنى قوله: فلم تغن عنكم شيئا الخ - أن تلك الكثرة التى غرتكم لم تكن بكافية لانتصاركم ولم تدفع عنكم شيئا من عار الغلب والهزيمة ، وضاقت عليكم الأرض على رحبتها وسعتها ، فلم تجدوا وسيلة للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو ، فوليتموه ظهوركم منهزمين لاتلوون على شىء .

(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) أى ثم أفرغ الله سكينة من لدنه على رسوله بعد أن عرض له الأسف والحزن على أصحابه حين وقوع الهزيمة لهم ، مع أنه على هذا لم يزدد إلا ثباتا وشجاعة و إقداما - وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه وأحاطوا ببغلته الشهباء - وعلى سائر المؤمنين الصادقين فأذهب رَوْعهم و أزال حيرتهم وأعاد إليهم ما كان قد زلزل من ثباتهم وشجاعتهم ، وخصوصا حين سمعوا نداءه ونداء عمه العباس إذ دعاهم بأمره - وأنزل مع هذه السكينة جنودا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، بل وجدتم أثرها فى قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس - وعذب الذين كفروا بالقتل والسبى والأسر ، وذلك هو جزاء الكافرين فى الدنيا ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان و يعادون أهله و يقاتلونهم عليه .

ونحو الآية قوله: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ» .

(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) أى ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذى يكون فى الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تحط بهم خطيئات الشرك وخرافاته ، ولم يختم على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب ، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى، رحيم بهم يتفضل عليهم و يثيبهم بالأجر والجزاء .

وفد هوازن وإسلامهم وغنائمهم

روى البخارى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ، أن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، (وقد سبي يومئذ ستة آلاف وأخذ من الإبل والغنم مالايحصى) فقال عليه السلام : إن عندى من ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هؤلاء جاءونا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شىء وطابت به نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، قالوا رضينا وسلمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنا لاندرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا ، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) .

شرح المفردات

النجس : من نجس الشىء إذا كان قذرا غير نظيف والاسم النجاسة ، وقال الراغب : النجاسة : القذارة ، وهى ضربان : ضرب يدرك بالحاسة ، وضرب يدرك بالبصيرة ، وهذا ما وصف الله به المشركين فقال إنما المشركون نجس ، ويقال نجّسه ، إذا جعله نجسا ، ونجّسه : أزال نجسه ومنه تنجيس العرب ، وهو شىء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبى ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان ، والناجس والنجيس : داء خبيث لا دواء له اهـ .

والعيلة : الفقر ، يقال عال الرجل يعيل عيلا وعيلة إذا افتقر فهو عائل ، وأعال : كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم ، والفضل: العطاء والتفضل .

المعنى الجملى

لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر حين أمَّره على الحج سنة تسع من الهجرة أن يبلغ الناس أنه لايحج بعد هذا العام مشرك ، ثم أمر علياً أن يتبع أبا بكر فيقرأ على الناس أول سورة براءة يوم الحج الأكبر وينبذ إليهم عهدهم ، وأن الله برىء من المشركين ورسوله ـ قال ناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة لانقطاع السبل وفقد الحمولات ، فنزلت هذه الآية لدفع تلك الشبهة فقال سبحانه « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » .

قال ابن عباس : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه ، فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله « وإن خفتم عيلة » الآية قال فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم ، وأسلم أهل اليمن وجاءهم الناس من كل فج .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) أى إن المشركين أنجاس فاسدو الاعتقاد يشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع ، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالخرافات والأوهام ، ويأكلون الميتة والدم ، وهى أقذار حسية ، ويستحلون القمار والزنا ويستبيحون الأشهر الحرم وهى أرجاس معنوية ـ من أجل هذا لا تمكنوهم بعد هذا العام أن يدخلوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم ، فضلا عن دخول البيت نفسه وطوافهم فيه عراة يشركون بربهم فى التلبية ، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم إلا مكاء وتصدية .

وبلاد الإسلام فى حق الكفار أقسام ثلاثة :

(١) الحرم ، ولايجوز لكافر أن يدخله بحال لظاهر الآية ، وبذلك قال الشافعى وأحمد ومالك ، فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام فى الحرم لايأذن له فى دخوله بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته فى خارج الحرم ، وأبو حنيفة ـ يجيز للمعاهد دخول الحرم بإذن الخليفة أو نائبه .

(٢) الحجاز وهو ما بين عدن إلى ريف العراق فى الطول ، ومن جُدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضا ، ويجوز للكفار دخولها بالإذن ، ولكن لايقيمون فيها أكثر من ثلاثة أيام .

روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما » وفى رواية لمسلم وأوصى فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته ، وأخرج مالك فى الموطأ « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » .

(٣) سائر بلاد الإسلام ، ويجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان ، ولكن لايدخل المساجد إلا بإذن مسلم .

(وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أى وإن خفتم فقرا بسبب قلة جلب الأقوات ، وضروب التجارات التى كان يجلبها المشركون من أرباب المزارع فى الشعاب والوديان من البلاد ذات البساتين والمزارع كالطائف وأرباب المتاجر ـ فسوف يغنيكم الله من فضله ، وفضله كثير ، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنى مما كانوا قبل ذلك ، فقد تعددت وسائل الغنى فيما بعد ، وصدق الله وعده فأسلم أهل اليمن وصاروا يجلبون لهم الطعام ، وأسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب بما فتح الله

عليهم من البلاد فكثرت الغنائم وتوجه إليهم الناس من كل فج ، ومهد الله لهم سبل الرزق من إمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة من ذلك عظيما بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بمشيئة الله التى لايشك مؤمن فى حصول ما تتعلق به ، لتقوية إيمانهم بربهم واتكالهم عليه دون كسبهم وحده وإن كانوا مأمورين به لأنه من سننه فى خلقه ، ولكن لا يجوز أن ينسوا توفيقه وتأييده لهم فهو الذى نصرهم وأغناهم وسيزيدهم نصرا وغنى .

(إن الله عليم حكيم) أى إنه عليم بما يكون من مستقبل أمركم فى الغنى والفقر ، حكيم فيما يشرعه لكم من أمر ونهى كأمركم بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم ، ونهيكم عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد هذا العام ، ونهيكم عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم منهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينا وعقيدة ، ودين الحق: هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه ، والجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى (بالكسر) واليد: السعة والقدرة ، والصغار والصغر: ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هذا الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام المشركين فى إظهار البراءة من عهودهم ، وفى إظهار البراءة منهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم وإبعادهم عن المسجد الحرام ـ قفّى على ذلك بحكم قتال أهل الكتاب وبيان الغاية منه ، وفى ذلك توطئة للكلام فى غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب والخروج إليها فى زمن العسرة والقيظ ، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وهتك حجب كفرهم وتمحيص المؤمنين ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقاتل فيها الروم لما سيأتى بعد .

روى ابن المنذر عن ابن شهاب قال : أنزلت فى كفار قريش والعرب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وأنزلت فى أهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ـ إلى قوله ـ حتى يعطوا الجزية) فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

روى ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن الحسن قال : قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام لم يقبل منهم غيره ، وكان أفضل الجهاد ، وكان بعده جهاد على هذه الآية فى شأن أهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) الآية ، وعلى الجملة فالقتال الواجب فى الإسلام إنما شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، ومن ثم اشترط أن تقدم عليه الدعوة إلى الإسلام .

والناظر إلى غزواته صلى الله عليه وسلم يرى أنها كلها كانت دفاعا عن الدعوة ، وكذلك كانت حروب الصحابة فى الصدر الأول ، ثم كان القتال بعد ذلك ضرورة من ضرورات الملك والدولة ، ومع ذلك فقد كان الإسلام فيها مثال الرأفة والرحمة والعدل .

الإيضاح

(قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) أى قاتلوا أهل الكتاب ، إذ هم جمعوا أربع صفات هى العلة فى عداوتهم للاسلام ، ووجوب خضوعهم لحكمه ما داموا فى داره ، إذ لو أجيز لهم حمل السلاح لأفضى ذلك إلى قتال المسلمين فى دارهم ومساعدة من يهاجمهم فيها كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، وجعلهم حلفاء له ، وأجاز لهم الحكم فيما بينهم بشرعهم ، وسمح لهم بالعبادة على النحو الذى يريدون ، وكذلك فعل مع نصارى الروم فى حدود البلاد العربية .

وهذه الأمور الأربعة التى أسند إليهم تركها هى أصول كل دين إلهى ، ومن ثم أمر بقتال الذين لا يقيمونها وهى :

(١) إنهم لايؤمنون بالله ، وقد شهد القرآن بأن اليهود والنصارى فقدوه بهدم أساسه وهو التوحيد ، إذ هم قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يشرعون لهم العبادات ويحرمون ويحللون فيتبعونهم ، وبذا أشركوهم فى الربوبية ، ومنهم من أشرك به فى الألوهية كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا : المسيح ابن الله ، أو هو الله .

(٢) إنهم لايؤمنون باليوم الآخر ، إذ هم يقولون إن حياة الآخرة حياة روحانية محضة يكون فيها الناس كالملائكة ، لكنا نؤمن بأن الإنسان لا تنقلب حقيقته ، بل يبقى مؤلفا من جسد وروح ، ويتمتع بنعيم الأرواح والأجساد .

ولا يوجد فيما بين أيدى اليهود والنصارى من التوراة نصوص صريحة فى البعث والجزاء بعد الموت ، بل فيها إشارات غير صريحة فى ذلك .

(٣) إنهم لايحرمون ماحرم الله ورسوله ، فاليهود لا يحرمون ماحرم فى شرعهم

الذى جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى ، ولا يلتزمون العمل بما حرم ، فقد استحلوا أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره ، واتبعوا عادات المشركين فى القتال والنفى ومفاداة الأسرى ، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم فى التوراة مما لم ينسخه الإنجيل ، فأباحوا جميع محرمات الطعام والشراب إلا ما ذبح للأصنام ، فقد ثبت فى كتبهم أن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها ، وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها .

(٣) إنهم لايدينون دين الحق ، إذ أن ما يتقلدونه إنما هو دين تقليدى وضعه لهم أساقفتهم وأحبارهم بآرائهم الاجتهادية وأهوائهم المذهبية ، لا دين الحق الذى أوحاه الله إلى عيسى وموسى عليهما السلام .

فاليهود لم يحفظوا ما استحفظوا من التوراة التى كتبها موسى وكان يحكم بها هو والنبيون من بعده ، إلى أن عاقبهم الله بتسليط البابليين عليهم فجاسوا خلال الديار وأحرقوا الهيكل وما فيه من الأسفار وسبوا بقية السيف منهم وأجلوهم عن وطنهم إلى أرض من استعبدهم فدانوا لشريعة غير شريعتهم .

ولما أعادوهم إلى أوطانهم وكانوا قد فقدوا نصوص التوراة وحفظوا بعضها دون بعض — كتبوا ما حفظوا من شريعة الرب ممزوجا بما دانوا به من شريعة ملك بابل كما أمرهم كاهنهم عزرا (عزير) ثم هم بعد ذلك حرفوا وبدلوا ولم يقيموها كما أمروا ، والنصارى لم يحفظوا كل ما بلّغهم عيسى عليه السلام من العقائد والوصايا والأحكام القليلة الناسخة لبعض أحكام التوراة الشديدة ، وذلك هو دين الله الحق .

وكتب كثير منهم تواريخ أودعوا فيها ما عرفوه من ذلك ومن غيره ، وجاءت المجامع الرسمية بعد ثلاثة قرون فاعتمدت أربعة أناجيل من نحو نيف وسبعين إنجيلا رفضتها وجعلتها غير قانونية .

وإلى ما تقدم فى أهل الملتين الإشارة بقوله « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ،

وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

ومن هذا النص يعلم أن كلا من اليهود والنصارى نسى حظا مما ذكرهم به نبيهم ، ولم يعملوا بالبعض الآخر ، فأكثر عباداتهم من وضع أحبارهم .

ولقب ـ أهل الكتاب ـ والذين أوتوا الكتاب ـ وإن كان عاما ـ خص به اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين لديها كما قال تعالى مخاطبا مشركى العرب « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ » .

(حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أى قاتلوا من ذكروا حين وجود ما يقتضى القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل بكم الروم وكان ذلك سببا لغزوة تبوك ـ إلى أن تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية بشرط أن تكون صادرة عن يد أى قدرة واسعة فلا يظلموا ولا يرهقوا ، وأن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم ، وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يشاهدون من عدلكم وفضائلكم التى يرونها رأى العين .

فإن أسلموا عم الهدى والعدل ، وإن لم يسلموا وأعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وإعطاؤهم حريتهم فى دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون ، ويسمَّون حينئذ أهل الذمة ، إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله .

أما الذين يعقد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق يعترف به الطرفان فيسمون المعاهدين أو أهل العهد .

وأول من سن الجزية كسرى أنوشروان ، قال أبو حنيفة الدّينَوَرى : إنه وظّف الجزية على أربع طبقات ، وأسقطها عن أهل البيوتات والمرازبة والأساورة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك ، ولم يلزم أحدا لم تأت له عشرون سنة أو جاوز الخمسين .

وقد اقتدى به عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس ولم يكن هو بأول واضع لهـا .

وهاك عهدا كتبه أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان وأهل دهستان :

« هذا كتاب من سويد بن مقرّن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان ، إن لكم الذمة وعلينا المنَعة . على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا عن جزائه ، ولكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ومللكم وشرائعكم ولا يغير شىء من ذلك . شهد بذلك سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس » .

وكتب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب قال : « هذا ما أعطى عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ومن حشر منهم فى سنة (أرسل لميدان القتال) وضع عنه جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك » .

والجزية التى وضعها عمر على الفقراء من أهل الذمة اثنا عشر درهما ، وعلى الأوساط أربعة وعشرون ، وعلى أهل الثروة ثمانية وأربعون .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ ،

أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) .

شرح المفردات

عزير: هو الذى يسميه أهل الكتاب عزرا، وينتهى نسبه إلى العازار بن هرون عليه السلام ، ويضاهئون : أى يشابهون ويحاكون ، وقاتلهم الله : جملة أصلها الدعاء ثم كثر استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، والإفك: صرف الشىء عن وجهه، يقال أفك فلان أى صرف عقله عن إدراك الحقائق ، ورجل مأفوك العقل ، والأحبار واحدهم حبر (بالفتح والكسر) وهو العالم من أهل الكتاب ، والرهبان: واحدهم راهب، وهو لغة الخائف ، وعند النصارى هو المتبتل المنقطع للعبادة ، والإرادة : القصد إلى الشىء ، وقد تطلق على مايفضى إليه وإن لم يرده فاعله فيقال فى الرجل المسرف المبذر : يريد أن يخرب بيته أى إن تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده ، لأن فعله فعل من يقصد ذلك ، ونور الله : هو دين الإسلام ، وأظهره على الشىء : جعله فوقه مستعليا عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح ـ قفّى على ذلك بشرح ذلك المجمل فى هذه الآيات ، فنقل عنهم

أنهم أثبتوا لله ابنا ، وهذا بمنزلة الشرك بالله فإن طرق الشرك مختلفة ، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا يحرمون ويحللون ، وأنهم يسعون فى إبطال الإسلام وإخفاء الدلائل الدالة على صدق رسوله وصحة دينه .

الإيضاح

(وقالت اليهود عزير ابن الله) عزير كاهن يهودى وكاتب شهير سكن بابل حوالى سنة ٤٥٧ ق م أسس المجمع الكبير وجمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا من العبرانية القديمة ، وألف أسفار الأيام ، وعزرا ، ونحميا ؛ وعلى الجملة فعصره هو ربيع الدين اليهودى ، وهو جدير أن يكون ناشر الشريعة اليهودية ، فقد أحياها بعد أن نسيت ، ومن أجل هذا فاليهود يقدسونه حتى إن بعض يهود المدينة أطلق عليه لقب (ابن الله) .

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من بعضهم ــ مبنى على أن الأمة تعد متكافلة فى شئونها العامة ، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير فى جملتها ، والمنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم كما قال تعالى « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التى تحدث فى الشعب بكثرة الأقذار وإهمال مراعاة القواعد الصحية ــ لا يعدى بها من تلبس بها فحسب ، بل تنتشر العدوى فى الشعب جميعه .

روى ابن إسحق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟

والمشهور عند المؤرخين حتى مؤرخى أهل الكتاب أن التوراة التى كتبها

موسى عليه السلام ووضعها فى تابوت العهد أو بجانبه قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام ، فإنه لما فتح التابوت فى عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما جاء فى سفر الملوك الأول ، وأن عزرا هو الذى كتب التوراة وغيرها بعد السبى بالحروف الكلدانية ممزوجة ببقايا اللغة العبرانية التى نسى اليهود معظمها ، ويقول أهل الكتاب إن عزرا كتبها كما كانت بوحى أو بإلهام من الله .

وخلاصة ما سلف — إن جميع أهل الكتاب يدينون لعزير فى مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم ، وإن كان هذا المستند ضعيفا ، فقد جاء فى ترجمة عزرا من دائرة المعارف البريطانية : إنه لم يُعِد إليهم الشريعة التى أحرقت فحسب ، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التى كانت أتلفت وأعاد سبعين سفرا غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة : وإذا كانت هذه الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا فى شىء منها إلى كتاب آخر ، فكتّاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا اهـ .

(وقالت النصارى المسيح ابن الله) وهذا قول للقدماء منهم كان يراد به أنه المحبوب أو المكرم ، ثم سرت إليهم وثنية الهنود فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة ، وعلى أن ابن الله بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة ، وهذا تعليم الكنائس الذى قررته المجامع الرسمية بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون — وقد خالف فى ذلك خلق كثير منهم يسمون الموحدين أو العقليين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية لا تعتدّ بنصرانيتهم ولا بدينهم .

وكلمة (ثالوث) تطلق عندهم على وجود أقانيم ثلاثة معا فى اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس ، وهذا هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية والبروتستانتية وهو المطابق لنصوص الكتاب المقدس .

وعقيدة التثليث وألوهية المسيح مع مخالفتهما للعقل ليس لهما أصل فى كتب الأنبياء لا قطعى ولا ظنى ، وكتب العهد الجديد كذلك ليست نصا فيهما ؛ على أن هذه لا يوثق بها ، فإن النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح فى عصره ، ثم رفضت مجامعهم الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ما وجد عندهم من الأناجيل التى كانت تعد بالعشرات واعتمدت أربعا منها فحسب ، وهذا مصداق قوله تعالى « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

(ذلك قولهم بأفواههم) أى هذا الذى قالوه فى عزير والمسيح قول تلوكه الألسنة فى الأفواه ، لايؤيده برهان ولا يتجاوز حركة اللسان ، بل البرهان دالّ على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو برىء عن الحاجة واتخاذ الصاحبة .

وفى معنى الآية قوله : « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

(يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أى يشابهون فيها قول الذين كفروا من قبلهم وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله .

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة والبوذيين فى الهند والصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومانيين ، فبيان القرآن الكريم لهذه الحقيقة التى لم يكن أحد من العرب ولا ممن حولهم يعرفها ـ بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان ـ معجزة من معجزاته الكثيرة التى تظهر على مر الزمان وتصدقها المشاهدة والعيان .

(قاتلهم الله) تعجب من شناعة قولهم ، وقد شاع استعمالها فى ذلك ، وتستعمل فى المدح أيضا فيقال : قاتله الله ما أفصحه ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد لعنهم الله .

(أنى يؤفكون ؟) أى كيف يصرفون عن توحيد الله وتنزيهه ، وبه تجزم

العقول ، و بلّغه عن الله كل رسول - إلى قول لا يقبله عقل ، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذى خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره ، ولا ينبغى لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شئونه ولدا من جنسه ، مع علمه بأنه كان يأكل و يشرب و يتعب و يتألم «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» .

ثم فصل قوله قبلُ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل بقوله :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم) أى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أربابا ، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم و إطاعتهم فيه ، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم : أى عبادّهم الذين يخضع لهم العوام أربابا كذلك .

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين ، فاتخاذهم أربابا يقتضى بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة ، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوّنا كان أو غير مدون ، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون ، سواء قالوه تبعا لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم .

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح ربا و إلها يعبدونه ، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية و يصرحون بذلك ، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين فى عرفهم ، و يتوسلون بهم ، و يتخذون لهم الصور والتماثيل فى كنائسهم ، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة .

واليهود لم يقتصروا فى دينهم على أحكام التوراة ، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدوّنوه فى المَشْنه والتَّلْمُود ، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم .

والنصارى غيّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية واستبدلوا بها شرائع أخرى فى العبادات والمعاملات جميعا ، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا

وحرمان من شاءوا من رحمة الله وملكوته ، والله يقول : « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ؟ » وزادوا القول بعصمة البابا فى تفسير الكتب الإلهية ، ووجوب طاعته فى كل ما يأمر به من الطاعات ، وينهى عنه من المحرمات .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله عليها وأعطاها فرجعت إلى أخيها ورغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدىّ المدينة وكان رئيسا فى قومه طىء (وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم) فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : (بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعدى ماتقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

(وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أى اتخذوا رؤساءهم أربابا من دون الله ، والربوبية تستلزم الألوهية ، إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده ، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به من عند الله ، إلا أن يعبدوا ويطيعوا فى الدين إلها واحدا بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شىء ومليكه .

ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال :

(لا إله إلا هو) أى لا إله غيره فى حكم الشرع وفى نظر العقل ، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأى والهوى جهلا بصفات الألوهية ، إذ ظنوا أن لبعض

المخلوقات سلطانا غيبيا وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ماللّه إما بالذات و إما بالوساطة والشفاعة لديه .

(سبحانه عما يشركون) أى تنزيها له عن شركهم فى ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه ، وفى ربو بيته بطاعة الرؤساء فى التشريع الدينى بدون إذنه .

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء فى مواضع من التوراة ، منها أول الوصايا العشر التى جاءت فى سفر الخروج (أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لايكن لك آلهة أخرى أمامى ، لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورا مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من تحت ، ولا مما فى الماء تحت الأرض ، لاتسجد لهن ، ولا تعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك له غيور) الخ .

وأمره تعالى بعبادته على لسان عيسى كثير أيضا ، من ذلك ما رواه يوحنا فى إنجيله (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيق وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

(يريدون أن يطفئوا نور اللّه بأفواههم) أى يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور اللّه وهو دين الإسلام الذى أرسل به جميع رسله ، وأفاضه على البشر بما أوحاه على موسى وعيسى وغيرهما من رسله ، وأتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد صلى اللّه عليه وسلم - بالطعن فى الإسلام والصد عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال فى عزير والمسيح ، و بما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد الذى أمروا به هو محض الشرك عندهم ، وصار المربوب ربا على تفاوت بين فرقهم فى ذلك .

وهكذا عادى أهل الكتاب الإسلام منذ البعثة المحمدية ، وقصدوا إبطاله والقضاء عليه بالحرب والقتال من ناحية ، و بالطعن و إفساد العقائد من ناحية أخرى ، وكل من الأمرين أرادوه لإطفاء نوره .

(و يأبى اللّه إلا أن يتم نوره) ببعثة محمد خاتم النبيين الذى أرسله إلى الخلق أجمعين

وجعل آيته الكبرى وهى القرآن علمية عقلية وكفل حفظها إلى آخر الزمان ، وبين لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان ، وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان ، فضلا عن الأصنام والأوثان ، وعبادات تتزكى بها النفس وتطهر من كل رجس ، وتجعل كفاية الأغنياء للفقراء حقوقا إلهية ويبطل ثوابها المن والأذى ، وآداب تطبع فى الأنفس الفضائل ، وتشريع يجمع بين الرحمة والعدل والمساواة بين جميع الناس فى الحق .

وخلاصة ما سلف — إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذى شرعه لهداية عباده وركنه الركين ، وأساسه المتين توحيد الربوبية والألوهية ، فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية ، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذى هو كنور القمر فيجعله بدرا كاملا يعم نوره الأرض كلها .

(ولو كره الكافرون) ذلك بعد تمامه ، كما كانوا يكرهونه من قبل حين بدء ظهوره ، فهم يكيدون له ويفترون عليه ويطعنون فيه ، وفيمن جاء به ويحاولون إخفاءه.

أما اليهود فكانوا فى أول الإسلام أشد الناس عداوة لأهله ، فهم فى ذلك كمشركى العرب سواء .

ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم قصدوا إطفاء نوره ببث البدع فيه وتفريق كلمة أهله كما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعلى كرم الله وجهه والغلوّ فى ذلك وإلقاء الشقاق بين المسلمين ، ثم فى الفتنة بين علىّ ومعاوية ، ولولا ذلك لما قتل أولئك الألوف من صناديد المسلمين ، ثم ما كان من منافقيهم من الإسرائيليات الكاذبة التى لا تزال مبثوثة فى تضاعيف كتب التفسير والحديث والتاريخ .

وأما النصارى فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم ، وأكرم النجاشى من لجأ إليه من مهاجريهم ، ومنعهم من تعدى المشركين عليهم ، ثم انقلب الأمر بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب ، فتودد اليهود للمسلمين لأنهم أنقذوهم من

ظلم النصارى واستعبادهم ، وصار نصارى أوربة المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد ، لأنهم رأوا من عدل المسلمين مافضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم - إلى أن جاءت الحروب الصليبية فغلا نصارى أوربا فى عداوة المسلمين ، ولا يزال الأمر كذلك فى هـذا العصر كما هو مشاهد معروف .

ثم بين إتمام نور الله فقال :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) أى إنه تعالى كفل إتمام هذا النور بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق الذى لا يغيره دين آخر ولا يبطله شىء آخر .

ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق فقال :

(ليظهره على الدين كله) أى ليعلى هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والهداية والعرفان ، والسيادة والسلطان ، ولم يكن لدين من الأديان مثل ما للإسلام من التأثير الروحى والعقلى والمادى والاجتماعى والسياسى .

روى أحمد عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عدى أسلم تسلم ، قلت إنى من أهل دين ، قال أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم . ألست من الرَّكوسية (دين بين الصابئة والنصرانية) وأنت تأكل مرباع قومك (والمرباع ما كان يأخذه رئيس القوم من الغنائم وهو من عادات الجاهلية) قلت بلى (قال فإن هذا لا يحل لك فى دينك) قال فلم يعدُ أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام . تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لاقوة له وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت لم أرها ولكن سمعت بها . قال فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الدين حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتُفتحن كنوز كسرى

ابن هرمز . قلت كسرى بن هرمز ؟ قال نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » .

قال عدى : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها .

(ولو كره المشركون) ذلك الإظهار ، وقد وصفهم بالشرك بعد أن وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرسول وتكذيبه ، والشرك بالله .

وفى الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه و إظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من جميع الكفار المشركين منهم وغير المشركين .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

أكل الأموال : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع ، والصد : المنع ، وسبيل الله : هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة ، وأساس ذلك التوحيد والتنزيه ، والكنز هنا : خزن الدنانير والدراهم فى الصناديق ، أو دفنها فى التراب مع الامتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير ، ويحمى عليها : أى تضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآيات السالفة أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا فعبدوا غيره من دونه – قفى على ذلك بذكر سيرة جمهرة هؤلاء الرؤساء الدينيين فى معاملاتهم مع الناس ليعرف المسلمون حقيقة أحوالهم والدواعى التى تحملهم على إطفاء نور الله ، ببيان أن أكثرهم عباد شهوات وأرباب أهواء وذوو أطماع وحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ، وأنه ما حملهم على مقاومة الإسلام إلا خوف ضياع تلك اللذات ، وفوات تلك الشهوات .

ثم أوعد الباخلين الذين يكنزون الذهب والفضة فى صناديقهم ولا ينفقونها فى سبل البر والخير – بالعذاب الأليم فى نار جهنم يوم يحمى على تلك الأموال المكنوزة فتصير كالنار التهابا ثم تكوى بها الجباه والجنوب والظهور ويقال لهم : هذا جزاء صنيعكم فى الدنيا منعتموه البائس الفقير لتتمتعوا به فكان جزاؤكم أن صار وبالا عليكم وميسما تكتوون به على جنوبكم وظهوركم فلم تنتفعوا به فى دين ولا دنيا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) أى إن كثيرا من الأحبار والرهبان أشربت قلوبهم حب المال والجاه ، فمن أجل حب الأول أكلوا أموال الناس بالباطل ، ومن أجل حب الثانى صدوا عن سبيل الله ، فإنهم لو أقروا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه لزمهم أن يتابعوه فيبطل حكمهم وتزول حرمتهم ، ومن ثم كانوا يبالغون فى المنع من متابعته وصد الناس عنه .

وأكل الأموال بالباطل : أخذها بغير حق شرعى ويقع ذلك على صور مختلفة منها :

(١) أخذها رشوة لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل ويقوم به صاحب السلطة الدينية أو المدنية ، رسمية كانت أو غير رسمية .

(٢) أخذها بالربا وهو فاش عند اليهود ، ومنه ما يحله لهم رجال الدين ، وإن كانوا يحرمونه فى الفتوى وكتب التشريع ، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين ويأكلونه معهم مستحلين له بنص توراتهم المحرفة بدلا من نهيهم عنه وهو (لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرضه بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها) .

وكذلك عند النصارى ، وقد وضع لهم الأساقفة أحكاما للربا والقروض فيما يسمونه اللاهوت الأدبى ، فأباحوا فيه بعض الربا دون بعض .

(٣) أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التى بنيت بأسمائهم — هدايا ونذورا ، والوقف على الدير أو الكنيسة قربة عندهم كالوقف على المسجد عندنا ، فأخذ المال وإعطاؤه لبناء المعابد مشروع فى كل دين ، لكن البدعة الوثنية أن يوضع فى المعبد قبر أو صورة أو تمثال يُدْعى فيه صاحبه مع الله تارة ومن دونه أخرى ، وينذر له وحده حينا ومع الله آخر ، فهذه بدع تتبرأ منها أديان الأنبياء جميعا ، والنفقة فيها من الباطل ، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

(٤) بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد فى الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله فى قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم ، اعتقادا منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يرد شفاعتهم ، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفا فى الكون يقضون به الحاجات من دفع

الضر عمن شاءوا وجلب الخير لمن أحبوا ، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون وقالوا إنها لاتنافى التوحيد الذى جاء به الرسل .

(٥) أخذها جُعْلا على مغفرة الذنوب ، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتراف ، فيأتى الرجل أو المرأة لدى القسيس أو الراهب الذى يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب ، فيخلو به أو بها فيقص عليه الخاطىء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له ، وهم يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله .

وهذا الجعل يتفاوت بتفاوت ثروة المشترين من الملوك والأمراء وكبار الأغنياء فمن دونهم ، ويعطون بالمغفرة صكوكا يحملونها ليلقوا بها الله تعالى .

وتلك الطقوس خاصة بالأرثوذكس والكاثوليك ، وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى الانقلاب الكبير الذى يسمونه الإصلاح (البروتستانت) إذ ترتب على هذه العقيدة فساد كبير فى استباحة الفواحش والمعاصى ، وقد كان الاعتراف أولا بلا ثمن ، ولكن رجال الدين جعلوه وسيلة لسلب الأموال والغنى بغير وجه صحيح .

(٦) أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام وتحريم الحلال إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء ، أو الانتقام من أعدائهم ، أو لظلم رعاياهم ، فهم يعملون ضروبا من الحيل والتأويلات يصورون بها الوقائع بغير صورها ومن ثم خاطب الله أحبار اليهود خطاب احتجاج وتوبيخ بقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ » .

(٧) أخذها من أموال مخالفيهم فى الجنس أو الدين خيانة وسرقة ونحو ذلك كما قال تعالى « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

وفى سرد ما خالف اليهود فيه الحق وادعوا أنه مشروع لهم يقول البوصيرى :

و بأن أموال الطوائف حُلت لهمُ ربا وخيـــانة وغلو

وصدهم عن سبيل الله هو منعهم الناس عن معرفة الله معرفة صحيحة ، وعبادته على الوجه الذى يرضيه ، ولا عجب فهم مشركون غير موحدين كما علمت مما سلف ، فهم لايعبدون الله بما شرعه الله ، بل بما شرعه البشر ، واليهود قد كفروا بالمسيح وهو المصلح الأكبر فى شريعتهم ، والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسين ، وجل عباداتهم من صلاة وصيام لم تـكن فى عهد المسيح .

ومن أنكى طرقهم فى الصد الطعن فى النبى الأعظم والكتاب الكريم ، وإفسادهم عقائد النشء فى المدارس التى يتعلمون فيها ، ولا يخفى ما لذلك من سوء الأثر فى الدين والأخلاق والاجتماع .

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) أى وكل من يكنز الذهب والفضة ، ولا يخرج منها الحقوق الواجبة ، سواء أكان من الأحبار والرهبان أم كان من المسلمين ، ويؤيد هذا أن يزيد بن وهب قال : مررت بأبى ذر بالرَّبذة (موضع بين مكة والمدينة) فقلت يا أبا ذر ما أنزلك هذه البلاد ، فقال : كنت بالشام فقرأت : (والذين يكنزون الذهب والفضة) فقال معاوية هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب ، فقلت إنها فينا وفيهم ، فصار ذلك سببا للوحشة بينى و بينه ، فكتب إلىّ عثمان أن أقبل إلىّ ، فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فقال لى تنح قريبا ، فقلت إنى والله لن أدع ما كنت أقول .

ومعنى قوله : ولا ينفقونها فى سبيل الله أى ولا يؤدون زكاتها ، فقد أخرج مالك والشافعى عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز و إن كان تحت سبع

أرضين ، ومالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا ، وأخرج ابن عدى والخطيب عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أىّ مال أديت زكاته فليس بكنز » وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال : «لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) كبر ذلك على المسلمين وقالوا مايستطيع أحد منا ألا يبقى لولده مالا بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق وتبعه ثوبان فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا نبىّ الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم ، فكبر عمر رضى الله عنه ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

(يوم يحمى عليها فى نار جهنم) أى أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم فى ذلك اليوم الذى يحمى فيه على تلك الأموال المكنوزة فى نار جهنم ، أى بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

وفى الآية إيماء إلى أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها ، وأمور الآخرة من عالَم الغيب فلا ندرك كنهها ولا صفتها ، فنفوض الأمر فيها إلى عالِم الغيب ، وعلينا الاعتبار بما فيها من إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق .

روى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره » وروى عنه « من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثّلَ له شجاع (ذكر الحيات) أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزِ مَتيْه (العظمان الناتئان تحت الأذنين) يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) » .

(فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الأعضاء دون بقية الجسد ، لأنهم بالوجوه يستقبلون الناس وأساريرهم منبسطة غبطة لمظم الثروة ،

ويستقبلون الفقراء ، ووجوههم منقبضة من العبوس ، لينفروا ويحجموا عن السؤال ، ولأن الجنوب والظهور كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعا واستلقاء ويعرضون بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ، فلا يكون لهم فى جهنم استراحة فيها سوى الوقوف إلا بالانكباب على الوجوه كما قال : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى تقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيّهم : هذا ما كنزتم لمنفعة أنفسكم فكان سبب مضرتها وتعذيبها ، أو هذا الميسم الذى تكوون به هو المال الذى كنزتموه لأنفسكم لتنفردوا بالتمتع به .

(فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى فذوقوا وبالَ كنزكم له وإمساككم إياه عن النفقة فى سبيل الله .

وخلاصة هذا — إن ما كنتم تظنونه من منفعة كنزه لأنفسكم لا يشارككم فيها أحد ، قد كان لكم ضرا وعليكم ضدّا ، فقد صار فى الدنيا لغيركم ، وعذابه فى الآخرة لاحقابكم .

وإن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذى نراه فى المسلمين عامة حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدّهم عن دينهم — بخل أغنيائهم ، إذ لو وجهوا هممهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل لتعليم النشء العلوم الدينية والدنيوية من فنون الحرب وصنع الأسلحة لأمكنهم أن يُخرجوا للأمة رجالا يحفظون الدين والملك ويعيدون إليها مجدها الزائل ، ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام ويدخلونهم فيه أفواجا أفواجا .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا

فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

شرح المفردات

الشهور : واحدها شهر، وهو اسم للهلال سميت به الأيام ، والكتاب: هو اللوح المحفوظ كما قال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي . فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » . والحرم : واحدها حرام : من الحرمة بمعنى التعظيم ، والدين : الشرع ، والقيم : أى الصحيح المستقيم الذى لاعوج فيه ، وكافة : أى جميعا ، والنسيء من نسأ الشيء ينسؤه نسأ ومنسأة : إذا أخره ، أى الشهر الذى أنسئ تحريمه : أى أخر عن موضعه .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام فى أحوال المشركين ، وقد كان الكلام فى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ــ من قبيل الاستطراد اقتضاه ما قبله ، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

الإيضاح

(إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض) أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله وأثبته من نظام سير القمر وتقديره منازل منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : يوم خلق السموات والأرض ، الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى جملته وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله وخلق كل منهما وما فيهما .

وقوله : فى كتاب الله، أى فى نظام الخلق والتقدير والسنن الإلهية فيه ، أو فى حكمه التشريعى لحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهرا معلومات ، وكون مايتعلق بالشهور من الفرائض والسنن : كالحج والصيام وعدة المطلقات والرضاع ، فالمعتبر فيه الأشهر القمرية ، ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور فى جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أداؤهما ومنها ما يسهل فيه ذلك .

(منها أربعة حرم) أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرّم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى وإن كانت قد أخلت بذلك أحيانا اتباعا لأهوائها ، وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب .

روى أحمد عن أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ، ثم قال : ألا أىّ يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ، قلنا بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، ثم قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا بلى ، ثم قال : أى بلد هذا ، قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا بلى . قال فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال ـ وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ؛ ألا لاترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ؛ ألاهل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

(ذلك الدين القيم) أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها وعدد الحرم منها - هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسىء .

وقد يكون المعنى - ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم و إسماعيل فى الحج وغيره ، ومايتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثة منهما حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء على شدتهم فى أخذ الثأر وضراوتهم بسفك الدماء .

(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فلا تظلموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة و بعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك المحرمات فيها تنشيطا للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها و يطهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه ، ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لامشقة فى أدائها كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين تذكيرا وموعظة حسنة تُقوّى فى المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى ، وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة ، وخص أياما معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج ، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعدادا للسفر لأداء النسك ، وحرّم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرم رجب فى وسط السنة لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه .

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أى قاتلوهم جميعا وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم وكف أذاهم كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره لا للانتقام ولا للعصبية ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قويهم لضعيفهم ، فأنتم حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى ، والله عزيز حكيم .

(واعلموا أن الله مع المتقين) بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتق الظلم والعدوان فى الأرض وأسباب الفشل والخذلان فى القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله فى الاجتماع - يكن الله معه، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد .

(إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) المراد بالنسىء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا أن العرب ورثت من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال فى الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا فى المناسك وفى تحريم الأشهر ولاسيما المحرم، إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متواليات، فأحلوا شهر المحرم وأنسئوا تحريمه إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت، وفى ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم .

وقد كان من عادتهم فى ذلك أن يقوم رجل من كنانة فى أيام منى حيث يجتمع الحجيج فيقول: أنا الذى لا يرد لى قضاء، فيقولون صدقت، فأخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر، فيحل لهم المحرم، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا، ثم صاروا ينسئون غير المحرم ويسمون النسىء باسم الأصل، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسىء تشريع دينى ملتزم غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل، ومن ثم سماه الله زيادة فى الكفر، أى إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به، إذ حق التشريع له وحده، فمنازعته فى ذلك شرك فى ربوبيته، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيه ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم، إذ واطئوا عدة ما حرم الله من الشهور فى ملته ولم يزيدوا ولم ينقصوا وإن قدّموا وأخروا مع أن المقصد فى ذلك العدد والتخصيص لا مجرد العدد، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

(زين لهم سوء أعمالهم) أى زين لهم الشيطان أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة ، إذ اكتفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئا ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .

(والله لا يهدى القوم الكافرين) إلى الحكمة فى أحكام شرعه وجعلها مبنية على مصالح الناس فى دينهم ودنياهم أفرادا وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين من آثار الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » .

وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم وما يوسوس لهم به الشيطان فيوقعهم فى الشقاء والخسران .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

النفر والنفور : الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط ، يقال نفرت الدابة والغزال نفورا ، ونفر الحجيج من عرفات نفرا ، واستنفر الملك العسكر إلى القتال ،

وأعلن النفير العام فنفروا خفافا وثقالا ، والتثاقل : التباطؤ ، وهو من الثقل المقتضى للبطء ، والمتاع : مايتمتع به من لذات الدنيا ، والغار : النقب العظيم فى الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور ، والصاحب : هو أبو بكر رضى الله عنه ، والسكينة : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الانزعاج والاضطراب ، وكلمة الله : هى التوحيد ، وكلمة الذين كفروا : هى الشرك والكفر .

المعنى الجملى

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك وما لابسها من هتك ستر المنافقين وضعفاء الإيمان وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها و إلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جريا على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود و بيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتزكيها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، و بهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن لأولى ٦١٠ ك وعن الثانية ٦٩٢ ك وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ـ من أن الروم جمعت جموعا معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قُباذ وعدد جنده أر بعون ألفا ، فندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس للخروج لقتالهم وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عِيرا إلى الشام للتجارة ، فقال يا رسول الله : هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية (من الفضة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا يضر

عثمان ماعمل بعدها » ثم خرج لمقابلتهم ، ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئا من بلاد الشام ، وكان ذلك فى رجب سنة تسع .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض)؟ الخطاب للمؤمنين فى جملتهم تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم ـ أى يأيها الذين آمنوا ما الذى عرض لكم مما يخلّ بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، و إخلادكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق الذى هو سبيل سعادتكم ؟ .

فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال فى سبيل الله كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وكان من أسباب تثاقلهم أمور :

(ا) إن الزمن كان وقت حر شديد .

(ب) إنهم كانوا قريبى عهد بالرجوع من غزوتى الطائف وحنين .

(حـ) إنهم كانوا فى عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام .

(ى) إن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه ، وآن وقت تلطف الحر ، لأن رجبا وافق أكتوبر فى تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح و بعد حنين و بعد الطائف ، أمروا بالنفير فى الصيف حين اخترفت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج ... فقالوا منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره فى ذلك كله .

وكان من دأب النبى صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى غزوة أن يورّى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا فى هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر .

وكانت حكمة الله فى إخراجهم ـ وهو يعلم أنهم لايلقون فيها قتالا ـ تمحيص المؤمنين وخزى المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين .

(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

(فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) أى فما هذا الذى تتمتعون به فى الدنيا مشوبا بالمنغصات والآلام إذا قيس بما فى الآخرة من النعيم المقيم، والرضوان من المولى إلا شىء قليل لايرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المِسْوَر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «والله ماق الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ثم يرفعها ، فلينظر بم يرجع» ؟ أى إن نعيم الدنيا فى قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

(إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) أى إن لم تخرجوا إلى مادعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج إليه ـ يعذبكم عذابا أليما فى الدنيا يهلككم به كقحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوما غيركم يطيعونه ويطيعون رسوله لأنه قد وعد بنصره ، واظهار دينه على الدين كله و (ولن يخلف الله وعده) .

وقد جرت سنته بأن الأمم التى لاتدافع عن نفسها ولا تحمى ذمارها ، لابقاء لها، وتكون طعاما للآكلين ، وغذاء شهيا للمستعمرين .

(ولا تضروه شيئا) أى ولا تضروا الله شيئا من الضرر فى تثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئا من الاختيار ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

(والله على كل شىء قدير) أى والله قادر على كل شىء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم (إن أصررتم على عصيان رسوله وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه) ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يخشون فى الحق لومة اللائمين كما قال : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ».

ثم رغبهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره ـ على أعداء دينه ـ أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) أى إن لم تنصروا الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله وأعداء رسوله ـ فسينصره الله بقدرته وتأييده ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين وثانيهما أبو بكر فى غار جبل ثور حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن : لاتخف ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأييده فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : «حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام (يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما) .

وخلاصة ذلك — إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره كما نصره فى الوقت الذى اضطره المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثانى اثنين فى الغار وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لاتحزن إن الله معنا ، ونحن لانكلف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء .

(فأنزل الله سكينته عليـه وأيده بجنود لم تروها) أى فأنزل الله طمأنينته التى يسكن عندها القلب على رسوله وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأحد ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم فى حال الهجرة يسترونه هو وصاحبه عن أعين الـكفار و يصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) أى وجعل كلمة الشرك والـكفر هى السفلى ، وكلمة الله وهى دينه المبنى على أساس توحيده تعالى والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالى من شوائب الشرك وخرافات الوثنية ـ هى العليا بظهور نور الإسلام و إزالة سيادة المشركين فى تلك الجزيرة بعد كفاح طو يل دارت فيه الدائرة عليهم : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » .

(والله عز يز حكيم) أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء فى مواضعها ، وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِـكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ذٰلِـكُمْ خَيْرٌ لَـكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) .

المعنى الجملى

بعد أن توعد من لم ينفروا مع الرسول وتثاقلوا حين استنفرهم ـ أتبعه بالأمر الجزم الذى لاهوادة فيه ، فأوجب النفير العام على كل فرد ، فلا عذر لأحد فى التخلف وترك الطاعة .

الإيضاح

(انفروا خفافا وثقالا) الخفاف واحدها خفيف ، والثقال واحدها ثقيل ، وهما يكونان فى الأجسام وصفاتها من صحة ومرض ونحافة وسمن ونشاط وكسل ، وشباب وكبر ، ويكونان فى الأسباب والأحوال كالقلة والكثرة فى المال ، ووجود الراحلة وعدم وجودها ، ووجود الشواغل أو انتفاؤها .

أى انفروا على كل حال من يسر أوعسر وصحة أو مرض وغنى أو فقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك مما ينتظم فى مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة فى الجملة .

فإذا أعلن النفير العام وجب الامتثال إلاحال العجز التام، وهو ما بينه الله تعالى فى قوله : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ » .

ويؤيد هذا التعميم فى عموم الأحوال قول أبى أيوب الأنصارى وقد شهد المشاهد كلها إلا غزاة واحدة : قال الله (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا ، وروى عن أبى راشد الحرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ـ وقد فضل عنها من عُظْمِهِ ـ يريد الغزو ، فقلت قد أعذر الله إليك ، فقال أبت علينا سورة البعوث (يريد براءة) انفروا خفافا وثقالا .

وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدى النبي وعمله ففتحوا البلاد وسادوا العباد ، لكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغنى بألفاظه ذلوا وضعفوا واستكانوا وسادتهم الشعوب الأخرى وتقوّض ملكهم من أطرافه وأصبحوا من المستضعفين وصاروا عبيدا لأعدائهم .

(وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) أى وجاهدوا أعداءكم الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت و يفسدون فى الأرض ، وابذلوا أموالكم وأنفسكم فى إقامة ميزان العدل و إعلاء كلمة الحق .

فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه وجب عليه ذلك ، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما كان فى مقدرته .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول ينفقون على أنفسهم من أموالهم و يبذلونها لغيرهم إن استطاعوا كما فعل عثمان رضى الله عنه فى تجهيز جيش العسرة فى هذه الغزوة، وكما فعل غيره من ذوى اليسار من الصحابة .

ولما أصبح فى بيت المال فضلة من المال بكثرة الغنائم صار الملوك والسلاطين يجهزون الجيوش من بيت المال ، وكذلك تفعل الآن الدول المتمدينة ، فتخصص جزءا من المال كل عام للنفقات الحربية من برّية و بحرية ، و يزداد هذا المال إذا دعت الحاجة إلى زيادته، بل قد يجعلون أموال الدولة كلها ومرافقها وقفا على المصالح الحربية، وقد كان المسلمون أحق منهم بذلك وأجدر .

(ذلكم خير لكم) أى ذلكم الذى أمرتم به من النفر والجهاد الذى هو الوسيلة فى حفظ كيان الأمم وعلوّ كلمتها — خير لكم فى دينكم ودنياكم ؛ أما فى الدين فلا سعادة إلا لمن ينصر الحق ويقيم العدل باتباع هدى الدين والعمل بالشرع الحكيم . وأما فى الدنيا فإنه لاعزّ للأمم ولا سيادة لها إلا بالقوة الحربية التى هى وسيلة لدفاع العدو وكبح جماحه .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم تعلمون ذلك علما يبعث على العمل ، فانفروا وجاهدوا ، وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه .

ولما أمرهم بالنفر تخلف بعض المنافقين لأعذار ضعيفة ، وتخلف ناس آخرون من المؤمنين فأنزل الله فى أثناء السفر قوله :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

العرَض : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لاثبات له ولابقاء وليس فى الوصول إليه كبير عناء ، ويقال سير قاصد وسفر قاصد : أى هين لامشقة فيه من القصد وهو الاعتدال ، والشقة : الطريق لاتقطع إلا بعناء ومشقة ، والعفو : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذة عليه .

المعنى الجملى

بعد أن رغبهم سبحانه فى الجهاد فى سبيل الله ، وبين أن فريقا منهم تباطئوا وتثاقلوا ــ قفى على ذلك ببيان أن فريقا منهم تخلفوا عنه مع كل ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية ، ويستأذنونه صلى الله عليه وسلم فى القعود والتخلف ليأذن لهم .

الإيضاح

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك) أى لو كان ما دعوتهم إليه منفعة قريبة المنال ليس فى الوصول إليها كبير عناء ، وسفرا هينا لا تعب فيه ، لاتبعوك وأسرعوا بالنفر إليه ، إذ حب المنافع المادية والرغبة فيها طبيعى فى الإنسان ، ولا سيما إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال وكان من يسعى إليها ممن لا يوقنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب المقيم والأجر العظيم كأولئك المنافقين .

(ولكن بعدت عليهم الشقة) أى ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد وكلفتهم سفرا شاقا ، لأنك استنهضتهم وقت الحر وزمن القيظ ، وحين الحاجة إلى الكنّ ، فتخلفوا جبنا وحبًّا للراحة والسلامة .

(وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) أى وسيحلفون لك عند رجوعك من غزوة تبوك كما قال : « يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ » قائلين لو استطعنا الخروج إلى الجهاد وانتفت الأعذار المانعة منه لخرجنا معكم، فما كان تخلفنا إلا اضطرارا.

(يهلكون أنفسهم) أى يهلكون أنفسهم بإيقاعهم فى العذاب بامتهان اسم الله بالحلف الكاذب لستر نفاقهم وإخفائه ، تأييدا للباطل بالباطل ، وتقوية للإجرام بالإجرام ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(والله يعلم إنهم لكاذبون) فى حلفهم بالله وقولهم لو استطعنا لخرجنا معكم ، فهم كانوا للخروج مطيقين ، إذ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء الأجسام ذوى يسرة فى المال .

ثم عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى إذنه لمن تخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم فقال :

(عفا الله عنك) أى عفا عنك ما أدى إليه اجتهادك من الإذن لهم حين استأذنوك وكذبوا عليك فى الاعتذار .

(لم أذنت لهم ؟) أى لأى شىء أذنت لهم بالقعود والتخلف كما أرادوا ، وهلا

تريثت فى الأذن لهم وتوقفت عنه حتى ينجلى أمرهم وينكشف حالهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله :

(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) أى حتى يتبين لك الفريقان، فتعامل كلاً بما ينبغى أن يعامل به ، فإن الكاذبين لايخرجون ، أذنت لهم أو لم تأذن ، فكان من الأجدر بك أن تتلبث فى الإذن أو تمسك عنه اختبارا لحالهم .

روى عن مجاهد فى قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟) قال هم ناس قالوا استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، وعن قتادة فى قوله (والله يعلم إنهم لكاذبون) لقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن هذه السورة تسمى الفاضحة ، لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين ، ومن ثم نقل البغوى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شئونهم بهذا التفصيل حتى نزلت .

وهذه الآيات أول ما نزل فى التفرقة بين المنافقين والمؤمنين فى القتال .

الإيضاح

(لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ليس من شأن المؤمنين بالله الذى كتب عليهم القتال ، وباليوم الآخر الذى يوفى فيه كل عامل جزاء ما عمل ، أن يستأذنوك أيها الرسول فى أمر الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا جد ما يدعو إلى ذلك ، بل يقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان كما قال « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » بل هم يستعدون له وقت السلم بإعداد القوة ورباط الخيل .

وهم بالأولى لا يستأذنونك فى التخلف عنه بعد إعلان النفر العام ، وأقصى ما قد يقع من فريق منهم هو التثاقل والتباطؤ إذا كان النصر بعيدا .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعا طار على متنه يبتغى القتل والموت مظانه الخ». والمراد أن خير أعمال الرجل أن يعد فرسه رباطا فى سبيل الله ، كلما سمع صيحة لقتال أو فزعة (أى دعوة للاغاثة) طار على فرسه يبتغى القتل والموت فى مظانه » أى المواضع التى يظن أنه يلقى القتل فيها .

(والله عليم بالمتقين) أى والله عليم بمن خافه فاتقاه باجتناب ما يسخطه وفعل ما يرضيه بالمسارعة إلى طاعته فى غزو عدوه وجهادهم بماله ونفسه ، وليس من دأبهم أن يستأذنوا بالتخلف كراهة للقتال .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ولا فضائل العادات كقرى الضيف وإغاثة الملهوف وسائر أعمال المعروف .

ثم صرح بما فهم من الكلام السابق زيادة فى التوكيد والتقرير فقال :

(إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم

فى ريبهم يترددون) أى إنما يستأذنك فى التخلف عن الجهاد معك من غير عذر من لا يصدّقون بالله ولا يقرون بتوحيده ولا باليوم الآخر ، فهؤلاء يرون بذل المال مغرما يفوّت عليهم بعض المنافع ، وهم لا يرجون ثوابا عليه كما يرجو المؤمنون ، ويرون الجهاد بالنفس آلاما ومتاعب ، وقد وقع لهم الريب والشك فى الدين من قبل ، فلم تطمئن به قلوبهم ، ولم تذعن له نفوسهم ، فهم متحيّرون فى أمرهم مذبذبون فى عملهم ، يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداؤه من عبادات الإسلام من صلاة وصيام ، ويلتمسون الخلاص فيما يشق عليهم من تكاليفه ، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة للهرب من القيام بشىء منها .

وقد جاء فى بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان تسعة وثلاثين رجلا .

(ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدة) أى ولو صحت نيتهم للخروج لاستعدوا له وأخذوا الأهبة من زاد وراحلة ونحو ذلك مما يحتاج إليه المسافر لمثل هذا السفر البعيد ، وقد كانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا .

(ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) الانبعاث توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشىء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى ، والتثبيط التعويق عن الأمر والمنع منه .

أى كره الله نفرهم وخروجهم مع المؤمنين لما فيه من الضرر العائق لهم عما أحبه من نصرهم ، فثبطهم بما أحدث فى قلوبهم من المخاوف التى هى مقتضى سننه من تأثير النفاق فيها ، ومن ثم لم يعدوا للخروج عدته ، لأنهم لم يريدوه ، وإنما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من المخالفة والعصيان .

(وقيل اقعدوا مع القاعدين) أى وقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بعبارة تدل على السخط لا على الرضا ، أى اقعدوا مع الأطفال والزمْنى والعجزة والنساء ، وهم قد حملوه على ظاهره لموافقته لما يريدون .

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ
ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ
أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) .

شرح المفردات

الخبال: الاضطراب فى الرأى والفساد فى العمل ، كضعف القتال والخلل فى النظام ، ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا ، وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع ، وخلال الأشياء : ما يفصل بينها من فروج ونحوها ، والفتنة: التشكيك فى الدين والتخويف من الأعداء ، وسماعون لهم : أى ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم ، وتقليب الشيء : تصريفه فى كل وجه من وجوهه والنظر فى كل ناحية من أنحائه؛ والمراد أنهم دبروا الحيل والمكايد ودوّروا الآراء فى كل وجه لإبطال دينك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن استئذانهم فى التخلف عن القتال إنما كان سترا لنفاقهم وتغطية لعصيانهم — قفى على ذلك ببيان المفاسد التى كانت تنجم من خروجهم لو خرجوا وحصرها فى أمور ثلاثة :

(١) الاضطراب فى الرأى وفساد النظام .

(٢) تفريق الكلمة بالسعى فيما بينكم بالنميمة .

(٣) إن فيكم ناسا من ضعفاء الإيمان يسمعون كلامهم ويقبلون قولهم .

الإيضاح

(١) (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أى لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى القعود معكم ، ما زادوكم قوة ومنعة و إقداما كما هو الشأن فى القوى المتحدة فى العقيدة والمصلحة ، بل زادوكم اضطرابا فى الرأى وضعفا فى القتال ومفسدة للنظام ، كما حدث مثل ذلك فى غزوة حنين ، فقد ولّى المنافقون الأدبار فى أول المعركة وولى على إثرهم ضعفاء الإيمان من طلقاء فتح مكة ، ومن ثم اضطرب نظام الجيش ، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر ولا تفكير كما هو الشأن فى مثل هذه الأحوال .

(٢) (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا فى الدخول فيما بينكم سعيا فى النميمة وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تثبيطكم عن القتال وتهويل أمر العدو وإيقاع الرعب فى قلوبكم .

(٣) (وفيكم سماعون لهم) أى وفيكم ناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم يسمعون كلامهم ، فإذا ألقوا إليهم شيئا مما يوجب ضعف العزائم قبلوه وفتروا بسببه عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغى .

ووجه العتاب على الإذن فى قعودهم مع ماقصّ الله تعالى من المفاسد التى تترتب على خروجهم ـ أنهم لو قعدوا بغير إذن منه لظهر نفاقهم بين المسلمين بادئ ذى بدء ، فلم يستطيعوا مخالطتهم ولا السعى فيما بينهم بالأراجيف وقالة السوء التى يقبح أثرها ، وتسوء عاقبتها .

(والله عليم بالظالمين) علما يحيط بظواهرهم و بواطنهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر ، و بما هم مستعدون له فى كل حال مما وقع ومما لم يقع ، فأحكامه فيهم على علم تام لاظن فيه ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإذن لهم ، والذى تثبت هذه الآية أنه شر لا خير فيه وهو ضعف لا قوة ، ولكنه صلى الله

عليه وسلم لم يكن يعلم أنهم لا يخرجون إذا لم يأذن لهم ، فهذا من أخبار الغيب التى لا يعلمها إلا الله ، وهو لم يعلمه قبل نزول هذه الآيات .

وقد كان من حكمة الله فى تربية رسوله وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده فيها لتكون أوقع فى نفسه ونفس أتباعه فيحرصوا على العمل بها ، ولا يحكموا أهواءهم فيها ، وكذلك كان السلف الصالح يسيرون على نهجه ، ويهتدون بهديه .

(لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) أى ولقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة فى المسلمين وتفريق شملهم من قبل هذه الغزوة فى غزوة أحد حين اعتزلهم عبد الله بن أبىّ بن سلول زعيم المنافقين بثلث الجيش فى موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد ، وطفق يقول للناس : أطاع النبى الولدان ومن لا رأى له ، فعلام نقتل أنفسنا ؟، وكان من رأيه عدم الخروج إلى أُحد فرجع بمن اتبعه من المنافقين ، وكاد يتبعه بنو سلمة و بنو حارثة فيرجعون ولكن عصمهما الله من الفتنة .

وكان دأب المنافقين أن يدبروا له الحيل والمكايد ليبطلوا أمره ، فكان لهم ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين فى كل ما فعلا من عداوته وقتال المؤمنين — حتى جاء النصر الذى وعده ربه وظهر دين الله وعلا شرعه بالتنكيل باليهود الغادرين الناكثين للعهود ، والنصر على المشركين بفتح مكة ودخول الناس فى الإسلام أفواجا وهم كارهون لذلك ، حتى لقد كانوا يمنون أنفسهم بظهور المشركين على المؤمنين فى حنين وعودة الشرك إلى قوته .

وفى الآيتين تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المنافقين و بيان ما ثبطهم الله تعالى لأجله ، وفيه هتك أستارهم و إزاحة أعذارهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا، هُوَ مَوْلَانَا، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢).

المعنى الجملى

هذه الآيات سيقت لبيان أقوال قالها المنافقون، بعضها قيلت جهرا، وبعضها أكنّوه فى أنفسهم، وأعذار سيعتذرون بها غير ما سبق منهم، وشئون أخرى لهم أكثرها من أنباء الغيب.

الإيضاح

(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) أى ومن المنافقين ناس يستأذنونك فى التخلف عن القتال حتى لا يفتتنوا بنساء الروم.

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس « يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر؟ قال جدّ، وكان من شيوخ المنافقين: أتأذن لى يارسول الله فإنى رجل أحب النساء، وإنى أخشى إن أنا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه (قد أذنت لك) فنزلت الآية ».

وقد رد الله شبهته وشبهة من وافقه عليها بقوله :

(ألا فى الفتنة سقطوا) أى فليعلموا أنهم بمقالتهم هذه سقطوا وتردّوا فى هاوية الفتنة ، حين اعتذروا بالمعاذير الكاذبة ، من حيث يزعمون اتقاء التعرض للإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم ، وشغل القلب بمحاسنهن .

(وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى وإن النار لمطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله ، جامعة لهم يوم القيامة ، وكفى بها نكالا ووبالا .

وهذا وعيد لهم على الفتنة التى تردّوا فيها ، وبيان لأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذى حملهم على ذلك الاعتذار ، وإنما تحيط النار بمن أحاطت بهم خطاياهم حتى لا رجاء فى توبتهم منها كما قال تعالى « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(إن تصبك حسنة تسؤهم) الحسنة ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوهما: أى إن كل ما يسرك من النصر والغنيمة كما حدث يوم بدر - يورثهم كآبة وحزنا لفرط حسدهم وعداوتهم .

(وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) أى وإن تصبك شدة كانكسار جيش كما حدث يوم أحد - يقولوا معجبين بآرائهم حامدين ما صنعوا ، قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحذر والحزم كما هو دأبنا ، إذ تخلفنا عن القتال ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك ، وينصرفوا عن الموضع الذى يقولون فيه هذا القول وهم فرحون فرح البطر والشماتة .

روى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا فى المدينة يشيعون أخبار السوء عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويقولون إنهم جهدوا فى سفرهم وهلكوا ، فبلغهم بعد ذلك كذب خبرهم وعافية النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله (إن تصبك حسنة تسؤهم) الآية .

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى قل أيها الرسول لأولئك المنافقين الذين يفرحون بمصابك وتسوءهم نعمتك : لن يصيبنا إلا ما خط لنا وكتب فى اللوح المحفوظ على حسب سننه تعالى فى خلقه من نصر وغنيمة أو تمحيص وشهادة ، ولا يتغير ذلك بموافقتكم أو مخالفتكم ، فالأمور كلها بقضائه تعالى .

(هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى هو ناصرنا ومتولى أمورنا بتوفيقنا ونصرنا ، ونحن نلجأ إليه ونتوكل عليه ، فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمة كما قال سبحانه فى بيان سننه تعالى فى خلقه (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) .

ومن حق المتوكل على الله وحده أن يقوم بما أوجبه عليه فى شرعه ، ويهتدى بسننه فى خلقه ، من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية كإعداد العُدّة واتقاء التنازع الذى يولد الفشل ويفرق الكلمة ، ثم بعد ذلك يكل الأمر إليه فيما لا تصل إليه الأيدى من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح .

ويقابل التوكل بهذا المعنى اتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها ، حتى إذا أدركهم العجز خانهم الصبر وأدركهم اليأس حين حلول البأس ، واتكال ذوى الأوهام الذين يتعلقون بالأمانى والأحلام ، حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم نكصوا على أعقابهم وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين ، وهو إنما وعد أولياءه لا أولياء الشيطان وذوى الخرافات والأوهام .

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون) أى قل لهم : أيها الجاهلون ، هل تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين النصر أو الشهادة ، ونحن نتربص بكم إحدى السُّوءيين أن يصيبكم ربكم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها ، كما فعل بالأمم

المكذبة لرسلها، أو أن يأذن لنا بقتالكم إن أغراكم الشيطان باظهار كفركم، فتربصوا بنا إنا معكم متربصون من عاقبتنا وعاقبتكم إن أصررتم على كفركم وظهر أمركم ، فنحن على بينة من ربنا ولا بينة لكم ، فإذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه ، لا نشاهد إلا ما يسوءكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا .

والدين لايأمر بقتل المنافق مادام يظهر الإسلام ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة .

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه اعتذار المنافقين بالمعاذير الكاذبة ، وتعللاتهم الباطلة فى التخلف عن القتال ، وذكر ما يجول فى نفوسهم من كراهتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وأنهم يتربصون بهم الدوائر — قفى على ذلك ببيان أن نفقاتهم على الجهاد فى هذه الحال طوعا أو كرها لن يتقبلها الله ولاثواب لهم عليها ، لما يبطنونه فى صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر الله ، فهم إن فعلوا شيئا من أركان الدين فإنما يفعلونه رئاء الناس وخوفا على أنفسهم من الفضيحة إذا هم تركوها ، وأن أموالهم الكثيرة إنما هى عذاب لهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين : أنفقوا من أموالكم ما شئتم فى الجهاد أو فى غيره من

النفقات التى أمر الله بها وحث فى شرعه عليها حال الطوع تقيّة وحفظا للنفس ، وكرها خوفا من العقوبة ، فمهما أنفقتم فلن يتقبل منكم ما دمتم فى شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال فى الآخرة ، لأنكم قوم فاسقون أى خارجون من دائرة الإيمان ، والله إنما يتقبل من المؤمنين .

(وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى وما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق ، وكفرهم برسالة رسوله وما جاء به من الهدى والبينات .

(ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ولا يصلون إلا رياء وتقيّة ، لا إيمانا بوجوبها ، ولا قصدا إلى ثوابها واحتسابا لأجرها ، ولا تكميلا لأنفسهم بما شرعه الله لأجلها ، لأنهم لا يأتونها إلا وهم متثاقلون كسالى لا تنشرح لها نفوسهم ولا تنشط لها أبدانهم .

(ولا ينفقون إلا وهم كارهون) أى ولا ينفقون أموالهم فى مصالح الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لذلك غير طيبة به أنفسهم ، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم تضرب عليهم ينتفع بها المؤمنون وهم ليسوا منهم ، فلا نفع لهم بما أنفقوا لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة ، إذ لا يؤمنون بها .

ولما كان من أقوى أسباب إعراضهم عن آيات الله كثرة المال وطغيان الغنى بين سبحانه سوء عاقبة المال لهم فقال

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) الإعجاب بالشىء السرور به مع الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، والخطاب لكل من سمع القول أو بلغه .

أى فلا تعجبك أيها السامع أموالهم ولا أولادهم التى هى من أكبر النعم وأجلّها ، ولا يجولن بخاطرك أنهم ـ وقد حرموا ثوابها فى الآخرة ـ صفا لهم نعيمها فى الدنيا ، وإلى هذا أشار بقوله سبحانه :

(إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) بما ينالهم بسببها من التنغيص والحسرة .

أما الأموال فلأنهم يلاقون النصب والتعب فى جمعها واكتسابها ، ويلاقون ما هو أشد من ذلك فى حفظها وصونها من الهلاك ، فالمشغوف بالمال يكون أبدا فى تعب الحفظ والصون ، وهو مع ذلك لا ينتفع إلا بالقليل منها كما قال عليه السلام «مالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أوتصدقت فأمضيت» .

وأما الأولاد فإنهم يرون أنهم قد نشئوا فى الإسلام واطمأنت به قلوبهم ، فهم يجاهدون فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وربما ماتوا فى الغزو — فيجزعون أشد الجزع ، إذلا يعتقدون شهادتهم ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن الاجتماع بهم قريب كما يعتقد المؤمنون .

(وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى ويموتون ويهلكون وهم كافرون ، فيعذبون بها فى الآخرة إثر ما عذبوا بها فى الدنيا ، لموتهم على الكفر الذى يحبط أعمالهم .

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الفرق (بالتحريك) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه ، والملجأ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة فى بحر أو قُنّة فى جبل ، والمغارات : واحدها مغارة وهى الكهف فى الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر والمدّخل (بالتشديد) السرب فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة ، والجماح السرعة التى تتعذر مقاومتها .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المنافقين يظهرون غير ما يضمرون ، فإذا هم طلبوا الإذن خوف الفتنة كانوا كاذبين ، وذكر أنهم يتمنون أن تدور الدوائر على المؤمنين قفى على ذلك بذكر غلوهم فى النفاق وأنهم لا يتحرجون أن يحلفوا الأيمان الفاجرة لستر نفاقهم خوف الفضيحة ، وأنهم يتمنون أن يجدوا أىّ السبل للبعد عن المؤمنين ، فيلجئوا إليها مسرعين .

الإيضاح

(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) أى ويحلفون بالله لكم كذبا إنهم منكم فى الدين والملة ، وهم ليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شك ونفاق ، ولكنهم يخافونكم فيقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم .

(لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولوا إليه وهم يجمحون) أى إنهم لشدة كرههم للقتال معكم ولبغض معاشرتهم إياكم ولعظيم الخوف من ظهور نفاقهم لكم يتمنون الفرار منكم والعيش فى مكان يعتصمون به من انتقامكم منهم ، فلو استطاعوا السكنى فى الحصون والقلاع ، أو فى كهوف الجبال ومغاراتها ، أو فى أنفاق الأرض وأسرابها ـ لولوا إليه مسرعين كالفرس الجموح لايردهم شىء .

وإنما وصفهم الله سبحانه بتلك الأوصاف ، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ، لأنهم كانوا بين عشيرتهم وفى دورهم وأموالهم ، ولم يقدروا على ترك ذلك وفراقه ، فصانعوا القوم بالنفاق ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإخفاء الكفر ودعوى الإيمان ، وفى أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأهل الإيمان به وبالغ الحقد عليهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ (٥٩) .

شرح المفردات

اللمز : العيب والطعن فى الوجه ، والهمز : الطعن فى الغيبة ، ورغبه ورغب فيه: أحبه ، ورغب عنه : كرهه ، ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن المنافقين لايتحرجون عن كاذب الأيمان إذا وجدوا فى ذلك طريقا لخدعة المؤمنين فى تصديقهم بأنهم مؤمنون كما هم مؤمنون كى يأمنوا جانبهم ، وأنهم يجدُّون فى البعد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ــ أردف ذلك بذكر سوأة أخرى من سوءاتهم وهى أنهم يتمنون الفرص للطعن على النبى صلى الله عليه وسلم حتى يوقعوا الريب فى قلوب ضعفاء الإيمان من المسلك الذى يوافق أهواءهم ، وقد وجدوا من ذلك قسمة الصدقات والمغانم ، فولجوا هذا الباب وقالوا ما شاءوا أن يقولوا .

روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بينا النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال اعدل يا رسول الله، فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : ائذن لى أن أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فنزلت فيهم (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) الآية » .

وروى ابن جرير عن داود بن أبى عاصم قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت ورأى ذلك رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية .

ومجموع الروايات يدل على أن أشخاصا من منافقى المدينة قالوا ذلك لحرمانهم من العطية ، ولم يقله أحد من المهاجرين ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم فى منى .

الإيضاح

(ومنهم من يلمزك فى الصدقات) أى ومن المنافقين من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات وهى أموال الزكاة المفروضة إذ يزعمون أنك تحابى فيها وتؤتى من تشاء من الأقارب وأهل المودة ولا تراعى العدل فى ذلك .

ثم بين سبحانه أسباب هذا اللمز وأن منشأه حرصهم على حطام الدنيا فقال :

(فإن أعطوا منها رضوا) أى فإن أعطوا ولو بغير حق كأن أظهروا الفقر كذبا واحتيالا ، أو أعطوا لتأليف قلوبهم ــ رضوا بهذه القسمة واستحسنوا فعلك .

(وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون) أى وإن لم يعطوا منها فاجئوك بالسخط وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء ، إذ لاهمَّ لهم إلا المنفعة الدنيوية ونيل حطام الدنيا .

(ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) أى ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من الغنائم وغيرها ، وأعطاهم رسوله بقسمة الغنائم والصدقات كما أمره الله ، وقالوا الله يكفينا فى كل حال ، وسيعطينا من فضله بما يرد علينا من الغنائم والصدقات ، لأن فضله لاينقطع ، ورسوله لا يبخس أحدا منا شيئا يستحقه فى شرع الله ، وقالوا إنا إلى الله نرغب فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم ــ لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم من الطمع فى غير مطمع ومن همز الرسول ولمزه .

والخلاصة — إنهم لو رضوا من الله بنعمته ، ومن الرسول بقسمته ، وعلقوا أملهم بفضل الله وكفايته ، وبما سينعم به عليهم فى مستأنف الأيام ، وبأن الرسول يعدل فى القسمة لكان فى ذلك الخير كل الخير لهم .

وفى ذلك إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون قانعا بكسبه وما يناله بحق من صدقة ونحوها مع توجيه قلبه إلى ربه ، ولا يرغب إلا إليه فى الحصول على رغائبه التى وراء كسبه وحقوقه الشرعية .

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) .

شرح المفردات

الصدقة : هى الزكاة الواجبة على النقد والأنعام والزرع والتجارة ، والفقير : من له مال قليل دون النصاب (أقل من اثنى عشر جنيها) والمسكين : من لا شىء له فيحتاج للمسألة لقوته وكسوته ، والعامل عليها : هو الذى يوليه السلطان أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء ، والمؤلفة قلوبهم : هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى الإسلام أو التثبيت فيه ، وفى الرقاب : أى وللانفاق فى إعانة الأرقاء لفكاكهم من الرق ، والغارمين : أى الذين عليهم غرامة من المال تعذر عليهم أداؤها ، وفى سبيل الله : أى وفى الطريق الموصل إلى مرضاة الله ومثوبته ، والمراد بهم كل من سعى فى طاعة الله وسبل الخيرات كالغزاة والحجاج الذين انقطعت بهم السبل ولا مورد لهم من المال وطلبة العلم الفقراء ، وابن السبيل : هو المسافر الذى بعد عن بلده ولا يتيسر له إحضار شىء من ماله فهو غنىّ فى بلده ، فقير فى سفره : فريضة من الله أى فرض الله ذلك فريضة ليس لأحد فيها رأى .

الإيضاح

مصارف الزكاة والأشخاص الذين تعطى لهم وهم أصناف ثمانية :

(١) (إنما الصدقات للفقراء) أى إنما تعطى زكاة النقد أو النعم أو التجارة أو الزرع للفقراء الذين يحتاجون إلى مواساة الأغنياء ، لعدم وجود ما يكفيهم من المال على حسب حالهم .

(٢) (والمساكين) وهم أسوأ حالا من الفقراء لقوله تعالى : « أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » أى ألصق جلده بالتراب فى حفرة استتر بها مكان الإزار ، و بطنه به لشدة الجوع وذلك منتهى الضر والشدة .

(٣) (والعاملين عليها) وهم الذين يبعثهم السلطان لجبايتها أو حفظها ، فيشمل الجباة (المحصلين) وخزنة المال (مديرو الخزائن) وهم يأخذون منها عمالتهم على عملهم لا على فقرهم .

روى أحمد والشيخان أن ابن السعدى المالكى قال : استعملنى عمر على الصدقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمر لى بعمالة ، فقلت إنما عملت لله ، فقال : خذ ما أعطيت فإنى عملت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعمّلنى (أعطانى العمالة) فقلت مثل قولك ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدق » .

(٤) (والمؤلفة قلوبهم) وهم قوم يراد استمالتهم إلى الإسلام ، أو تثبيتهم فيه ، أو كف شرهم عن المسلمين ، أو رجاء نفعهم فى الدفاع عنهم أو نصرهم على عدوّ لهم ، وهم أصناف ثلاثة :

(ا) صنف من الكفار يرجى إيمانهم بتأليف قلوبهم كصفوان بن أمية الذى وهب له النبى صلى الله عليه وسلم الأمان يوم فتح مكة وأمهله أربعة أشهر لينظر فى أمره ، وأعطاه إبلا محملة فقال هذا عطاء من لا يخشى الفقر ، وروى أنه قال : والله

لقد أعطانى وهو أبغض الناس إلىّ ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى ، وقد حسن إسلامه .

(ب) صنف أسلم على ضعف ، ويرجى بإعطائه تثبيته وقوة إيمانه ومناصحته فى الجهاد كالذين أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم العطايا الوافرة من غنائم هوازن ، وهم بعض الطلقاء من أهل مكة الذين أسلموا وكان منهم المنافق ومنهم ضعيف الإيمان ، وقد ثبت أكثرهم بعد ذلك وحسن إسلامهم .

(حـ) صنف من المسلمين فى الثغور وحدود بلاد الأعداء يعطون لما يرجى من دفاعهم عمن وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدو .

ويرى أبو حنيفة أن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام ، واحتج بأن مشركا جاء يلتمس من عمر مالا فلم يعطه وقال (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وبأنه لم ينقل أن عثمان وعليا أعطيا أحدا من هذا النوع .

(٥) (وفى الرقاب) أى وللإنفاق فى فك الرقاب بإعانة المكاتبين من الأرقاء فى فك رقابهم من الرق ، أو لشراء العبيد وإعتاقهم ، وهذا من أكبر الإصلاح البشرى الذى هو المقصود من رحمة الإسلام وعدله .

روى أحمد والبخارى عن البراء بن عازب قال : «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى من النار ، فقال : أعتق النسمة وفك الرقبة ، فقال يا رسول الله أو ليسا واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين بثمنها» .

(٦) (والغارمين) وهم الذين عليهم ديون ركبتهم وتعذر عليهم أداؤها . وقد كان العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة فى دية أو غيرها قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة ، وكانوا إذا علموا أن واحدا منهم التزم غرامة أو تحمل حمالة بادروا إلى معونته على أدائها وإن لم يسأل ، وكانوا يعدون سؤال المساعدة على ذلك فخرا لا ذلا .

فعن قَبِيصَة بن مخارق الهلالى قال : « تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال يا قبيصة: إن المسألة لاتحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب سدادا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من أهل الحجا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواها من المسألة يا قبيصة فسُحْت يأكلها صاحبها سحتا » رواه أحمد ومسلم والنسائى وأبو داود .

(٧) (وفى سبيل الله) وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ومثوبته ، والمراد به الغزاة والمرابطون للجهاد، وروى عن الإمام أحمد أنه جعل الحج من سبيل الله ، ويدخل فى ذلك جميع وجوه الخير من تكفين الموتى و بناء الجسور والحصون وعمارة المساجد ونحو ذلك .

والحق أن المراد بسبيل الله مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر الدين والدولة دون الأفراد كتأمين طرق الحج وتوفير الماء والغذاء وأسباب الصحة للحجاج و إن لم يوجد مصرف آخر ، وليس منها حج الأفراد لأنه واجب على المستطيع فحسبُ .

(٨) (وابن السبيل) وهو المنقطع عن بلده فى سفر لايتيسر له فيه شىء من ماله إن كان له مال ، فهو غنى فى بلده ، فقير فى سفره ، فيعطى لفقره العارض مايستعين به على العودة إلى بلده .

وفى ذلك عناية بالسياحة وتشجيع عليها على شرط أن يكون سفره فى غير معصية ، ويكون هذا من أسباب التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

وسهولة طرق الوصول فى العصر الحاضر ونقل الأخبار فى الزمن القليل جعلت نقل المال من بلد إلى آخر ميسورا بلا كلفة ، فيسهل على الغنى أن يجلب ماله فى أى وقت أراد ، و إلى أى مكان طلب .

(فريضة من الله) أى إنما الصدقات لمن ذكر من أصناف المحتاجين ، وفيما ذكر من مصالح الأمة فريضة من الله لهم أوجبها عليكم .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بأحوال الناس ومقدار حاجتهم ، حكيم فيما يشرعه لهم تطهيرا لأنفسهم وتزكية لها ، وشكرا لخالقهم على ما أنعم به عليهم كما قال: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) .

شرح المفردات

الأذى : مايؤلم الحى المدرك فى بدنه أو فى نفسه ولو ألما خفيفا ، يقال أذِى بكذ أذى وتأذى تأذيا إذا أصابه مكروه يسير ، والأذن : هو الذى يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه ، ويقولون رجل أذن : أى يسرع الاستماع والقبول ، ويؤمن للمؤمنين : أى يصدقهم لما علم فيهم من علامات الإيمان الذى يوجب عليهم الصدق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نفاقهم الطعن فى أفعاله صلى الله عليه وسلم كإيذاء الذين لمزوه فى قسمة الصدقات — قفى على ذلك بذكر من طعن فى أخلاقه وشمائله الكريمة بقولهم إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا .

روى ابن اسحق وابن المنذر عن ابن عباس قال : « كان نبتل بن الحرث يأتى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم إنما محمد أذن ، من حدثه شيئا صدقه فأنزل الله الآية » .

وروى أنه اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومَخَشِّ ابن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضا وقالوا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، وقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية .

الإيضاح

(ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) أى ومن المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون هو أذن سامعة : أى يسمع من كل أحد ما يقوله ويقبله ويصدقه ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ماهو جدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله ، وهذا عيب فى الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وإبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان عليه السلام يعاملهم بأحكام الشريعة كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر ، فظنوا أنه يصدّق كل مايقال له .

(قل هو أذن خير لكم) أى إنه أذن ولكنه نعم الأذن ، لأنه أذن خير لا كما تزعمون ، فهو لايقبل مما يسمعه إلا مايعتقد أنه الحق وما فيه المصلحة للخلق ، وليس بأذن فى سماع الباطل كالكذب والنميمة والجدل والمراء ، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لايقبله ولا يصدق ما لايجوز تصديقه كما هو شأن الملوك والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون إيذاءه .

ثم بين سبحانه المراد من أذن الخير بقوله :

(يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى يصدق بالله وبما يوحى إليه مما فيه خيركم وخير

غيركم ، ويصدق المؤمنين الصادق الإيمان من المهاجرين والأنصار ، لما علمه من آيات إيمانهم الذى يوجب عليهم الصدق فيما يحدثونه به .

وفى هذا إيماء إلى أنه لايؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم ولايصدقهم فى أخبارهم وإن وكدوها بالأيمان اغترارا بلطفه وأدبه صلى الله عليه وسلم إذ كان لايواجه أحدا بما يكره ، وبمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه .

(ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا صادقا إذ كان سبب هدايتهم إلى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، لا لمن أظهر الإسلام وأسرّ الكفر نفاقا ، فهو نقمة عليه فى الدارين .

(والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) أى والذين يؤذون الرسول بالقول أو بالفعل فجزاؤهم العذاب الشديد الإيلام .

وهذه الآية وما فى معناها دليل على أن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم كفر إذا كان فيما يتعلق برسالته ، لأن ذلك ينافى الإيمان . وأما إيذاؤه فى شئونه البشرية والعادات الدنيوية فحرام لا كفر كإيذاء الذين كانوا يطيلون المكث فى بيوته لدى نسائه بعد الطعام وفيهم نزل : « إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ » وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم فى ندائه ويسمونه باسمه كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

وإيذاؤه صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كإيذائه فى حال حياته كالخوض فى أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيا ، فالإيمان به صلى الله عليه وسلم مانع من تصدى المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله عليه إيذاء ما ، فهذا الذنب من أكبر الذنوب ومعصية من أعظم المعاصى .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) .

شرح المفردات

المحادة من الحد : وهو طرف الشيء كالمشاقة من الشق (بالكسر) وهو الجانب ونصف الشيء المنشق منه ، وهما بمعنى المعاداة من العدوة (بالضم) وهى جانب الوادى، لأن العدو يكون فى غاية البعد عمن يعاديه عداء البغض بحيث لا يتزاوران ولا يتعاونان فكأن كلا منهما فى شق وعدوة غير التى فيها الآخر ، إذ هما على طرفى نقيض ، وهكذا المنافقون يكونون فى الجانب المقابل للجانب الذى يحب الله لعباده والرسول لأمته من الحق والخير والعمل الصالح .

المعنى الجملى

روى ابن المنذر عن قتادة قال : « ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال فى شأن المتخلفين فى غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمر ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت شر من الحمار ، وسعى بها الرجل إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : (ما حملك على الذى قلت ؟) فجعل يتلعن (يلعن نفسه) ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية».

الإيضاح

(يحلفون بالله لكم ليرضوكم) هذا خطاب للمؤمنين أى يحلفون لكم إنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم ليرضوكم ، وقد كان من

دأبهم أن يتكلموا بما لاينبغى أن يقال ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم و يؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم و يرضوا عنهم .

وفى كثرة الاعتذار والحلف للمؤمنين فى كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول أو فعل ليرضوهم فلا يخبروا الرسول صلى الله عليه وسلم ــ دليل على أنهم شعروا بظهور نفاقهم وافتضاح أمرهم .

(والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين ، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين ، ولكن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء و يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب مافيه المصلحة للمؤمنين .

وفى التعبير بيرضوه دون يرضوهما إشعار بأن إرضاء رسوله هو عين إرضائه تعالى ، لأنه إرضاء له فى اتباع ما أرسله به .

(إن كانوا مؤمنين) أى إن كانوا مؤمنين كما يدّعون و يحلفون ــ فليرضوا الله ورسوله و إلا كانوا كاذبين .

وفى الآية عبرة للمنافقين فى زماننا وفى كل زمان ، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس ، و بخاصة الملوك والوزراء الذين يتقربون إليهم فيما لايرضى ربهم ، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل وأقذر السبل .

ثم وبخهم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته بما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

(ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الأمر الحق الذى لاشك فيه هو أن من يحاد الله ورسوله بتعدى حدوده أو يلمز الرسول فى أعماله كقسمة الصدقات ، أو فى أخلاقه وشمائله كقولهم هو أذن ــ فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة خالدا فيها أبدا لامخلص له منها .

(ذلك الخزى العظيم) أى ذلك العذاب هو الذل والهوان العظيم الذى يصغر دونه كل خزى وذل فى الحياة الدنيا .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ؟ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) .

شرح المفردات

الحذر : الاحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه ، والإخراج : إظهار الشىء الخفى المستتر كإخراج الحب والنبات من الأرض ، والخوض : الدخول فى البحر أو فى الوحل ، وكثر استعماله فى الباطل لما فيه من التعرض للأخطار ، والاعتذار : الإدلاء بالعذر ، وهو ما يراد به محو أثر الذنب وترك المؤاخذة عليه من عذر الصبى يعذره أى ختنه تطهيراً له بقطع عذرته أى قلفته ، والطائفة : الجماعة من الناس والقطعة من الشىء : يقال ذهبت طائفة من الليل ومن العمر ، وأعطاه طائفة من ماله .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لبيان حال من أحوال المنافقين كشفت عنها غزوة تبوك ، أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد أن المنافقين كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون عسى ألا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة لأنها أنبأت بمثالبهم وعوراتهم .

الإيضاح

(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوبهم أى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم وتفشى أسرارهم .

وهذا الحذر والإشفاق أثر طبيعى للشك والارتياب ، إذهم كانوا شاكين مرتابين فى الوحى ورسالة الرسول ولم يكونوا موقنين بشىء من الإيمان ولا من الكفر ، فهم مذبذبون لاهم بالمؤمنين الموقنين ، ولا بالكافرين الجازمين بالكفر ، ولو كانوا على واحد منهما لما خطر لهم الخوف على بال ، إذ تكون قلوبهم مطمئنة بأحد الأمرين .

والخلاصة — إنهم يحذرون أن تنزل سورة فى شأنهم و بيان حالهم ، فتكون فى ذلك فضيحتهم وكشف عوراتهم و إنذارهم ماقد يترتب عليه من عقابهم .

(قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون) أى استهزئوا فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به و يبين أمركم .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » .

ولايخفى مافى هذا من التهديد والوعيد على فعلهم وكونه سببا لإخراجه تعالى مايحذرون ظهوره من مخبئات سرائرهم .

(ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) أى إنك إن سألتهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين ، بل هازلين لاعبين للتسلى والتلهى ، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول لجهلهم أن اتخاذ الدين هزوا ولعبا كفر محض كما قال تعالى : « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » وقال: « فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ » .

ويدخل فى عموم الآية المبتدعون فى الدين والذين يخوضون فى الداعين إلى الكتاب والسنة ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال : (احبسوا علىّ هؤلاء الركب) فأتاهم فقال قلتم كذا وقلتم كذا . قالوا يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون » .

(قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) أى إن الخوض واللعب فى صفات الله وشرعه وآياته المنزلة استهزاء بها ، إذ كل ما يلعب به فهو مستخفّ به ، وكل مستخف به فهو مستهزأ به .

وقصارى ذلك — ألم تجدوا ما تستهزئون به فى خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله فقصرتم ذلك عليهما ، فهل ضاقت عليكم سبل القول ، فلم تجدوا ماتخوضون فيه وتلعبون غير هذا ، ثم بعدئذ تظنون أن معاذيركم بمثل هذا تقبل وتدلون بها بلا خوف ولا خجل .

(لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى لاتذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم ، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لاينبغى أن يكون ، فاعتذاركم إقرار بذنبكم فهو كما يقال : عذر أقبح من الذنب .

(إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) أى إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كَمِخَشّ بن حُمَيِّر نعذب بعضا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه .

وخلاصة ذلك — إن من تاب من كفره ونفاقه عفى عنه ، ومن أصر عليه وأظهره عوقب به .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ؛ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠).

شرح المفردات

بعضهم من بعض : أى متشابهون فيه وصفا وعملا كما تقول أنت منى وأنا منك أى أمرنا واحد لافتراق بيننا ، والمنكر: إما شرعى وهو مايستقبحه الشرع وينكره ، وإما فطرى : وهو ما تستنكره العقول الراجحة والفطر السليمة لمنافاته للفضائل والمنافع الفردية والمصالح العامة ، وضده المعروف فى كل ذلك ، وقبض الأيدى : يراد به الكف عن البذل ، وضده بسط اليد ، نسوا الله : أى تركوا أوامره حتى صارت بمنزلة المنسى ، فنسيهم : أى فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك فى الآخرة ، والفاسقون : أى الخارجون عن الطاعة المنسلخون عن فضائل الإيمان ، والوعد : يستعمل فى إعطاء الخير والشر والنافع والضار ، والوعيد خاص بالشر ،

واللعن: الإبعاد من الرحمة والإهانة والمذلة ، والمقيم : الثابت الذى لايتحول ، بخلاقهم: أى بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، وخضتم : أى دخلتم فى الباطل ، وحبط العمل : فسد وذهبت فائدته ، والخسارة فى التجارة : تقابل الربح فيها ، وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات واحدها مؤتفكة من الائتفاك : وهو الانقلاب بجعل أعلى الشىء أسفله بالخسف ، وهى قرى قوم لوط .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات أنواعا وضروبا من قبائح المنافقين ذكرانهم وإناثهم، وقرنها بالوعيد الشديد بما أعد لهم من الجزاء فى زمرة إخوانهم الكفرة الذين من قبلهم على ما كانوا يقترفون من الفساد والإفساد ، وتلاه بضرب المثل الذى يشرح حالهم لبيان السنن العامة فى روابط الاجتماع وآثار الأخلاق فى تلك الروابط .

الإيضاح

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى إن أهل النفاق رجالا ونساء يتشابهون فى صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم كما قال تعالى فى آل إبراهيم وآل عمران « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقال الشاعر :

تلك العصا من هذه العُصَيَّه		هل تلد الحيَّـــة إلا حيه

ثم بين ذلك التشابه فقال :

(يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى إن بعضهم يأمر بعضا بالمنكر كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد كما جاء فى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » رواه الشيخان عن أبى هريرة .

وينهون عن المعروف كالجهاد وبذل المال فى سبيل الله للقتال كما حكى الله عنهم بقوله : « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا » .

واقتصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل ، لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق ، كما أن الإنفاق فى سبيل الله أقوى دلائل الإيمان .

(نسوا الله فنسيهم) أى نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ولم يعد يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر ، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان ، فجازاهم على ما فعلوا بحرمانهم من لطفه وتوفيقه فى الدنيا ، ومن الثواب فى الآخرة .

(إن المنافقين هم الفاسقون) أى إن المنافقين الناكبين عن الصراط المستقيم إلى سبل الشيطان هم أكثر الناس فسوقا وخروجا من جميع الفضائل ، حتى من الكفار الذين يعتقدون صحة عقائدهم الباطلة ، فهم لا يبلغون مبلغهم فى الفسوق والخروج من طاعة الله والانسلاخ من فضائل الفطر السليمة .

ثم بين سبحانه ما أعد لهم ولأمثالهم من العقاب جزاء لهم على أعمالهم فقال :

(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) أى وعد الله هؤلاء جميعا نار جهنم يصلونها ماكثين فيها أبدا .

وقدم المنافقين فى الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام - شر من الكفار ، ولاسيما المتدينين منهم بأديان محرفة أو منسوخة كأهل الكتاب .

(هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) أى إن نار جهنم فيها من الجزاء ما يكفيهم عقابا لهم فى الآخرة على أعمالهم ، وعليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة بحرمانهم من رحمته التى لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون ، ولهم عذاب مقيم غير عذاب جهنم كالسموم الذى يلفح وجوههم ، والحميم الذى يصهر ما فى بطونهم ، والضريع الذى

لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وحرمانهم من لقاء الله وكرامته والحجاب دون رؤيته كما قال : « كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » .

(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم فى أقوام الأنبياء ، فتنتم بأموالكم وأولادكم وغررتم بدنيا كم كما فتنوا وغروا بها ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالا وأولادا ، وقد كان جل مطلبهم وسعيهم هو التمتع بنصيبهم وحظهم الدنيوى من الأموال والأولاد ، فأطغتهم الدنيا وأغرتهم لذاتها ، ولم يكن لهم مقاصد شريفة من الحياة كالتى يقصدها أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة من إعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أى وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم فى الاستمتاع بخلاقكم ، فأنتم فعلتم بدينكم ودنيا كم كما فعل الذين كانوا من قبلكم ، ولم تفضلوا عليهم بشىء من الاسترشاد بكلام الله وهدى رسوله ، إذ لم تعملوا شيئا من الفضائل التى تزكى النفوس وتجعلها أهلا للسعادة ، فكنتم أجدر بالعقاب منهم ، لأنهم أوتوا من القوة والأموال فوق ما أوتيتم ، ولم يروا من آيات الله ما رأيتم .

والخلاصة — إنكم حذوتم حذوهم وسلكتم سبيلهم مع توافر الدواعى على فعل ضد ما تعملون .

(وخضتم كالذى خاضوا) أى ودخلتم فى الباطل كما دخلوا على ما بين حالكم وحالهم من الفوارق التى كانت تقتضى أن تكونوا أهدى منهم سبيلا .

(أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) أى إن أولئك المستمتعين بخلاقهم وحظهم والخائضين فى الباطل حبطت أعمالهم الدنيوية

فكان ضررها أكبر من نفعها لهم، لإسرافهم وإفسادهم فى الأرض، وكذلك أعمالهم الدينية فى الآخرة من عبادات وصلة رحم وصدقة وقرى ضيف، فلم يكن لهم أجر عليها ينقذهم من عذاب النار ويدخلهم الجنة، إذ شرط قبولها فى الآخرة الإيمان والإخلاص، فهم خسروا فى مظنة الربح والمنفعة.

ونحو الآية قوله: «هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا؟».

ثم نبههم وحذرهم سوء عاقبة أعمالهم فقال:

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) أى ألم يأت أولئك المنافقين والكفار الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم حين عصوا رسلهم وخالفوا أمر ربهم فأخذهم العذاب كالطوفان الذى أغرق قوم نوح، والريح العقيم التى أهلكت عادا قوم هود، والصيحة التى أخذت ثمود، والعذاب الذى هلك به النمروذ الذى حاول إحراق إبراهيم، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها.

وما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب، وقد أعذرهم وأنذرهم ليجتنبوه، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بجحودهم وعنادهم وعدم مبالاتهم بإنذار رسلهم.

وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسالته صلى الله عليه وسلم والمنافقين، ليبين لهم أن سنة الله فى عباده واحدة لاظلم فيها ولا محاباة، فلابد أن يحل بهم من العذاب مثل ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا.

وقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم فى أول غزوة وهى غزوة بدر، ثم خذل من بعدهم فى سائر الغزوات، وما زال المنافقون يكيدون له فى السر حتى فضحهم الله بهذه السورة، فتاب أكثرهم ومات زعيمهم عبد الله بن أبى بغيظه وكفره، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده.

وبهذا التمحيص كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس . نشر الله بهم أعلام دينه حتى سادوا العالم جميعه .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أفعال المنافقين الخبيثة وذكر ما أعده لهم من العذاب فى الدنيا والآخرة ـ قفى على ذلك بذكر صفات المؤمنين الذين زكت نفوسهم وطهرت سرائرهم وما أعده لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم .

الإيضاح

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الولاية ضد العداوة ، وتشمل ولاية النصرة وولاية الأخوة والمودة ، ونصرة النساء تكون فيما دون القتال من الأعمال المتعلقة بتعبئة الجيوش من الأمور المالية والبدنية ، وكان نساء النبى صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء ويجهزن الطعام ويحرضن على القتال ويرددن المنهزم من الرجال قال حسان :

تظل جيادنا متمطرات   تُلطِّمهن بالخُمُر النساء

وقال فى وصف المومنين : بعضهم أولياء بعض ، وفى وصف المنافقين بعضهم

من بعض - لأن المؤمنين بينهم أخوة ومودة وتعاون وتراحم حتى شبه النبي صلى الله عليه وسلم جماعتهم بالجسد الواحد ، وبالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبينهم ولاية النصرة فى الدفاع عن الحق والعدل وإعلاء كلمة الله .

أما المنافقون فيشبه بعضهم بعضا فى الشكوك والذبذبة وما يتبعها من الجبن والبخل ، وهما يمنعان من التناصر ببذل النفس والمال ، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام وما لا يشق من الأعمال ، ومن ثم أكذب الله منافقى المدينة فى وعدهم لليهود حلفائهم بنصرهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاتلوهم فى قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ» .

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) وصف الله المؤمنين بصفات خمس تضاد مثلها فى المنافقين .

(ا) إنهم يأمرون بالمعروف والمنافقون يأمرون بالمنكر .

(ب) إنهم ينهون عن المنكر والمنافقون ينهون عن المعروف ، وهاتان الخصلتان هما سياج الفضائل ومنع فشو الرذائل .

(حـ) إنهم يؤدون الصلاة على أقوم وجه وأكمله بخشوع وإخبات لله وحضور القلب فى مناجاته ، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم كسالى يراءون الناس .

(ء) إنهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم وما وفقوا له من التطوع ، والمنافقون يقبضون أيديهم ، والمنافقون وإن كانوا يصلون ، لم يكونوا يقيمون الصلاة ، وكانوا يزكون وينفقون ولكن خوفا أو رياء لا طاعة لله تعالى كما قال سبحانه: «وَمَا مَنَعَهُمْ

أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَيُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

(هـ) إنهم يستمرون على الطاعة بترك مانهوا عنه وفعل ماأمروا به بقدر الطاقة ، و بضد ذلك المنافقون فإنهم فاسقون خارجون عن حظيرة الطاعة كما تقدم .

ثم ذكر مايكون لهم من حسن العاقبة وعظيم الجزاء على جميل أعمالهم فقال :

(أولئك سيرحمهم الله) أى إنه تعالى يتعهدهم برحمته فى الدنيا والآخرة باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله ، ويقابل هذا نسيانه تعالى للمنافقين ولعنه إياهم .

(إن الله عزيز حكيم) أى إنه تعالى عزيز لايمتنع عليه شىء من وعده ولا وعيده ، حكيم لايضع شيئا منهما فى غير موضعه .

و بعد أن بيّن صفاته ورحمتــه لهم إجمالا ــ بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلا فقال :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن) الجنات : البساتين الملتفة الأشجار التى تجنّ ماتحتها أى تغطيه وتستره ، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها ، والمساكن الطيبة فى جنات عدن هى الدور والخيام التى يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينــة التى بها تتم راحة المقيم فيها وسروره ، والعدن : الإقامة والاستقرار ، يقال عدن فى مكان كذا إذا أقام فيه وثبت ، فجنات عدن هى جنات الإقامة والخلود كقوله : « جَنَّةُ الْخُلْدِ ــ جَنَّةُ الْمَأْوَى » وقيل إنه منزل من منازل دار النعيم كالفردوس الذى هو أوسط الجنة أو أعلاها .

روى عن أبى هريرة « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » .

(ورضوان من الله أكبر) رضوان الله هو مقام رؤيته تعالى التى تكمل بها معرفته

والإنسان جسد وروح ، ففى الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسمانى ، ورضوان الله هو أعلى النعيم الروحانى .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الوعد بالنعيم الجسمانى والروحانى هو الفوز العظيم الذى يُجْزَى به المؤمنون المخلصون ، لا غيره من حظوظ الدنيا الفانية التى يتكالب عليها الكفار والمنافقون .

وقد ورد فى وصف الجنة ودرجاتها أحاديث بعضها موضوع ، و بعضها منكر ، ومن ذلك ماروى عن أبى هريرة وعمران بن حصين أنهما قالا لمن سألهما : على الخبير سقطت ، وأنهما سألا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرا وصفا طويلا، منه أنه يوجد هناك ألوف من البيوت فى كل منها ألوف من الحور العين ، وهو حديث منكر من دسائس الوضاعين ككعب الأحبار وغيره . قال ابن القيم : لم يثبت فى نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجين لكل رجل .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) .

شرح المفردات

الجهاد ، والمجاهدة : استفراغ الجهد والوسع فى مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر . مجاهدة الشيطان . مجاهدة النفس والهوى ، و يشير إلى هذه

كلها قوله تعالى : « وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ـ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » وقال «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » والجهاد باللسان : إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد : الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية ، والغلظة : الخشونة والشدة فى المعاملة ، وهى ضد اللين . ونقم منه الشىء : أنكره وعابه عليه .

المعنى الجملى

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب وأرفع الدرجات ـ أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهرين بكفرهم إذا هم استرسلوا فى إظهار ما ينافى الإسلام من الأقوال والأفعال كالقول الذى قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم فى إنكارهم .

وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلون بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك مما سيذكر بعد .

الإيضاح

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) أى ابذل أيها النبى جهدك فى مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانَيْك بمثل ما يبذلان من جهد فى عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التى توافق سوء حالهما .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه . وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان كفار اليهود يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم حتى بتحريف السلام عليه بقولهم (السام عليكم) ، والسام الموت فيقول : (وعليكم) ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره ، وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر ، فجرأهم هذا على أذاه بنحو قولهم (هو أذن) فأمره الله فى هذه الآية بالغلظة على الفريقين فى جهاده التأديبى لهم ، لأن أمثالهم لاعلاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضرّ كوضع السيف فى موضع الندى

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمته ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته فى قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل واجتناب الظلم، وأثر عن عمر أنه قال : (أذلوهم ولا تظلموهم) .

وفى هذه الغلظة تربية للمنافقين وعقوبة لهم يرجى أن تكون سببا فى هداية من لم يطبع الكفر على قلبه وتحط به خطايا نفاقه ، فتقطيب وجهه صلى الله عليه وسلم فى وجوههم تحقير لهم يتبعه فيه المؤمنون ، ومن ير أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضق صدره ، ويحاسب نفسه ويثب إلى رشده ويتب إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين و إسلام ألوف الألوف من الكافرين .

(ومأواهم جهنم و بئس المصير) أى لامأوى لهم يلجئون إليه إلا دار العذاب التى لايموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، و بئس المصير هى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

والخلاصة — إنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة ، وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار ، وهى أنهم أظهروا الكفر بالقول وهموا بشرّ مايغرى به من الفعل ، وهوالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقد أظهره الله عليه وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم ويحلفون على إنكارهم ليصدقهم كدأبهم من قبل ، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » ويخوضون فى آيات الله وفى رسوله استهزاء خرجوا به من الإيمان الذى يدعونه إلى الكفر الذى يكتمونه فقال :

(يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا) أى يحلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التى نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لاينبغى ذكرها ، ولئلا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا الآية » .

أما همّهم بمالم ينالوا فهو اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة منصرفه من تبوك - ذاك أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المنافقين فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم فقال : من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادى فإنه أوسع لكم . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة ، وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد

غشوه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه مِحْجَن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظُهِر عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أدركه قال : « اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار وراءها ، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحدا ؟ » قال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان ، وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا ؟ » قالوا : لا والله يارسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى حتى إذا طلعت فى العقبة طرحونى منها » قالوا : أو لاتأمر بهم يا رسول الله إذاً فنضرب أعناقهم ؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه » فسماهم لهما وقال : « اكتماهم » .

والصحيح فى عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى أمتى اثنا عشر منافقا لايدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ (خرّاج ودُمّل كبير تظهر فى الجوف تقتل صاحبها كثيرا) سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » أى كأنه سراج من النار .

(وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضـــله) أى وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام و بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، شيئا يقتضى الكراهة والهمّ بالانتقام — إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التى هى عندهم أحب الأشياء لديهم فى هذه الحياة ، وكانوا كسائر الأنصار فقراء فأغناهم

الله ببعثة الرسول ونصره وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم للأنصار « كنتم عالة فأغناكم الله بى » .

(فإن يتوبوا يك خيرا لهم) أى فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوى الأقوال والأفعال ، يكن ذلك المتاب خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والعمل لما فيه السعادة فى الآخرة ، ومعاشرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومشاهدة فضائله وأخوّة المؤمنين بعضهم لبعض وما فيها من الود والوفاء الكامل والإيثار على النفس إلى نحو ذلك .

وأما فى الآخرة فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والمساكن الطيبة .

(و إن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة) أى و إن أعرضوا عما دعوا إليه من التوبة وأصروا على النفاق وما ينشأ منه من المساوى الخلقية والنفسية ـ يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع كما قال سبحانه « لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . وقال : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » فهم فى جزع دائم وهمّ ملازم .

وأما فى الآخرة فحسبك ماتقدم من وعيدهم بتلك النار التى تطلع على الأفئدة .

(وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير) أى وما لهم فى الأرض كلها من يتولى أمورهم ولا من ينصرهم ويدافع عنهم ، إذ من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجيره .

أما فى الدنيا فأغلقت فى وجوههم الأبواب ، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصرة بالمؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات ، وقد قضى الإسلام على جوار الجاهلية وعلى أحلافهم من أهل الكتاب فى الحجاز بالقتل والجلاء .

وأما فى الآخرة فقد تظاهرت النصوص على أنه لاولىّ ولا ظهير للكفار والمنافقين .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) .

المعنى الجملي

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين أغناهم الله بعد فقر وإملاق ، وقد كانوا يلجئون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم وكفروا النعمة وهضموا حقوق الخلق - ومثل هؤلاء يوجدون فى كل زمان ومكان .

الإيضاح

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين) أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ما لا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله كإعداد العُدة للجهاد وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

(فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) أى فلما رزقهم الله وأعطاهم ما طلبوا - بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن

ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بحافز نفسىّ ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق ، بحيث إذا ذكّروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دعوا لا يستجيبون .

(فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلى :

أودى بنىّ وأعقبونى حسرة   بعد الرقاد وعبرة لا تُقلع

أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقا فى قلوبهم متمكنا منها وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة لأنه لارجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين ـ إخلاف الوعد والكذب فقال :

(بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) أى إن سنة الله فى البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقوّيه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخا فى النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفوسهم خلف الوعد واستمرار الكذب ـ مكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ومنهم من عاهد الله) الآية : أن رجلا من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلسا فأشهدهم قال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه وتصدقت وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله فآتاه من فضله ، فأخلف ماوعده ، فأغضب اللهَ بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن اهـ .

(ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول ـ أن الله يعلم السر الكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به

ممن هو مشارك لهم فى النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) .

شرح المفردات

لمزه : عابه ، والمطّوّع : أى المتطوع ، وهو من يؤدى مايزيد على الفريضة ، والصدقات : واحدها صدقة ، والجهد (بالضم والفتح) الطاقة : وهى أقصى مايستطيعه الإنسان ، وسخر منه : استهزأ به احتقارا .

المعنى الجملى

بعدأن ذكر سبحانه بُخل المنافقين وشحهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله ـ أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا فى جُرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين وذمهم فى صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعد لهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم لرسوخهم فى الكفر بالله ورسوله وعدم الرجاء فى إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة

كنا نتحامل (يحمل بعضنا لبعض بالأجر) فجاء أبو عقيل (اسمه الحبحاح) بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياء . فنزلت (الذين يلمزون) الآية .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فى غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال يارسول الله : مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها فقال « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بمائة وسق (ثلثمائة وعشرين رطلا) من تمر ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، الحديث .

الإيضاح

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين و يعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان ، و يذمونهم فى أكمل فضائلهم و يقولون ما فعلوها لوجه الله و إنما فعلوها رئاء الناس .

فلمزهم هنا فى مقدارها وصفة أدائها لافيها نفسها ، واللمز هناك فى قسمتها ، وقد جاء فى بعض الروايات « أن النبى صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة ، وجاء عثمان بصدقة عظيمة وكثير من أصحابه بصدقات ، فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه» .

(والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) أى و يلمزون الذين لايجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقارا لما جاءوا به وعدّا له من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر و إن كانوا داخلين فى المتطوعين ، لأن مجال لمزهم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء عند المؤمنين .

(سخر الله منهم) أى فجازاهم الله بمثل ذنبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ببيان مخازيهم وعيوبهم .

(ولهم عذاب أليم) تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .

ثم بين سبحانه عقابهم وسوّاهم بالكافرين فقال :

(استغفرلهم أو لاتستغفرلهم ، إن تستغفرلهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) أى إن تدعُ لهؤلاء المنافقين وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها وترك فضيحتهم بها أو لاتدع فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة .

ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول « اللهم اغفرلقومى فإنهم لايعلمون » رواه ابن ماجه .

(ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) أى ومن أجل جحودهم وحدانية الله وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسر والنجوى وسائر الغيوب ، وجحودهم وحيه لرسوله صلى الله عليه وسلم وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعثه للموتى وجزاءهم على أعمالهم ـ لم يعف عن ذنوبهم ولاعما دسّوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى .

(والله لايهدى القوم الفاسقين) أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على فسوقهم وتمردوا فى نفاقهم وأحاطت بهم خطاياهم ـ أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سبيلا .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) .

شرح المفردات

الفرح : الشعور بارتياح النفس وسرورها ، والخلاف والمخالفة بمعنى ، ويستعمل خلافه بمعنى بعده ، يقال جلست خلاف فلان وخلفه : أى بعده ، ومنه : « وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً » والمخلّفون من خلّف فلانا : أى تركه خلفه ، ويفقهون : أى يعقلون ، والخالف : المتخلف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعض سوءات المنافقين من اعتذارهم للمؤمنين عن الخروج معهم للقتال ولَمْزهم فى قسمة الصدقات وفى إعطائها ، عاد إلى الكلام فى ذكر حال الذين تخلفوا عن القتال فى غزوة تبوك وظلّوا فى المدينة ، وبيان مايجب من معاملة هؤلاء بعد الرجوع إليها ، وقد نزل ذلك أثناء السفر .

الإيضاح

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) أى فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى غزوة تبوك بقعودهم فى بيوتهم مخالفين الله ورسوله ، وإنما فرحوا بذلك لأنهم لايؤمنون بما فى الخروج معه من أجر عظيم لاتذكر معه راحة القعود فى البيوت شيئا .

(وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى وقالوا لإخوانهم فى النفاق إغراء لهم بالثبات على المنكر وتثبيطا لعزائم المؤمنين : لاتنفروا فى الحر ، قل لهم أيها الرسول مفندًا آراءهم ومسفها أحلامهم : نار جهنم التى أعدها الله لمن عصاه وعصى رسوله أشد حرا من تلك الأيام فى أوائل فصل الخريف ، إذ هذا الحر مما تحتمله الجسوم ولايلبث أن يخف و يزول ، ونارجهنم حرها شديد دائم يلفح الوجوه و ينضج الجلود ،فهم لوكانوا يعقلون ذلك و يعتبرون به لماخالفوا وقعدوا ولمافرحوا بقعودهم بل لحزنواو بكوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا .

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون) أى إن الأجدر بهم على حسب ماتقتضيه حالهم وتستوجبه جريمتهم أن يضحكوا قليلا و يبكوا كثيرا لو كانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف من أجر ، وما سيحملونه فى الآخرة من وزر ، وما يلاقونه فى الدنيا من خزى وضرّ ، جزاء لهم على ما اجترحوا من العصيان ، وارتكبوا من الإثم والبهتان ، وكما يدين الفتى يدان .

ونحو الآية قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : يظهر النفاق ، وترتفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، و يتهم الأمين ، و يؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشُّرُف الجون ـ الشرف بضمتين جمع أشارف وهى الناقة الكبيرة السن ، والجون السود ـ الفتن كأمثال الليل المظلم » .

ثم بين ما يجب أن يعاملوا به فى الدنيا قبل الآخرة مما يقتضى تركهم للفرح والغبطة فى دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام فقال :

(فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) أى فإن ردك الله من سفرك هذا إلى طائفة من المنافقين المتخلفين ، فاستأذنوك ليخرجوا معك فى غزاة أو غيرها مما تخرج لأجله ، فقل لهم : لن تخرجوا معى أبدا ولن يكون لكم أبدا شرف الصحبة بالخروج معى للجهاد

فى سبيل الله ما دمت ودمتم ، ولن تقاتلوا معى عدوا لابالخروج والسفر إليهم ولابغير ذلك كأن يهاجم المؤمنون فى عقر دراهم كما حدث يوم وقعة الأحزاب .

ثم بين سبب النهى عن صحبتهم فقال :

(إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) أى إنكم رضيتم لأنفسكم بخزى القعود أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج ، إذ طلب إليكم أن تنفروا فلم تنفروا وعصيتم الله ورسوله ، فاقعدوا أبدا مع الذين تخلفوا عن النفر من الأشرار المفسدين الذين خرجوا عن سبيل المهتدين ، وربما كان المراد بالخالفين الصبيان والعجزة والنساء الذين لايكلفون القيام بشرف الجهاد دفاعا عن الحق وإعلاء لكلمة الله .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بإهانة المنافقين وإذلالهم بمنعهم من الخروج معه إلى الغزوات ـ قفى على ذلك بذكر إهانة أخرى لهم وهى منع الرسول أن يصلى على من مات منهم بعد إعلامه بحقيقة أمرهم ، وفى مقدمتهم زعيمهم الأكبر عبد الله بن أبىّ والاثنا عشر الذين أرادوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ولاتصلّ على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) أى لاتصل أيها الرسول بعد الآن على أحد من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك ، ولاتتولّ دفنه والدعاء له بالتثبيت كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم .

روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» .

ثم بين سبب نهيه عن الصلاة عليهم فقال :

(إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) أى لأنهم كفروا وماتوا وهم خارجون من حظيرة الإسلام مفارقون أمر الله ونهيه .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفى عبد الله بن أبىّ : دعى رسول الله للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبىّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر أخر عنى » إنى قد خيّرت : قد قيل لى «استغفر لهم أو لاتستغفرلهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم - فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ثم صلى عليه ومشى معه حتى قام على قبره إلى أن فرغ منه . فعجبت لى ولجراءتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان « ولاتصلّ على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره » فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وقد حكم كثير من العلماء كالقاضى أبى بكر الباقلانى و إمام الحرمين والغزالى وغيرهم بعدم صحة هذا الحديث لمخالفته للآية من وجوه :

(١) جعل الصلاة على ابن أبىّ سببا لنزول الآية ، وسياق القرآن صريح فى أنها نزلت فى سفر غزوة تبوك سنة ثمان ، وابن أبىّ مات فى السنة التى بعدها .

(٢) قول عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : وقد نهاك ربك أن تصلى عليه - يدل على أن النهى عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبى - وقوله بعده - فصلى عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ولاتصلّ على أحد منهم) الآية ـ صريح فى أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

(٣) قوله إنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خيره فى الاستغفار لهم وعدمه ـ إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كالحديث ولم يكن فيها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم ، فأو فيها للتسوية لا للتخيير .

وهناك روايات أخرى فى الصلاة على ابن أبيّ من طريق ابن عمر ومن طريق جابر .

وإنما ذكرنا هذا الحديث مع ما علمت من رأى أئمة الحديث فيه وحكمهم بأنه لايقبل لما ذكروا من الأسباب ـ لأنه قلّما يخلو تفسير من ذكره ، وقل أن تجد من يشير إلى شىء مما يدل على ضعفه واضطرابه لمخالفته لظاهر الآية ، فرأينا أن نجعلك على بينة من أمره إذا أنت قرأته .

ثم أكد ما تقدم من النهى عن الاغترار بالأموال والأولاد ؛ لأن الأمر جد يحتاج إلى التوكيد ؛ إذ هما أعظم الأشياء جذبا للقلوب وجلبا للخواطر للاشتغال بالدنيا ، فيجب التحذير منهما مرة بعد أخرى فقال :

(ولاتعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) قد جاء مثل هذا النص فيما سبق إلا أن زيادة (لا) فى الآية السابقة للنهى عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على حدته ، وهو شامل لمن كانت له إحدى المزيتين أو كلاهما ، والنهى فى هذه الآية عن الإعجاب بهم مجتمعين وهذا أدعى إلى الإعجاب بهما .

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩).

شرح المفردات

الطول (بالفتح) : الغنى والثروة ، وقد يراد به الفضل والمنة ، وذرنا : أى دعنا واتركنا ، والخوالف : واحدها خالفة ومثله خالف، وهو من لا خير فيه ولاغناء عنده، والطبع على القلوب : الختم عليها وعدم قبولها لشىء جديد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المنافقين عملوا الحيل والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وللقعود عن الغزو ـ قفى على ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول استأذن أولو الثروة والقدرة منهم فى التخلف عن الغزو وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنا نكن مع الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال .

الإيضاح

(وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) أى إنه كلما أنزلت سورة تدعو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم ـ استأذنك أولو المقدرة على الجهاد المفروض عليهم بأموالهم وأنفسهم ـ فى التخلف عن الجهاد وقالوا : دعنا نكن مع القاعدين فى بيوتهم من الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال والصبيان والنساء غير المخاطبين به .

ونحو الآية قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ؟ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .

وفى هذا تصريح بجبنهم ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان .

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء اللواتى ليس عليهن فرض الجهاد ، وهـذا منتهى الجبن وتعافه النفس الكريمة التى لاترضى بالمذلة .

ثم بين العلة فى قبولهم هذا الذل فقال :

(وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) أى إن الله قد ختم على قلوبهم فلا تقبل جديدا من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها وصار وصفا لازما لها ، لأن النفاق قد أثر فيها على حسب سنة الله فى الارتباط بين العقائد والأعمال ، فهم لايفهمون ما أمروا به فهم تدبر واعتبار فيعملوا به .

(لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ولكن الرسول والذين آمنوا به وكانوا معه فى كل المهامّ الدينية لايفارقونه ـ جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وقاموا بالواجب خير قيام عملا بداعى الإيمان وأمر الله فى القرآن .

(وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) أى وأولئك المجاهدون فى سبيل الله لهم الخيرات التى هى ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر ومحو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل والتمتع بالمغانم والسيادة فى الأرض ، دون المنافقين الجبناء الذين ألفوا الذلة والهوان ولم يكونوا أهلا للقيام بهذه الأعباء ، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة دون المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم بما له من الأثر فى أخلاقهم وأعمالهم .

(أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) تقدم شرح هذا فى آيات سابقة .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) .

شرح المفردات

المعذّر : من عذّر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ وهو يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له ، وقد يكون أصله المعتذرون من اعتذر ، والمعتذر إما صادق أو كاذب ، والأعراب : هم سكان البدو ، وكذبوا الله ورسوله : أى أظهروا الإيمان بهما كذبا ، يقال : كذبته نفسه إذا حدثته بالأمانى والأوهام التى لا يبلغها ، وكذبته عينه إذا أرته ما لا حقيقة له .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال منافقى الحضر فى المدينة ـ أردف ذلك بذكر حال الأعراب من البدو الذين طلبوا الإذن بالتخلف والذين تخلفوا بغير إذن .

الإيضاح

(وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم) أى وجاء الذين يطلبون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى التخلف عن الخروج إلى تبوك امتثالا للنفير العام من أولى التعذير.

قال الضحاك : هم رهط عامر بن الطُّفَيل جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا نبى الله : إنا إن غزونا معك أغارت طيء على نسائنا وأولادنا وأنعامنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم .

واختلفت الروايات بين قائل بصدقهم فى الاعتذار ، وقائل بكذبهم فيه ، وظاهر كلام ابن عباس أنهم صادقون فى اعتذارهم ، وعليه يكون المراد بالذين كذبوا الله ورسوله جماعة غيرهم من المنافقين .

(وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد عن القتال وعن المجىء للاعتذار الذين أظهروا الإيمان بهما كذبا و إيهاما على غير اعتقاد صادق ، قال أبو عمرو بن العلاء : كان كلا الفريقين مسيئا ، قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله بقوله : (وجاء المعذرون) وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى ، فأوعد المكذبين و بعض المعتذرين بقوله :

(سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين الذين فى قلوبهم مرض ــ عذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَعَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ ، مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلاَعَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَأَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعذرين والذين كذبوا الله ورسوله ، وذكر وعيدهم على سوء صنيعهم ــ قفى على ذلك بذكر أصناف ثلاثة أعذارها مقبولة ، ثم أردف هذا بذكر شر الأعذار وهو استئذان الأغنياء .

الإيضاح

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) أى إن التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة :

(١) الضعفاء وهم من لا قوة لهم فى أبدانهم تمكنهم من الجهاد كالشيوخ والعجزة والنساء والصبيان وذوى العاهات التى لا تزول كالكساح والعمى والعرج .

(٢) المرضى وهم من عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد ، وعذرهم ينتهى إذا شفوا منها .

(٣) الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا ما خرجوا ، ولا ما يكفى عيالهم .

وقد كان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال ، فالفقير ينفق على نفسه ، والغنى ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته كما فعلوا فى غزوة تبوك .

والخلاصة — إن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم : أى لا ضيق عليهم ولا إثم فى قعودهم عن الجهاد الواجب على شرط أن ينصحوا لله ورسوله : أى يخلصوا لله فى الإيمان وللرسول فى الطاعة بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية ولا سيما المجاهدين منها من كتمان السر والحث على البر ومقاومة الخائنين فى السر والجهر .

روى مسلم عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة — قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وروى البخارى ومسلم عن جابر قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

(ما على المحسنين من سبيل) السبيل : الطريق ، أى ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم ، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم .

وقد جاء هذا الأسلوب كثيرا فى الكتاب الكريم ، وهو عام فى كل من

أحسن عملا من أعمال البر والتقوى كما قال تعالى : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » .

وقد تفضل الشارع الحكيم فجازى المحسن بأضعاف إحسانه ولم يؤاخذ المسىء إلا بقدر إساءته .

والخلاصة — إن كل ناصح لله ورسوله فهو محسن ، ولاسبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه فى الحرج .

ثم قفى ذلك بذكر الصفح عنهم والتجاوز عن سيئاتهم فقال :

(والله غفور رحيم) أى وهو سبحانه كثير المغفرة واسع الرحمة يستر على المقصرين ضعفهم فى أداء الواجبات ما داموا مخلصين النصح لله ورسوله ، ويدخلهم فى زمرة الصالحين من عباده .

أما المنافقون المسيئون فلا يغفر لهم ولايرحمهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن النفاق الذى كان سببا فى ارتكاب هذه الآثام .

(ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) يقال حمله على البعير أو غيره أركبه إياه أو أعطاه إياه ليركبه ، وكأنّ الطالب لظهر يركبه يقول لمن يطلب منه احملنى .

أى لاحرج على من ذكروا أولا ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك ، فلم تجد ما تحملهم عليه ، وهؤلاء وإن دخلوا فى عموم الذين لايجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل ـ قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم قسم مستقل .

(تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألايجدوا ما ينفقون) أى انصرفوا من مجلسك وهم يبكون بكاء شديدا يصحبه حزن عميق ، فكانت أعينهم تمتلئ دمعا يتدفق من جوانبها حزنا وأسفا على أنهم لايجدون ما ينفقون ولامايركبون فى خروجهم معك للجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مُغْفِل المزنى فقالوا يا رسول الله احملنا فقال : (والله لاأجد ما أحملكم عليه) فأنزل الله (ولاعلى الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية ، وكانوا يسمون البكائين .

وفى رواية أنهم ما سألوه إلا الحملان على البغال ، وفى رواية أنهم سألوه الزاد والماء ، ولامانع من وقوع كل هذا فى هذه الغزوة الكبيرة ، ولكن الذين فى الآية هم طلاب الرواحل .

وعدم وجود مايحملون عليه يدخل فيه مراكب النقل البرية والبحرية والهوائية فى هذا العصر ، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها فى كل سفر على حسبه ، ويفقد العذر بوجوده .

ولما بين من لاسبيل عليهم فى تلك الحال ـ ذكر من عليهم السبيل فقال :

(إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء) أى إنما الطريق الموصل للمؤاخذة والمعاقبة بالحق على من يطلبون الإذن فى القعود عن الجهاد والتخلف عن الغزو وهم أغنياء يستطيعون إعداد العدة من زاد وراحلة ونحو ذلك .

ثم ذكر السبب فى استحقاقهم المؤاخذة فقال :

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف والخالفين من النساء والأطفال والمعذرين من المفسدين .

(وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون) أى وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم على حسب سنن الله فى أمثالهم ، فهم لايعلمون حقيقة أمرهم ولاسوء عاقبتهم ، وما هو سبب ذلك من أعمالهم ، فهم قد رضوا بالمهانة فى الدنيا بانتظامهم فى سلك النساء والأطفال ـ إلى أن تخلف الأفراد عن القتال الذى تسعى إليه الشعوب والأمم يعد من مظاهر الخزى والعار ، وقد جعله الدين من أقوى آيات الكفر والنفاق .

وأما سوء عاقبتهم فيكفى فيه فضيحتهم فى هذه السورة كفاء إحجامهم عن الجهاد فى سبيله ، وما أعده لهم من العذاب العظيم والخزى والنكال فى نار الجحيم .

اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا لدى هول الموقف والحساب ، واجعلنا ممن أخلصوا العمل فى السر والنجوى ، واحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وله الحمد أولا وآخرا .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	الغنيمة . الفىء . النفل .
٥	الحكمة فى تقسيم الخمس .
٩	الثبات قوة معنوية .
١٠	التنازع مدعاة الفشل .
١٣	الملائكة يلهمون المؤمنين ما يثبت قلوبهم .
١٧	الله لا يحابى بعض الشعوب بنسبها وفضل أجدادها .
١٨	عقاب الله جارٍ على سننه المطردة فيها .
٢١	استعمال القسوة مع ناقضى العهود لابد منه للعظة والاعتبار .
٢٤	الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله .
٢٥	الاستعداد للحرب يمنع الحرب .
٢٨	التآلف من أقوى وسائل التعاون والتناصر .
٣٠	حث المؤمنين على القتال .
٣٢	من سنن الله أن يكون الغلب للصابرين .
٣٤	عتاب الله لنبيه على أخذ الفداء يوم بدر .
٣٨	أخذ الفداء من عمه العباس يوم بدر .
٤٠	ترغيب الأسرى فى الإيمان و إنذارهم عاقبة الخيانة .
٤٣	امتازت الشريعة الإسلامية بحفظ العهود والمواثيق .
٥٣	أمر الله نبيه بنبذ عهود المشركين .

الصفحة	المبحث
٥٥	الوفاء بالعهود من فرائض الإسلام .
٦٧	الأمر بقتال المشركين لأسباب ثلاثة .
٧٥	ما ورد فى عمارة المساجد .
٨٠	الأمور الداعية إلى مخالفة الكفار .
٨٥	محبة الله ورسوله .
٨٦	بعوث النبى صلى الله عليه وسلم وسراياه .
٩٠	بلاد الإسلام فى حق الكفار أقسام ثلاثة .
٩٣	الأمور التى دعت إلى قتال المشركين .
٩٨	من عزير؟
١٠٠	عقيدة التثليث .
١٠٥	حديث بين عدى بن حاتم والنبى صلى الله عليه وسلم .
١٠٨	أكل أموال الناس بالباطل على صور
١١٠	كل مال أديت زكاته فليس بكنز .
١١٤	ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض .
١١٦	إنما النسىء زيادة فى الكفر .
١١٨	غزوة تبوك .
١١٩	أسباب تثاقلهم عن القتال فى غزوة العسرة .
١٢٢	إنزال الملائكة مدد للمؤمنين يوم بدر .
١٢٤	الأمر بجهاد الأعداء بالأموال والأنفس .
١٢٦	عتاب الرسول فى إذنه لمن تخلف من المنافقين فى غزوة تبوك .
١٢٨	ليس من شأن المؤمن أن يستأذن الرسول فى أمر الجهاد بالأنفس والأموال .
١٣٠	المفاسد التى تنجم من وجود المنافقين فى الجيش .

الصفحة	البحث
١٣٢	من تربية الله لرسوله أن يبين الحقائق بعد اجتهاده .
١٣٤	كان المنافقون يُشِيعُون قالة السوء عن الرسول والمؤمنين .
١٣٥	التوكل على الله حقا يقوم بما أوجبه عليه فى شرعه .
١٣٧	أوصاف المنافقين .
١٤٠	لمزهم للنبى صلى الله عليه وسلم فى قسمته الصدقات .
١٤٢	مصارف الزكاة .
١٤٧	كان المنافقون يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم و يقولون هو أذن .
١٤٨	إيذاء الرسول فى شأن الرسالة كفر وفى غيرها حرام .
١٥٠	من يحاد الله ورسوله فله نار جهنم خالدا فيها أبدا .
١٥٢	كانوا يستهزئون بالله ورسوله و يقولون إنا كنا لاعبين هازلين .
١٥٩	أقسام الولاية .
١٦٣	المنافقون يعاملون بأحكام الشريعة كالمؤمنين الصادقين .
١٦٤	طلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم الغلظة فى معاملة الكفار والمنافقين تربية لهم وعبرة لغيرهم .
١٦٥	همُّ المنافقين باغتيال الرسول عند منصرفه من تبوك .
١٦٨	من المنافقين من عاهد الله لئن أيسر ليتصدق ثم أخلف .
١٧١	حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فى غزوة تبوك .
١٧٦	ماصلى رسول الله على منافق بعد ابن أبيّ .
١٨٠	استئذان المعذرين من الأعراب .
١٨٢	لاحرج على الضعفاء ولاعلى المرضى فى القعود عن القتال .

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الحادي عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الحادي عشر

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ
تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)
سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ
لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ (٩٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الغيب : ماغاب عنك علمه ، والشهادة : ماتشهده وتعرفه ، الانقلاب: الرجوع،
رجس : أى قذر يجب الإعراض عنه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه من يستحقون اللوم والمؤاخذة من المعذرين ، ومن لاسبيل إلى مؤاخذتهم وعدم الحرج عليهم - ذكر فى هذه الآيات ماسيكون من أمر المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة وما حولها عن غزوة تبوك مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودتهم .

الإيضاح

(يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم) أى سيعتذر إليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهم أغنياء أصحاء لاعذر لهم عن التخلف عن الغزو وغيره من سيئاتهم عند رجوعكم من السفر .

(قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم) أى قل لهم أيها الرسول لاتعتذروا إنا لن نصدقكم فى معاذيركم أبدا ولن نطمئن إليكم .

ثم بين السبب فى عدم تصديقهم فقال :

(قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أنبأنا الله بوحيه إلى رسوله بعض أخباركم التى تسرونها فى ضمائركم وهى مخالفة لظواهركم التى تعتذرون بها ، ونبأ الله هو الحق الذى لاشك فيه ، ومن عرف الحق لايقبل الباطل ولا يصدق الكاذب .

وإنما قال نبأنا ولم يقل نبأنى إيماء إلى أنه أمره أن ينبئ بذلك أصحابه ولم يكن هذا النبأ خاصا به ، كما أن اعتذارهم للجميع يقتضى أن يكونوا كلهم عالمين بما فضحهم الله به ، وفى هذا من التشهير بهم والخزى لهم مالاخفاء فيه .

(وسيرى الله عملكم ورسوله) أى وسيرى الله عملكم ورسوله فيما بعد ، وهو الذى سيدل إما على إصراركم على النفاق أو على التوبة والإنابة إلى ربكم ، وأما أقوالكم فلا يعتد بها مهما وكدتموها بالأيمان ، فإن أنتم تبتم وأنبتم إلى ربكم وشهد لكم عملكم بصلاح طويتكم ، فإن الله يتقبل منكم توبتكم ، ويغفر لكم حوبتكم ، ويعاملكم

الرسول بما يعامل به المؤمنين الذين أخلصوا وصدقوا وشهدت لهم أعمالهم بذلك ، وإن أنتم أبيتم إلا الإصرار على النفاق وإلا الاعتماد على رواج سوق الكذب بتلك الأيمان التى تحلفونها فسيعاملكم الرسول بما أمره الله به من جهادكم والإغلاظ عليكم كإخوانكم الكفار المجاهرين .

وفى هذا إيماء إلى الرغبة فى توبتهم حين سنوح الفرصة .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم تردون يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم ماتكتمون وما تظهرون ، فينبئكم حينئذ بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه بما تستحقون وهو ما أوعدكم به فى كتابه الكريم فى هذه السورة وفى غيرها « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » .

وفى الآية إيماء إلى أنه ينبغى تحامى كل مايعتذر منه من ذنب أوتقصير، وقد ورد فى الحديث « إياك وما يعتذر منه » .

ثم أكد ماسبق من نفاقهم بقوله :

(سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم) أى سيؤكدون لكم اعتذارهم بما يحلفون به من كاذب الأيمان إذا انقلبتم من سفركم ورجعتم إليهم لتعرضوا عن العتب عليهم والتوبيخ على قعودهم مع الخالفين من العجزة والنساء والأطفال وعلى البخل بالنفقة والمال .

(فأعرضوا عنهم) أى فأعرضوا عنهم إعراض الإهانة والتحقير ، لا إعراض الصفح وقبول العذر . روى مقاتل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين قدم المدينة « لاتجالسوهم ولا تكلموهم » .

ثم علل هذا بقوله :

(إنهم رجس) أى إن فى نفوسهم قذرا معنويا يجب الاحتراس منه خوف سريان عدواه ، وميل النفوس إليه كما يحترز صاحب الثوب النظيف من الأقذار الحسية التى ربما تصيبه إذا لم يحتط لها .

(ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) أى وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء لهم بما كسبوا فى الدنيا من أعمال النفاق وغيرها مما دنس نفوسهم ، وزادهم رجسا على رجسهم .

ثم زاد فى تأكيد نفاقهم فقال :

(يحلفون لكم لترضوا عنهم) أى يحلفون لكم لتستديموا معاملتهم بظاهر إسلامهم ، وهذا أهمّ الأغراض لديهم فلا حظّ لهم من إظهار الإسلام سواه ، ولو كان إسلامهم عن يقين واعتقاد لكان غرضهم الأول إرضاء الله ورسوله .

(فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى فإن ترضوا عنهم كما أرادوا ، وساعدتموهم على ماطلبوا فإن رضاكم عنهم لا يجديهم نفعا ، فإن الله ساخط عليهم بسبب فسوقهم وخروجهم عن أمره ونهيه .

وفى هذا إيماء إلى نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة وأن من يرضى عنهم من المؤمنين يكون فاسقا مثلهم محروما من رضوان الله ، وأن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه ويدخل فى حظيرة مرضاته ولا يعدّ حينئذ فاسقا .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت فى الجدّ بن قيس ومعتّب بن قُشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة بألا يجالسوهم ولا يكلموهم . وقال قتادة : إنها نزلت فى عبد الله ابن أبىّ فإنه حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته ألا يتخلف عنه أبدا وطلب أن يرضى عنه فلم يفعل .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩)

شرح المفردات

الأعراب : اسم لبدو العرب ، واحده أعرابى والأنثى أعرابية ، والعرب اسم لهذا الجيل الذى ينطق بهذه اللغة بدوه وحضره : واحده عربى، والمغرم: الغرامة والخسران، من الغرام بمعنى الهلاك ، والدائرة : مايحيط بالشيء والمراد بها ما لامحيص منه من تصاريف الأيام ونوائبها التى تحيط شرورها بالناس ، والدائرة أيضا : النائبة والمصيبة ، والسوء : اسم لما يسوء ويضر ، والقربات : واحدها قربة ، وهى فى المنزلة والمكانة كالقرب فى المكان والقرابة فى الرحم ، والصلوات : واحدها صلاة، ويراد بها الدعاء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال العرب مؤمنيهم ومنافقيهم ، بين فى هذه الآيات الثلاث أحوال الأعراب مؤمنيهم ومنافقيهم كذلك .

الإيضاح

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله)
أى إن طبيعة البداوة اقتضت أمرين :

(١) إن كفارهم ومنافقيهم أشد كفرا ونفاقا من أمثالهم من أهل الحضر ، ولاسيما من يقيم منهم فى المدينة ، فهم أغلظ طباعا وأقسى قلوبا لأنهم يقضون جلّ أعمارهم فى رعى الأنعام وحمايتها من ضوارى الوحوش - إلى أنهم محرومون من العلوم الكسبية والآداب الاجتماعية .

(٢) إنهم أحق وأحرى من أهل الحضر بألا يعلموا حدود ما أنزل الله على

رسوله من الهدى والبينات فى كتابه وما آتاه من الحكمة التى بيّن بها تلك الحدود تارة بالقول وأخرى بالفعل .

وكان صحابته فى المدينة وما حولها يتلقون عنه الكتاب حين نزوله ويشهدون سنته فى العمل به ، ويرسل عمّاله إلى البلاد التى افتتحت يبلغون الناس القرآن ويحكمون به وبسنة رسوله المبيِّنة له ــ وكل هذا لم يكن مستطاعا لأهل البوادى ، ومن ثم كان الجهل فيهم أكثر لحال المعيشة البدوية .

روى أبو داود والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قربا ، إلا ازداد من الله بُعْدًا » ذاك أن السلاطين قلما يرضون عمن يصارحهم القول ويؤثرهم بالنصح ولا يزداد قربا منهم إلا المراءون الذين يعينونهم على الظلم ويثنون عليهم بالباطل .

(والله عليم حكيم) أى واسع العلم بشئون عباده وأحوالهم من إيمان وكفر وإخلاص ونفاق ، تامّ الحكمة فيما شرعه لهم ، وفى جزائهم من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم .

(ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما) أى ومن الأعراب ناس كانوا ينفقون أموالهم فى الجهاد رياء وتقيَّة ، ويعدون ذلك من المغارم التى يجب على المرء أداؤها طوعا أو كرها لدفع المكروه عن أنفسهم أو عن قومهم ولا منفعة لهم فيها لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة لأنهم لايؤمنون بالبعث، قال الضحاك : هم بنو أسد وغطفان .

(ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظرون أن تحل بكم نوائب الزمان وأحداثه التى تدور بالناس وتحيط بهم ، فتبدل قوتكم ضعفا وانتصاركم هزيمة ، فيستريحوا من أداء هذه المغارم لكم ، إذ يستغنون عن إظهار الإسلام نفاقا ، وقد كانوا يتوقعون ظهور المشركين واليهود على المؤمنين، فلما أعيتهم الحيل صاروا ينتظرون موت النبى صلى الله عليه وسلم ظنا منهم أن الإسلام يموت بموته .

(عليهم دائرة السوء) هذا دعاء عليهم بنحو مايتربصون به المؤمنين ، أى عليهم

وحدهم الدائرة السوء تحيط بهم دون المؤمنين الذين يتربصونها بهم، وليس للمؤمنين عاقبة إلا مايسرهم من نصر الله وتوفيقه لهم ، وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم فى الدنيا قبل الآخرة .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لما يقولونه مما يعبر عن شعورهم واعتقادهم فى نفقاتهم إذا تحدثوا بذلك فيما بينهم ، عليم بما يضمرونه من سرائرهم التى يخفونها ، وهو سيحاسبهم على مايسمع ويعلم من قول أو فعل وسيجزيهم به .

وبعد أن بيّن حال المنافقين من الأعراب ـ ذكر حال المؤمنين الصادقين منهم فقال :

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر) أى ومن الأعراب من يؤمن بالله ويثبت له القدرة وكمال التصرف فى الكون ، واليوم الآخر الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، قال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم « وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ » .

(ويتخذ ماينفق قربات عندالله وصلوات الرسول) أى يتخذ ماينفقه وسيلة لأمرين:

(١) القربات والزلفى عند الله تعالى جدّه .

(٢) صلوات الرسول أى أدعيته ، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يجئ فى نصوص الدين انتفاع أحد بعمل غيره إلا الدعاء، وما يكون المرء سببا فيه كالولد الصالح والسنة الحسنة يتبع فيها .

وسميت الصلوات الشرعية بهذا الاسم من قِبَل أن الدعاء (وهوالمعنى اللغوى لها) هو روحها ومخها وسرها الذى به تتحقق العبودية على أتمّ وجوهها .

وقد بين الله جزاءهم على ما انطوت عليه نفوسهم من صدق الإيمان وإخلاص النية فى الإنفاق فى سبيل الله فأخبر بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها فقال :

(ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن تلك النفقة التى اتخذت قد تقبلها الله وأثاب عليها بما وعد به فى قوله :

(سيدخلهم الله فى رحمته) أى سيرحمهم الله برحمته الخاصة بمن رضى عنهم ، وهى هدايتهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى جنات النعيم ، والمراد بإدخالهم فى الرحمة أن تكون محيطة بهم شاملة لهم وهم مغمورون فيها ، وهذا أبلغ فى إثباتها لهم من مثل قوله : « يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ » .

(إن الله غفور رحيم) أى إنه واسع المغفرة والرحمة لمن يخلصون فى أعمالهم ، فهو يغفر لهم مافرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى خير العمل وحسن المصير .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

شرح المفردات

رضى الله عنهم : أى قبل طاعتهم ، ورضوا عنه : أى بما أسبغ عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ومردوا : أى مرنوا وحذقوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فضائل الأعراب الذين يتخذون ماينفقون قربات – قفى على ذلك بذكر منازل أعلى من منازلهم ، وهى منازل السابقين من المهاجرين والأنصار

ثم ذكر بعدهم حال طائفة من المنافقين هى شر الجميع مرنت على النفاق وحذقت فنونه وحال طائفة أخرى بين المنزلتين خلطت سيء العمل بأحسنه ، وهؤلاء يرجى لهم التوبة والغفران من ربهم .

الإيضاح

(والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) ذكر الله فى هذه الآية ثلاث طبقات من الأمة هى خيرها :

(١) السابقون الأولون من المهاجرين ، وهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، وقد كان المشركون يضطهدون المؤمنين و يقاتلونهم فى دار الهجرة وما حولها ولا يمكّنون أحدا من الهجرة متى كان ذلك فى طاقتهم ، ولا منجاة للمؤمنين من شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا فى ذلك الحين كانوا من المؤمنين الصادقين ، وأفضل هؤلاء الخلفاء الأربعة ثم العشرة الذين بشرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة .

(٢) السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة فى منى فى المرة الأولى سنة إحدى عشرة من البعثة، وكانوا سبعة ، وفى المرة الثانية ، وكانوا سبعين رجلا وامرأتين .

(٣) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار فى الهجرة والنصرة حال كونهم محسنين فى أفعالهم وأقوالهم ، فإذا اتبعوهم فى ظاهر الإسلام كانوا منافقين مسيئين غير محسنين فى هذا الاتباع ، و إذا اتبعوهم محسنين فى بعض أعمالهم ومسيئين فى بعض كانوا مذنبين .

(رضى الله عنهم ورضوا عنه) أى هؤلاء جميعا رضى الله عنهم فى إيمانهم و إسلامهم ، فقبل طاعتهم وتجاوز عن زلاّتهم ، و بهم أعز الإسلام ونكل بأعدائه من المشركين وأهل الكتاب ، ورضوا عنه بما أسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية فأنقذهم من الشرك وهداهم من الضلال وأعزهم بعد الذل وأغناهم بعد الفقر .

(وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم) هذا الوعد الكريم تقدم فى آيات سابقة فى هذه السورة وغيرها ، ولا شك أن نعيم الجنة الخالد بين روحانى و بدنى فوز أيما فوز .

والخلاصة — إن هذه الطبقات الثلاث قد استبق أفرادها الصراط ، وشهد لهم ربهم بالمغفرة والتجاوز عن كل ذنب ، وما عاد يؤثر فى كمال إيمانهم شىء ، لأن نورهم يمحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنب .

و بعد أن بيّن كمال إيمان تلك الطبقات الثلاث ورضاه عنهم ـ بين حال منافقى أهل المدينة ومن حولها فقال :

(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) أى إن بعض الأعراب الذين حولكم منافقون .

قال البغوى والواحدى : هم من قبائل جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكانت منازلهم حول المدينة ، وذلك لايمنع أن يكون فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم ومدحهم ، فقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأشجع وغفار موالى الله تعالى ورسوله لاموالى لهم غيره » ، وعنه أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قال : «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إنى لم أقلها ، لكن قالها الله تعالى »

وكذلك من أهل المدينة نفسها ناس منافقون من الأوس والخزرج سوى من أعلم الله رسوله بهم فى هذه السورة بما صدر منهم من أقوال وأفعال تنافى الإيمان .

هؤلاء وهؤلاء مرنوا على النفاق وحذقوه حتى بلغوا الغاية فى إتقانه ، فلا يشعر أحد به إذ هم يتقون جميع الأمارات والشبه التى تدل عليه .

(لاتعلمهم نحن نعلمهم) أى لاتعرفهم أيها الرسول الكريم بفطنتك ودقيق فراستك لحذقهم فى التقية وتباعدهم عن مثار الشبهات ، بل نحن نعلمهم بأعيانهم ، وهؤلاء أخفى نفاقا ممن قال الله فيهم : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ

يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ . وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » .

وهؤلاء لم يعلمه الله أعيانهم ولافضحهم بأقوال قالوها ولا بأفعال فعلوها كما فضح غيرهم فى هذه السورة لأنهم يتحامون ما يكون شبهة فى إيمانهم ، وضررهم مقصور عليهم لايعدوهم إلى سواهم .

والحكمة فى إخبارنا بحالهم أن يعلموا هم أنفسهم أن الله عليم بما يسرون من نفاقهم ، ويحذروا أن يفضحهم الله كما فضح سواهم ، وليتوب منهم من يتوب قبل أن يحل بهم ما أوعدهم به ربهم بقوله :

(سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) أى سنعذبهم فى الحياة الدنيا مرتين : أولاهما مايصيبهم به من المصايب وانتظار الفضيحة بهتك أستارهم . وثانيتهما آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون ، وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم فى ذلك الحين ، ثم يردون يوم القيامة إلى عذاب جهنم و بئس المصير .

والخلاصة — إنهم يعذبون فى الدنيا بالعذاب الباطن بتو بيخ الضمائر وعذاب الخوف من الفضيحة على رءوس الأشهاد فى الظاهر ، ثم عذاب النار و بئس القرار .

وجملة القول — إن المنافقين فريقان : فريق عرفوا بأقوال قالوهاوأعمال عملوها، وفريق مردوا على النفاق وحذقوه حتى لايشعر أحد بشىء يستنكره منهم .

وهذان الفريقان يوجدان فى كل عصر ، فما من قطر من الأقطار إلا مُنى أهله بأعوان وأنصار منهم يزعمون أنهم يخدمون أمتهم من طريق استمالة الغاصب واسترضائه ، وأنه لولاهم لتمادى فى ظلمه وهضم حقوق الأمة ولم يقف عند حد ، ومنهم من يخدمون المستعمرين خدمة خفيّة لاتشعر بها الأمة لأنهم مرنوا على النفاق .

وأشد المنافقين مرودا على النفاق أعوان الملوك المستبدين الذين يُلبسون الباطل لباس الحق و يروّجونه فى أعين الجماهير خدمة لأولئك الملوك .

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) أى وهناك فريق

آخر ممن حولكم من الأعوان ومن أهل المدينة ليسوا منافقين ولا من السابقين الأولين ، بل من المذنبين الذين خلطوا الصالح من العمل بالسيء منه ، والسيء بالصالح ، فلم يكونوا من الصالحين الخلّص ولا من الفاسقين ، فهم قد آمنوا وعملوا الصالحات واقترفوا بعض السيئات كالذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك من غير عذر صحيح ولم يستأذنوا كاستئذان المرتابين ولم يعتذروا بالكذب كالمنافقين ، ثم كانوا حين قعودهم ناصحين لله ورسوله شاعرين بذنوبهم خائفين من ربهم .

وقد بين سبحانه حالهم بقوله :

(عسى الله أن يتوب عليهم) أى إنهم محل الرجاء لقبول الله توبتهم بتوفيقهم للتوبة الصحيحة التى هى سبب المغفرة والرحمة ـ وإنما يكون ذلك بالعلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وتوبيخ الضمير حين تصور سخط الله والخوف من عقابه ـ ثم الإقلاع عنه بباعث هذا الألم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافه ، والعزم على العمل بضده ليمحو أثره من نفسه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله غفور رحيم) أى إنه تعالى يقبل توبتهم لأنه كثير المغفرة للتائبين ، واسع الرحمة للمحسنين .

وفى معنى الآية قوله : «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى» وقوله : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »

قال جماعة من العلماء : إن هذه الآية أرجى آية فى القرآن فى توقع رحمة الله للمذنبين الذين يجترحون السيئات ثم يتوبون إلى ربهم ويقلعون عن ذنوبهم

روى البخارى عن سمرة بن جُنْدُب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أتانى الليلة (أى فى المنام) ملكان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بِلَبِن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء

عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لقد تجاوز الله عنهم » .

ولاشك أن هـذا تمثيل فى الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلا للكرامة بعد أن تبعث كلها فى الصورة التى كانت عليها قبل التوبة ، وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس بنهر جارٍ يفيض على عتبة الإنسان كل يوم خمس مرات فهل يبقى عليها وسخا أو قذرا ، وفى الحديث : « أتبع السيئة الحسنة تمحها » .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

شرح المفردات

الصدقة : ماينفقه المؤمن قربة لله ، والتزكية، من قولهم رجل زكىّ : أى زائد الخير والفضل قاله فى الأساس ، والصلاة : الدعاء ، والسكن : ما تسكن إليه النفس وترتاح من أهل ومال ومتاع ودعاء وثناء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات فى بيان فوائد صدقة الأموال والحث عليها وقبول التوبة لمن قصّر فى الجهاد فى سبيل الله بماله ونفسه .

روى ابن جرير أن أبا لُبابة وأصحابه (ممن تخلفوا وتابوا وسيأتى ذكرهم) جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أُطلقوا فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا» فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فلما نزلت أخذ الثلث من أموالهم فتصدق به عنهم.

وهذا النص وإن كان سببه خاصا، عام فى الأخذ، يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين؛ وفى المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، ومن ثم قاتل أبو بكر الصديق وسائر الصحابة مانعى الزكاة من أحياء العرب حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه».

الإيضاح

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) أى خذ أيها الرسول من أموال هؤلاء ومن غيرهم من سائر أموال المؤمنين على اختلاف أنواعها من نقد وأنعام وأموال تجارة، صدقة بمقدار معين فى الزكاة المفروضة أو بمقدار غير معين فى زكاة التطوع تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين، وتزكى أنفسهم بها وترفعهم إلى منازل الأبرار بفعل الخيرات حتى يكونوا أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية.

وقد نسبت التزكية إلى الله فى قوله: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا، وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ» لأنه الخالق الموفق للعبد لفعل ما تزكو به نفسه وتصلح.

ونسبت إلى رسول الله فى هذه الآية فى قوله: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»

لأنه هو المربى للمؤمنين على ماتزكو به نفوسهم ويعلو قدرها باتباعهم سنته العملية والقولية و بيانه لكتاب الله ، فهو القدوة الحسنة لهم .

ونسبت إلى الفاعل لها فى نحو قوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » وقوله : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » لأنه قد فعل ما كان سببا فى طهارة نفسه وزكاتها من صدقات ونحوها من أعمال البر .

وأما النهى عن تزكية النفس فى قوله : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » فذاك فى تزكية النفس بدعوى اللسان فقط دون عمل يؤيدها .

(وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم) أى وادع أيها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم ، فإن دعاءك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب نفوسهم وتطمئن قلوبهم بقبول توبتهم ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ووضعها فى مواضعها .

والصلاة من الله على عباده رحمته لهم ، ومن ملائكته استغفارهم كما قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » ومن المؤمنين على النبى صلى الله عليه وسلم دعاؤهم له بما أمرهم به فى الصلاة بعد التشهد الأخير كالدعاء المأثور (اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد » .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لاعترافهم بذنوبهم ، سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بندمهم وتوبتهم منها و إخلاصهم فى صدقاتهم وطيب أنفسهم بها ، وعليم بما فيه الخير والمصلحة لهم وهو الذى يثيبهم عليها .

وقد روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صلّ على فلان » فأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صلّ على آل أبى أوفى » .

وفى هذا إيماء إلى أن المراد بالصدقة مايعم الفريضة وغيرها ، و إلى أنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على هذا الدعاء ، ومن ثم قيل إن هذا الأمر للوجوب وهو خاصّ به صلى الله عليه وسلم .

فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى

الصدقات تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل ، والدناءة والأثرة ، والطمع والجشع ، وتبعدهم عن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا ، وغير ذلك . فإن من يتعود بذل بعض ما فى يده أو ما أودعه فى خزائنه فى سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ـ يكن أرفع نفسا من أن يأخذ مال غيره بغير حق ، و إذا طهرت أنفس الأفراد وزكت بالعلم والتقوى وهما ثمرة الإيمان طهرت جماعة المؤمنين من أرجاس الرذائل الاجتماعية التى هى مثار التحاسد والتعادى والبغى والعدوان والفتن والحروب ، فإن الأموال قوام الحياة المعيشية للفرد والمجتمع ، فهى مثار التنازع والتخاصم ، ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات مايجعل الثروات وسيلة للسلام لا إلى الخصام .

وقد جمع الإسلام بين مصالح الروح والجسد للوصول إلى السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المفْرِطة فى حب المال ، والنصرانية الروحانية الزاهدة ، فمن أهمّ مقاصده الإصلاحية فى الاجتماع البشرى هداية الناس إلى العدل فى أمر المال ليبتعدوا عن شر طغيان الأغنياء على الفقراء ، ونصوص الدين فى هذا الباب هى الغاية التى لايطمح مصلح فى التطلع إلى مابعدها ، وهى هادمة لمزاعم من يفتات على الإسلام من أرباب الجهل والهوى .

وقد فرضت الزكاة المطلقة فى أول الإسلام وكانت اشتراكية ، والباعث عليها القلوب والضمائر لا إكراه الحكام، ثم جعلت معينة محدودة عند ما صار للإسلام دولة.

وسر الوضع الأول أن جماعة المسلمين فى مكة قبل الهجرة كانوا محصورين ،

ومنهم الموسر والمعسر وصاحب الثروة وذو الفقر المدْقع ، فوجب أن يقوم أغنياؤهم بكفالة فقرائهم وجوبا دينيا إذا كانت الزكاة المعينة لاتكفيهم .

ولاشك أن الأسس الإصلاحية للمال التى وضعها الإسلام لايتسنى لأقدر الأمم المالية فى العصر الحاضر أن تضع خيرا منها ، انظر إليه تره حرم الربا والقمار لما أنهما يوجدان التنازع والتخاصم بين الناس و إن كان فيهما بعض المكاسب ، وأوجب الحجر على السفهاء فى أموالهم صيانة لها عن الضياع فيما يضرهم و يضر أمتهم ، وفرض النفقة الزوجية والنفقة على ذوى القرابة من ذوى الحاجة ، وذم الإسراف والتبذير والبخل والجشع والتقتير ومدح القصد والاعتدال فى النفقة على النفس والعيال ، وأباح الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف حفظا للثروة من الضياع و بُعدا عن الأمراض والأدواء البدنية ، وجعل زكاة النقدين الواجبة هى ربع العشر أى ٢ ١/٢ ٪ وهو أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعى نقودهم فيها للاستغلال .

انظر إلى الثروة فى مصر نقدا وتجارة وتأمل مقدار ربع العشر الواجب فيه فى كل عام لفقرائها ومرافقها العامة ، ثم قدر فى نفسك إذا هى قامت بالواجب الدينى عليها فى الزكاة ، هل يكون فيها فقر مدقع أو شقاء بين أفراد الأمة ، هل تتصور أن تنتشر فيها الأمراض المعدية أو يخيم على أفرادها الجهل ، أو ترتكب فيها جنايات السرّاق وقطاع الطرقات وذوى الخيانة والغدر ، أظن أن الجواب على ذلك : لا .

وقد جاء فى الكتاب والسنة الترغيب فى بذل المال فى سبيل البر وجعله علامة من علامات الإيمان الموجبة لثواب الرحمن والدخول فى غرفات الجنان ، ولم يجئ مثل ذلك فى أى نوع من أنواع البر وضروب الإحسان .

(ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) أى ألم يعلم أولئك التائبون من ذنوبهم أن الله هو الذى يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لأحد من خلقه لا رسول ولا مَن دونه .

وفى الآية حضّ على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

(ويأخذ الصدقات) أى يتقبلها ويثيب عليها ويضاعف ثوابها كما وعد بذلك فى قوله : « إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ » .

(وأن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى هو الذى يقبل التوبة إثر التوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربهم ، وإنه هو الرحيم بالتائبين الذى يثيبهم على ماقدموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصروا على ذنب كما قال تعالى فى وصف المتقين « وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» وجاء فى الحديث « ما أصرّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » رواه الترمذى ، وروى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ماتصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله » والحديث تمثيل لحال الصدقة المقبولة عند الله .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) أى وقل لهم أيها الرسول اعملوا لدنياكم وآخرتكم ، لأنفسكم وأمتكم ، فالعمل هو مناط السعادة ، لا الاعتذار عن التقصير ولا دعوى الجدّ والتشمير ، وسيرى الله عملكم خيرا كان أو شرا ، فيجب عليكم أن تراقبوه فى أعمالكم وتتذكروا أنه عليم بمقاصدكم ونياتكم ، فجدير بمن يؤمن به أن يتقيه فى السر والعلن ويقف عند حدود شرعه ، وسيراه رسوله والمؤمنون ويزنونه بميزان الإيمان الذى يفرق بين الإخلاص والنفاق ، وهم شهداء على الناس .

روى أحمد والبيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » .

وفى الآية إيماء إلا أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان تلى مرضاة الله ورسوله ، وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « مرّوا بجنازة فأثنوا عليها خيرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وجبت ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ماوجبت ؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وقال ابن عباس مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

(وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى وستردون يوم القيامة إلى من يعلم سرائركم وعلانيتكم ، ومن لا يخفى عليه شىء من بواطن أموركم وظواهرها فيعرفكم أعمالكم ثم يجازيكم عليها بحسن الثواب أو سوء العذاب .

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ، وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

شرح المفردات

مرجون ومرجئون وبهما قرئ : أى مؤخرون ، يقال أرجأت الأمر وأرجيته : أى أخرته .

المعنى الجملى

كان المتخلفون عن الجهاد فى غزوة تبوك أقساما ثلاثة :

(١) المنافقون الذين مردوا على النفاق ، وهم أكثر المتخلفين .

(٢) المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول واستغفاره فتاب الله عليهم .

(٣) المؤمنون الذين حاروا فى أمرهم ولم يعتذروا للرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم لاعذر لهم ، وأرجئوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القاطع فى أمرهم لأسباب ستذكر بعد .

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار ، والتفيؤ بالظلال لاشكا ونفاقا ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء وأرجئت توبة هؤلاء حتى نزلت آية التوبة «لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ» الخ.

الإيضاح

(وآخرون مرجون لأمر الله) أى ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله فى أمرهم ، وهم أولئك النفر الذين سبق ذكرهم وكانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الهمّ باللحاق به ولم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم قالوا لاعذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم كما فعل أبو لبابة وأصحابه من الذين ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد فنزل فيهم قوله تعالى .

(وآخرون مرجون) الآية فنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن مجالستهم وأمرهم باعتزال نسائهم و إرسالهن إلى أهلهن إلى أن نزل قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) الآية .

(إما يعذبهم و إما يتوب عليهم) أى إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة وقد أُبهِمَ الأمر عليهم وعلى الناس فلا يدرون ماذا ينزل بهم ؟ هل تنفع توبتهم فيتوب الله عليهم كما تاب على الذين اعترفوا بذنوبهم ، أو يحكم بعذابهم فى الدنيا والآخرة كما حكم على المخالفين من المنافقين .

وحكمة إبهام الأمر إثارة الغم والحزن فى قلوبهم لتصحّ توبتهم .

وحكمة إبهامه على الرسول والمؤمنين تركهم مكالمتهم ومخالطتهم، تربية للفريقين

على ما يجب أن يعامل به أمثالهم ممن يؤثرون الراحة ونعمة العيش على طاعة الله ورسوله والجهاد لإعلاء كلمة الحق ودفع عدوان أهل الباطل عن المؤمنين .

(والله عليم حكيم) أي والله عليم بما يصلح حال عباده ويربيهم ويزكيهم أفرادا وجماعاتٍ، حكيم فيما يشرعه لهم من الأحكام المفيدة لهذا الصلاح إذا عملوا بها.

ومن هذه الحكمة إرجاء النص على توبتهم فى كتابه ، كما أن تكرار تلاوتها فى مختلف الأوقات مما يوقع فى قلوب المؤمنين الرهبة والخوف ويفيدهم عظة وتهذيبا .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

شرح المفردات

الضرار والمضارة : محاولة إيقاع الضرر ، والإرصاد : الانتظار والترقب مع العداوة يقال رصدته : أي قعدت له على طريقه أترقبه ، وأرصدت هذا الجيش للقتال ، وهذا الفرس للطراد ، ولا تقم : أي لا تصلّ ، والتأسيس : وضع الأساس للبناء ليقوم عليه ويرفع ، والتقوى : اسم لما يرضى الله ويقى من سخطه ، وشفا أى حرف

والجُرُف (بضمتين) : جانب الوادى ونحوه ، والهار والهائر ؛ كالشاك والشائك : الضعيف المتداعى للسقوط ، وانهار : سقط ، والريبة : من الريب ، وهو اضطراب النفس وتردد الوهم والحيرة ، وتقطع : أى تفرق أجزاء .

المعنى الجملى

هذه الآيات نزلت فى بيان مكيدة من مكايد المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وذكرت هنا لما فيها من العبرة والعظة والذكرى بإبهام عطفها على من أرجأ الله الحكم فى أمرهم ليتعظ أولئك الغافلون من المؤمنين المغرورين بمسجد الضرار ومتخذيه ، ويخافوا أن يؤاخذوا بمشايعتهم لهم ولو بصلاتهم معهم فى مسجدهم .

روى فى سبب نزول الآيات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، كان قد تنصر وقرأ علم أهل الكتاب وكان له منزلة كبيرة فيهم . فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجرا واجتمع عليه المسلمون وعلت كلمة الإسلام وأظهره الله على أهل الشرك خرج فارّا إلى مكة وألّب المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد وخاطب قومه الأنصار ليستميلهم إلى نصره فسبوه وردوه أقبح ردّ ، ولما فرغ الناس من الموقعة فرّ إلى هرقل ملك الروم يستنصره فوعده وحباه وكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدا ويغلبه وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يأوى إليه من يقوم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموا بناءه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوه أن يصلى فى مسجدهم ليكون ذلك ذريعة إلى تقريره لإثباته ، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنا على جناح سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » .

ولما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم (مسجد قباء) الذى أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد وهدمه قبل مقدمه المدينة وأمر أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة إهانة لأهله .

الإيضاح

(والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) .

روى أن الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثنى عشر رجلا من منافقى الأوس والخزرج ، وقد بين الله الأغراض التى لأجلها بُنى ، وهى :

(١) مضارة المؤمنين من أهل مسجد قباء الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه من مكة مهاجرا قبل وصوله إلى المدينة .

(٢) تقوية الكفر وتسهيل أعماله من فعل وترك كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هناك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم فى مسجد واحد ، والتشاور فيما بينهم فى الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن فيه إلى نحو أولئك من مقاصد المنافقين .

(٣) التفريق بين المؤمنين المقيمين هنالك ، فإنهم كانوا يصلون جميعا فى مسجد قباء ، وفى ذلك حصول التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة وهو أهم مقاصد الإسلام الاجتماعية ، ومن ثم كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافيا لأغراض الدين ومراميه ، ومن الواجب أن يصلى المسلمون الجمعة فى مسجد واحد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن تفرقوا عمدا كانوا آثمين .

ومن هذا يعلم أن بناء المساجد لا يكون قربة يتقبلها الله إلا إذا دعت الحاجة

إلى ذلك ، ولم يكن سببا لتفريق جماعتهم ، فكثير من المساجد المتقاربة فى القاهرة وغيرها من الأمصار الأخرى لم تُبْنَ لوجه الله بل كان الباعث على بنائها الرياء واتباع الأهواء من جهلة الأفراد والأثرياء وعدم نصح العلماء لهم .

(٤) الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجىء محاربا فيجد مكانا مرصدا له ، وقوما راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم أولئك المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصدا لذلك .

(وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) أى وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الخصلة التى تفوق غيرها فى الحسن ، وهى الرفق بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولى العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم ، ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم وليصلى معهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون فى إيمانهم لأنهم مابنوه إلا للسوءى وضرار مسجد قباء .

(لاتقم فيه أبدا) أى لاتقم فى هذا المسجد للصلاة أبدا .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) أى إن مسجدا قصد ببنائه منذ وضع أساسه فى أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على مايرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى - هو أحق من غيره أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين .

والسياق يدل على أن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، ولكن روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عنه فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، والآية لاتمنع إرادة كل من المسجدين ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى كلا من المسجدين ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه ببنائه.

(فيه رجال يحبون أن يتطهروا) أى فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدوّ والآصال ، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام ، كما تطهر المتخلفون منهم من غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، و يتبع

الطهارة المعنوية بالعكوف فيه للصلاة وغيرها ـ الطهارة الحسية للثوب والبدن ، وطهارة الوضوء والاغتسال .

والخلاصة — إن التطهر يشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، والروايات وردت بكل منهما ، والأولى إرادتهما معا .

(والله يحب المطهرين) أى الذين يبالغون فى طهارة الروح والجسد لحبهم إياهما ، لأنهم يرون فيهما الكمال الإنسانى ، فمن ثم يبغضون نجاسة البدن والثوب ، وأشد منهما بغضا لهم نجاسة النفس وخبثها بالإصرار على فعل المعاصى والتخلق بذميم الأخلاق كالرياء فى الأعمال إذ هو فعل المنافقين ، والشح بالأموال أو بالأنفس فى سبيل الله ابتغاء لمرضاته .

وحب الله إياهم من صفات كماله ، إذ العالم بتفاوت الأشياء فى الحسن والقبح والكمال والنقص يكون من صفاته حب الكمال والحق والخير و بغض أضدادها .

وحبه تعالى منزه عن مشابهته حبنا كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتنا وصفاتنا ، ويظهر أثر حبه لعباده فى أخلاقهم وأعمالهم ومعارفهم وآدابهم كما أشار إليه الحديث القدسى الذى رواه البخارى « ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به » الحديث .

وفى معنى الآية ما جاء فى عظة نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهن باتباع أوامره ونواهيه بما يليق بما لهن من مكانة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليم ذلك بقوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم) هذا بيان مستأنف للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره ، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذى زادوا به رجسا إلى رجسهم .

والأساس على شفا الجرف الهار مثل يضرب لما يكون فى منتهى الوهى والانحلال

والإشراف على الزوال، أى أفمن أسس بنيانه الذى يتخذه موطنا لراحته وهناء معيشته ويتقى به العوامل الجوّية ، وعدوان الكائنات الحية على أمتن الأسس وأقواها على مصابرة العواصف والسيول وصد الهوام والوحوش - خير بنيانا ، أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا فكانت عرضة للانهيار فى كل حين من ليل أو نهار ؟

وقد ضرب الله مثل البنيان على تينك الصفتين لبيان حال الفريقين المتقدمين من صدق الإيمان ، والنفاق والارتياب ، أى أفمن كان مؤمنا صادقا يتقى الله فى جميع أحواله ويبتغى مرضاته فى جميع أعماله ، قاصدا تزكية نفسه وإصلاح سريرته - خير أم من هو منافق مرتاب ، يبتغى بأعماله الضرر والضرار وتقوية أعمال الكفر وموالاة الكفار وتفريق جماعة المؤمنين والإرصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله مع مايكون لعمله فى الدنيا من العار والفضيحة والخزى والبوار ، وفى الآخرة من الانهيار فى النار .

وخلاصة المثل — بيان ثبات الإسلام وقوته وسعادة أهله به وثمرته فى أعمالهم وجزائهم عليه برضوان الله عنهم ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ووهيه وقرب زواله وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، وبيان أن شر أعمال أهله المنافقين ، ما اتخذوه من مسجد الضرار لمفاسده الأربع المتقدمة .

فالإيمان وما يلزمه من صالح العمل هو الثابت ، والنفاق وما يستلزمه من فاسد العمل هو الباطل الزاهق بحكم ناموس الاجتماع وبقاء الأصلح فى الوجود ، وقد صدق الله وعده وثبّت المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم إلى العمل الصالح ففتحوا البلاد وأقاموا سبل الحق والعدل ، وأهلك الله المنافقين ، وقد جرت سنة الله فى كل زمان ومكان أن يكون الفوز حليف أهل الحق ، والخيبة لأهل الباطل ما استمسكوا به ، ولم يقلعوا عنه .

(والله لايهدى القوم الظالمين) أى مضت سنته تعالى ألا يكون الظالم مهتديا فى أعماله إلى الحق والعدل ، ولا إلى الرحمة والفضل .

(لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم) أى لايزال بنيانهم سبب ريبة وشك فى الدين ، لأنهم يظهرون فيه حال قيامه ما فى قلوبهم من آثار الكفر والنفاق ويدبرون أمورهم ويتشاورون فى ذلك ويلقى بعضهم إلى بعض ماسمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكا فى الدين ، ولكن حين أمر صلى الله عليه وسلم بتخريبه وهدمه ثقل ذلك عليهم وعظم خوفهم وارتابوا فى أمرهم : أيتركون على حالهم أم يؤمر بهم فيقتلون وتنهب أموالهم ، إلى أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين فى البناء ، فلما أمر بتخريبه أصبحوا شاكين فى أمره ، ولأى سبب كان ذلك .

ولا يزال هذا شأنهم فى جميع الأحوال إلا حال تقطع القلوب أفلاذا وصيرورتها جذاذا ، فتكون غير قابلة للإدراك .

وفى هذا إيماء إلى تمكن الريبة فى قلوبهم وإضمار الشرك بحيث لايزول منها ما داموا أحياء .

والخلاصة — إنه لايزال هدم بنيانهم الذى بنوا سببا للقلق واضطراب النفس وإن ذلك لايزول ما دامت القلوب سالمة _ أما إذا تفرقت قطعا وتقطعت أجزاء بقتلهم فحينئذ يسلون عنه .

وقد يكون المراد إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم (والله عليم حكيم) أى والله عليم بكل شىء ، حكيم فى أفعاله ، ومن حكمته أن بيّن حال المنافقين وأظهر ماخفى من أمرهم لتعرفوا كنه الحقيقة فى ذلك .

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فضائح المنافقين بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وأصناف المقصرين من المؤمنين ، أردف ذلك بذكر حال المؤمنين الصادقين فى إيمانهم البالغين فيه حد الكمال ، وبذا تمّ معرفة جميع أحوال المؤمنين .

الإيضاح

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) هذا ترغيب فى الجهاد على أبلغ وجه وأحسن صورة ، فقد مثل الله إثابة المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بتمليكهم الجنة التى هى دار النعيم والرضوان الدائم السرمدى تفضلا منه تعالى وكرما ـ بصورة من باع شيئا هو له لآخر ـ وعاقد عقد البيع هو ربّ العزة ، والبيع هو بذل الأنفس والأموال ، والثمن هو مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وجعل هذا العقد مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من صكّ لايقبل التحلل والفسخ ، وفى هذا منتهى الربح والفوز العظيم ، وكل هذا لطف منه تعالى وتكريم لعباده المؤمنين ، فهو المالك لأنفسهم إذ هو الذى خلقها ، ولأموالهم إذ هو الذى رزقها ، ولهذا قال الحسن : اشترى أنفسا هو خلقها ، وأموالا هو رزقها ، إلى أنه تعالى غنىّ عن أنفسهم وأموالهم والبيع والثمن له وقد جعله بفضله وكرمه لهم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر قال : نزلت هذه الآية على رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد فكبر الناس فى المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانيا طرفى ردائه على عاتقه فقال : يارسول الله أنزلت فينا هذه الآية ، قال «نعم» فقال الأنصارى : بيع ربيح لانقيل ولا نستقيل .

وأخرج ابن جرير أن عبد الله بن رواحة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لنفسك ولربك فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قال : ربح البيع لانقيل ولا نستقيل ، فنزلت الآية » .

وأخرج ابن سعد فى طبقاته عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، أن سعد ابن زُرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يأيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمدا ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة . فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسِلم لمن سالم . فقال يارسول الله اشترط علىّ ، فقال : تبايعونى على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، قالوا نعم. قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله، فما لنا ؟ قال الجنة والنصر .

وأخرج ابن سعد عن الشعبى قال : انطلق النبى صلى الله عليه وسلم بالعباس ابن عبد المطلب وكان ذا رأى إلى السبعين من الأنصار عند العقبة ، فقال العباس ليتكلم متكلمكم ولايطيل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عينا، و إن يعلموا بكم يفضحوكم فقال قائلهم : يامحمد سل لربك ماشئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ماشئت ،ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ؟ ، فقال : أسألكم لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأسألكم لنفسى وأصحابى أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم ، قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، فكان الشعبى إذا حدث هذا الحديث قال : ماسمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها .

وروى ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا « من سلّ سيفا فى سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبى حاتم عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل فى هذه البيعة ، وفى رواية « اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن . إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ » .

ثم بين صفة تسليم البيع فقال :

(يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون) أى إنهم يقاتلون فى سبيل الحق والعدل التى توصل إلى مرضاة الله تعالى ببذل أنفسهم وأموالهم فيكونون إما قاتلين لأعدائه الصادّين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء فى هذه السبيل ، ولا فرق بين القاتل والمقتول فى الفضل والمثوبة عند الله ، فكل منهما كان فى سبيله ولم يكن رغبة فى سفك الدماء ، ولا حبًا للأموال ولا توسلاً إلى ظلم العباد كما يفعل الذين يقاتلون لأغراض الدنيا من الملوك والأمراء .

(وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) أى وعدهم وعدا أوجبه على نفسه وجعله حقا وأثبته فى التوراة والإنجيل ، وضياعه منهما فى النسخ التى بين يدى أهل الكتاب لايضير فى ذلك ؛ لأنه قد ضاع منهما كثير وحرّف بعضهما لفظا ومعنى ، ويكفى إثبات القرآن لذلك وهو المهيمن عليهما .

(ومن أوفى بعهده من الله ؟) أى لا أحد أوفى بعهده وأصدق فى إنجاز وعده من الله ، إذ لايمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ، ولا يعرض له تردد ولا رجوع عما يريد إمضاءه من شأنه .

(فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) أى فإذا كان الأمر على هذه الحال فأظهروا السرور على ما فزتم به من الجنة .

(وذلك هو الفوز العظيم) أى الفوز الذى لافوز أعظم منه ، وما يتقدمه من النصر والسيادة والملك لايعد فوزا إلا بكونه وسيلة لإقامة الحق والعدل .

وفى هذا الأسلوب من التأكيد واستحقاق المجاهدين للثواب مالا يخفى ، إذ جعلهم مالكين معه ومبايعين له ومستحقين الثمن الذى بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء وإنجاز وعده .

وعن جعفر الصادق أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . يريد أن الذى يقتل أو يموت فى سبيل الله بذل بدنه الفانى ، لاروحه الباقى .

ثم وصف الله هؤلاء الكملة من المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته — بصفات هى :

(١) (التائبون) أى هم الراجعون إلى الله بتركهم كل مايبعد عن مرضاته ، وتوبة الكفار هى رجوعهم عن الكفر الذى كانوا عليه كما قال : « فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » وتوبة المنافق تكون بترك نفاقه ، وتوبة العاصى من معصيته تكون بالندم على ما حصل منه والعزم على عدم العود لمثله كتوبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتوبة المقصر فى شىء من البر وعمل الخير تكون بالاستزادة منه ، وتوبة من يغفل عن ربه تكون بالإكثار من ذكره وشكره .

(٢) (العابدون) لله المخلصون فى جميع عباداتهم ، فلا يتوجهون إلى سواه بدعاء ولا استغاثة ولا يتقربون إلى غيره بعمل قربان ولا طلب مثوبة فى الآخرة .

(٣) (الحامدون) لله فى السراء والضراء ، روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال « الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات » وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : « الحمد لله على كل حال » .

(٤) (السائحون) فى الأرض لغرض صحيح كعلم نافع للسائح فى دينه أو دنياه أو نافع لقومه وأمته أو النظر فى خلق الله وأحوال الأمم والشعوب للاعتبار والاستبصار وقد حث الله كثيرا على السير فى الأرض والضرب فيها كما قال « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ » .

وعلى السفر والسياحة لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .

والإسلام الذى يجيز سفر النساء فى الغزوات وهن غير مكلفات بالقتال للمساعدة عليه بتهيئة الطعام والشراب وتضميد الجراح فهو بالأولى يجيز صحبتهن فى سائر الأسفار ، وفى ذلك إحصان لكل من الزوجين ومنع لهما عن التطلع إلى الأجنبى .

وفسر بعضهم السياحة بالصيام لما روى عن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام لأن الصوم يعوق عن اللذات كما أن السياحة كذلك غالبا .

(٥ ، ٦) (الراكعون الساجدون) فى صلواتهم المفروضة ، وخصا بالذكر لما فيهما من الدلالة على التواضع والعبودية والتذلل لله سبحانه .

(٧ ، ٨) (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أى الداعون إلى الإيمان وما يتبعه من أعمال البر والخير ، والناهون عن الشرك وما بسبيله من المعاصى والسيئات.

(٩) (والحافظون لحدود الله) أى الحافظون لشرائعه وأحكامه التى بين فيها ما يجب على المؤمنين اتباعه وما يحظر عليهم فعله منها ، وكذا ما يجب على أئمة المسلمين وأولى الأمر منهم إقامته وتنفيذه بالعمل فى أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلّوا بما يجب عليهم حفظه منها .

ثم ذكر جزاءهم على ذلك فقال :

(وبشر المؤمنين) أى وبشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات بخيرى الدنيا والآخرة .

وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ

هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦).

شرح المفردات

الأوّاه: الكثير التأوّه والتحسر، أو الخاشع الكثير الدعاء والتضرع إلى ربه، وقيل إنها كلمة حبشية الأصل، ومعناها المؤمن أو الموقن، وأصل التأوه: قول أوه أو آه أو نحوهما مما يقوله الحزين أو أوه بكسر الهاء وضمها وفتحها، وآهٍ بالكسر منونا وغير منون، والحليم: الذى لا يستفزه الغضب ولا يعبث به الطيش ولا يستخفه هوى النفس، ومن لوازم ذلك الصبر والثبات والصفح والتأنّى فى الأمور واتقاء العجلة فى الرغبة والرهبة.

المعنى الجملى

كان الكلام من أول السورة إلى هنا براءة من الكفار والمنافقين فى جميع الأحوال، وهنا بين أنه يجب البراءة من أمواتهم وإن قربوا غاية القرب كالأب والأم، ثم ذكر السبب الذى لأجله استغفر إبراهيم لأبيه وهو وعده بالاستغفار بقوله: « لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ » فلما أصرّ على كفره تبرأ منه، وبعدئذ بين رحمته بعباده وأنه لا يعاقبهم على شيء إلا بعد بيان شافٍ لما يعاقبون عليه.

أخرج أحمد وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وابن جرير وغيرهم عن سعيد ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال: « أى عم قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله

إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله فى أبى طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » وقد كان موت أبى طالب بمكة قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، ومن ثم استبعد بعض العلماء أن تكون نزلت فى أبى طالب ، وأجاب آخرون بأن الذى حصل قد يكون أحد أمرين :

(١) إنها نزلت عقب موته ثم ألحقت بهذه السورة المدنية لمناسبتها لأحكامها الخاصة بالبراءة من الكفار وفضيحة المنافقين .

(٢) إنها نزلت مع غيرها من براءة مبينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ، وقد كان من ذلك الحين إلى نزول الآية يستغفر لأبى طالب ، فإن التشديد على الكفار والبراءة منهم إنما جاء فى هذه السورة .

وفى الآية إيماء إلى تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة ، أو بوصفه بذلك كقولهم المغفور له والمرحوم فلان كما يفعله بعض جهلة المسلمين من الخاصة والعامة .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، ثم قال : استأذنت ربى أن أستغفر لها فلم يأذن لى واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت .

الإيضاح

(ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) أى ما كان من شأن النبى ولا مما ينبغى أن يصدر منه من حيث هو نبىّ ، ولا من شأن المؤمنين ولا مما يجوز أن يقع منهم أن يدعوا الله طالبين منه المغفرة للمشركين .

(ولو كانوا أولى قربى) أى ولو كان لهم حق البرّ وصلة الرحم ، وكانت عاطفة القرابة تقتضى الحدب والإشفاق عليهم .

(من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) أى من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب النار ، بأن ماتوا على الكفر ، أو بأنه نزل وحى يسجل عليهم ذلك كإخباره تعالى عن بعض الجاحدين المعاندين بنحو قوله : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن النبوة والإيمان الصادق لايبيحان الاستغفار للمشركين فى كل حال حتى ولو كانوا أولى قربى إذا ظهر لهم بالدليل أنهم من أصحاب الجحيم .

ثم أجاب عن سؤال قد يختلج بالخاطر مما تقدم ، فيقال كيف يمتنع النبى والمؤمنون من الاستغفار لأقربائهم وقد استغفر إبراهيم لأبيه فقال :

(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) أى وما استغفر إبراهيم لأبيه آزر بقوله (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) أى وفقه للإيمان واهده إلى سبيله — إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي » أى لا أملك لك هداية ولا نجاة و إنما أملك أن أدعو الله لك .

وقد وفى إبراهيم بما وعد ولم يكن إلا وفيا كما شهد الله له بقوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » .

(فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) أى لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه، قال ابن عباس ، وقيل تبين له ذلك بوحى من الله فتبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضى الإيمان كما قال تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ » الآية .

ثم بين السبب الذى حمل إبراهيم على الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله له : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا».

فقال :

(إن إبراهيم لأواه حليم) أى إن إبراهيم لكثير المبالغة فى خشية الله والخضوع له ، صبور على الأذى والصفح عن زلات غيره عليه .

(وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) أى وما كان من سنن الله فى خلقه ولا من رحمته وحكمته أن يصف قوما بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بالذم والعقاب بعد إذ هداهم إلى الإيمان وشرح صدورهم للإسلام — بقول يصدر منهم عن غير قصد أو عمل يحدث منهم باجتهاد خاطئ .

(حتى يبين لهم ما يتقون) من الأقوال والأفعال بيانا واضحا بوحى صراحة أو دلالة .

(إن الله بكل شىء عليم) أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل هذا لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولى القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم وعدم انتظار النصرة من أحد — بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال:

(إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير) أى إنه تعالى مالك كل موجود ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَلَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩).

شرح المفردات

العسرة: الشدة والضيق، وزاغ: مال، والرحب: السعة، ولجأ إلى الحصن وغيره: لاذ إليه واعتصم به، الرأفة: العناية بالضعيف والرفق به، والرحمة: السعى فى إيصال المنفعة.

المعنى الجملى

بعد أن استقصى سبحانه أحوال المتخلفين عن غزوة تبوك على النحو الذى سلف ـ عاد مرة أخرى إلى الكلام فى توبتهم جريا على سنة القرآن الكريم فى تفريق الآيات فى الموضوع الواحد لأنه أفعل فى النفس وأشد تأثيرا فى القلب وأجدى فى تجديد الذكرى وأدنى ألا يسأم التالى لها فى الصلاة وغيرها. إلى أنه مناسب لما قبله من النهى عن الاستغفار للمشركين، إذ كلٌّ مما يتاب منه، وكل عثرة يطلب منها الصفح والعفو.

الإيضاح

(لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) أى لقد تفضل سبحانه وعطف على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار فتجاوز عن هفوات

صدرت منهم فى هذه الغزوة وغيرها لبلائهم الحسن فيها ، ولأنهم لم يصروا على شىء منها .

وقد كانت هفواتهم على سنن الطباع البشرية واجتهاد الرأى فيما لم يبينه الله بيانا قطعيا بحيث يعد مخالفه عاصيا ، وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى صلى الله عليه وسلم هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة « عَفَا اللهُ عَنْكَ ـ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه إذ غيره كان خيرا منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار ، وهم خلص المؤمنين كانت من تثاقلهم فى الخروج حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم ، وإنما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل .

(الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفدت فيه مئونتهم من التمر وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ولا يمكن حمل شىء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب الزنخة المتغيرة الرائحة ـ وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبلّوا به ألسنتهم ـ وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العشرة يعتقبون بعيرا واحدا ـ وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا

فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن كان الرجل لينحر بعيره ليعصر فرثه فيشرب به ويجعل مابقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يارسول الله إن الله قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فملئوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

(من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ بعضهم عن الإيمان وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملا صالحا وآخر سيئا واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

(ثم تاب عليهم) هذا تكرير للتوكيد كما يقال عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه ، فيدل ذلك على أنه عفو متأكد بلغ الغاية القصوى من القوة والكمال .

ثم علل قبول توبتهم بقوله :

(إنه بهم رءوف رحيم) أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهلكهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلوا فى الله وأبلوا مع رسوله وصبروا فى البأساء والضراء .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا) أى ولقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم المرجون لأمر الله ، وتقدم أنهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

(حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) أى خلفوا عن التوبة حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها بالخلق جميعا خوفا من العاقبة وجزعا من إعراض النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنهم وهجرهم إياهم فى المجالسة والمحادثة.

وهذا مثل للحيرة فى الأمر ، كأنهم لايجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا مما هم فيه ، قال قائلهم :

كأن فجاج الأرض وهى فسيحة على الخائف المطلوب كِفّةُ حابل

ثم ترقى وانتقل من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم فى أنفسهم فقال :

(وضاقت عليهم أنفسهم) أى وضاقت أنفسهم على أنفسهم ، لما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلائها بالهمّ والغم حتى لامتسع فيها لشىء من البسط والسرور ، فكأنهم لايجدون لأنفسهم مكانا ترتاح إليه وتطمئن به .

(وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه) أى واعتقدوا أنه لاملجأ لهم من غضب الله ورسوله ، إلا إليه تعالى بالتوبة والاستغفار ورجاء رحمته ، وقد أعرض عنهم رسوله البر الرحيم بأصحابه فلم يكونوا يستطيعون أن يطلبوا دعاءه واستغفاره ـ إلى أنه صلى الله عليه وسلم لايشفع فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم .

(ثم تاب عليهم) أى ثم عطف عليهم وأنزل قبول توبتهم .

(ليتوبوا) ويرجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

(إن الله هو التواب الرحيم) أى إنه تعالى كثير القبول لتوبة التائبين ، الواسع الرحمة للمحسنين ، المتفضل عليهم بضروب النعم مع استحقاقهم لأعظم أنواع العقاب.

وكان من حديث هؤلاء الثلاثة ماحدثه كعب قال: «لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد علىّ كالمغضب بعد ما ذكرنى وقال : « ليت شعرى ما خلف كعبا » فقيل له ما خلفه إلا حسن بُرْديه والنظر فى عِطْفَيْه فقال :

« معاذ الله ما أعلم إلا فضلا وإسلاما ، ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب أو بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلْع (جبل بالمدينة) أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجدا ، وكنت كما وصفنى ربى (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابعت البشارة فلبست ثوبى وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس فى المسجد وحوله المسلمون فقام إلىّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحنى وقال : لتهنك توبة الله ، فلن أنساها لطلحة ،

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر ، أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية ».

وفى هذه القصة عبرة للمؤمنين تخشع لها قلوبهم وتفيض لها عبراتهم ، وقد كان الإمام أحمد لايبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات .

انظر إلى هـذا وتأمل قسوة قلوب الجاهلين المغرورين الذين يقترفون الفواحش والمنكرات ويتركون الفرائض ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون ولا يتوبون إلى الله ولا هم يذّكرون ، وإذا وعظهم الواعظ وجدهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، ومتكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار مكفرات الذنوب مما لا أصل له فى الدين ، أو له أصل يراد به تكفير الصغائر بشرط اجتناب الكبائر، كما قال تعالى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ » .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أى يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله اتقوا الله وراقبوه بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا فى الدنيا من أهل ولاية الله وطاعته تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة ، ولا تكونوا مع المنافقين الذين يتنصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالحلف .

أخرج الحاكم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الكذب لايصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعِدِ الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، اقرءوا إن شئتم : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » وأخرج البيهقى مرفوعا « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، إنه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وفجر ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

ولا رخصة فى الكذب إلا لضرورة من خديعة حرب ، أو إصلاح بين اثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها أى فى التحبب إليها بوصف محاسنها ورضاه عنها ، لا فى مصالح الدار والعيال وغيرها .

أخرج ابن أبى شيبة وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب فى خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها » .

ولا شك أن فى المعاريض مايغنى العاقل عن الكذب كما جاء فى الحديث « إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب » .

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) .

شرح المفردات

رغب فى الشىء : أحبه وآثره ، ورغب عنه ، كرهه : وقد جمع بينهما فى الآية . والظمأ : شدة العطش ، والنصب : الإعياء والتعب ، والمخمصة : الجوع الشديد ، والغيظ : الغضب ، ونيلا : أى أسرا وقتلا وهزيمة ، والوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ـ أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

الإيضاح

(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) أى لاينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ومقر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من حولهم من الأعراب كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم - أن يتخلفوا عن رسول الله فى غزو فى سبيل الله كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها فضلا عن أن يربئوا بأنفسهم عن متابعتها و يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة — إن المتخلف يفضل نفسه و يؤثرها على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه .

وفى ذلك نهى شديد عن عملهم وتو بيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته صلى الله عليه وسلم بأنفة وحمية .

(ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح) أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع بسبب أن كل مايصيبهم فى جهادهم من أذى و إن كان قليلا كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو و إن صغر كوطء أرضه الذى يعده استهانة بقوته فيغيظه أن تمسَّه أقدام المؤمنين أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة - إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يجزى عليه

بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد أو وطأة قدم أو عروض جوع أو عطش أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود أو مشى أو كلام أو نحو ذلك مشكورا مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى صلى الله عليه وسلم لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب .

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

(إن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الله لايدع محسنا أحسن فى عمله فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ـ أن يجازيه على إحسانه ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل مافعلوا فلم يُضع لهم أجرا على عمل عملوه .

(ولاينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولايقطعون واديا إلا كتب لهم) أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبر ، قلّ أو كثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين ـ إلا كتب لهم أجرهم على ذلك جزاء لهم على عملهم ولايترك شىء منه أو ينسى .

(ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم كأحسن مايجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها وهم مقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع المبرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) .

شرح المفردات

نفر : خرج للقتال ، ولولا : كلمة تفيد الحض والحث على مايدخل عليها إذا كان مستقبلا ، واللوم على تركه إذا كان ماضيا ، فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ، والفرقة : الجماعة الكثيرة ، والطائفة : الجماعة القليلة ، وتفقه : تكلف الفقاهة والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ، وأنذره : خوّفه ، وحذره : تحرز منه .

المعنى الجملى

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والتفقه فى الدين من قِبَل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان، وهو الركن الركين فى الدعوة إلى الإيمان وإقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدى المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدد الله على المتخلفين قالوا لايتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزل (وما كان المؤمنون) الآية .

الإيضاح

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أى ما كان شأن المؤمنين ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط

عن الباقين ، لافرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ليتسنى لهم : أى للمؤمنين فى جملتهم التفقه فى الدين ، بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم من الآيات وما يكون منه صلى الله عليه وسلم من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به ، ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهمّ قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما علموا ، رجاء أن يخافوا الله ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه وبيان أسراره للناس لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية والترفع عن سواد الناس وكسب المال والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضا .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه فى مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

المعنى الجملى

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة - أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدءوا بقتال من يليهم ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق ؛ وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ثم أمر بالدعوة العامة وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال : « قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله : « لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة: منها قلة النفقات، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ثم الذى يليه ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك » .

(وليجدوا فيكم غلظة) الغلظة (مثلثة) : الشدة والخشونة ، أى وليجدوا

فيكم جرأة وصبرا على القتال وعنفا فى القتل والأسر ونحو ذلك كما قال : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » .

والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيها من شدة الزجر والمنع عن القبيح .

وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حينا إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة ، لأن يقتصر على الغلظة فقط فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم .

وإنما أمروا بذلك فى القتال ومايتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل والتؤدة فى المعاملة ومن ثم صار ذلك من أخصّ صفات المسلمين .

(واعلموا أن الله مع المتقين) أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغَلَب من إعداد العُدد المناسبة للزمان والمكان التى عناها الله بقوله (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) ومن الثبات والصبر ، والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ
(١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ضروبا من مخازى المنافقين كتخلفهم عن غزوة تبوك وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة - ذكر هنا ضروبا أخرى من تلك المثالب كتهكمهم بالقرآن وتسللهم لواذا حين سماعه ، وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

الإيضاح

(وإذا ما أنزلت سورة) أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككا لهم : (أيكم زادته هذه) السورة (إيمانا) أى يقينا بحقية القرآن والإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أى أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال :

(فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها لما يرجون من خير هذه الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم إلى النفاق بإسرار الكفر وإظهار

الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم واستحكم فيهم إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجّب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال :

(أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ؟) أى أيجهلون هذا و يغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر والتفرقة بين الحق والباطل ، و ينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه وخذلان أعدائه ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

(ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان وانطفاء نور الفطرة ، ولله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

و بعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم — بين حالهم وهم فى مجلسه صلى الله عليه وسلم حين نزولها واستماع تلاوته لها فقال :

(و إذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض) أى و إذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية و إنكار ، قائلا بعضهم لبعض :

(هل يراكم من أحد ؟) أى هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم، أو المؤمنون إذا قمتم من المجلس .

(ثم انصرفوا) أى ثم انصرفوا جميعا عن مجلس الوحى متسللين لواذاً كراهة منهم لسماعه وانتظارا لسنوح فرصـــة الغفلة عنهم ، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

(صرف الله قلوبهم) أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق والاسترشاد بآيات كتابه إلى ما فى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته .

وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هـذا واحد فى كلامه تعالى .

(بأنهم قوم لايفقهون) أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل . لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ماجاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ، أخير هو أم شر ؟ وأنى لمثل هؤلاء – وتلك حالهم – أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟ .

لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى من جنسكم ، وعزيز : أى شاق ، والعنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد ، والحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجود ، والرأفة : الشفقة ، والرحمة : الإحسان .

المعنى الجملى

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة ـ ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف، فبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا والآخرة إليهم فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الحاذق ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها كما قال :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فَلْيَقْسُ أحيانا على من يرحم

قال أُبىّ بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن ، لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) وآخر سورة نزلت براءة ، وعن ابن عباس : آخر آية نزلت (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ) وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوما .

الإيضاح

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ » .

ذاك أن منته على قومه أعظم ، وحجته بكتابه أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم و بنو المطلب ، ولو لم يؤمن به و بكتابه العرب لما آمن العجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فآمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن العجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بفهم القرآن و بيانه له صلى الله عليه وسلم بالتبليغ والعمل و بما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .

وقد امتنّ الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد فقال « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ » أى و إنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم وَيُدَوَّنُ لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

و إنما قاومه أكابر قومه أنفة واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم - إلى أن فى اتباعه إقرارًا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

(عزيز عليه ما عنتم) أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

(حريص عليكم) أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم كما قال الله تعالى « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(بالمؤمنين رءوف رحيم) أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل مايدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم مضريّها وربيعيها ويمانيها - يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب و بطونها .

(فإن تولوا فقل حسبى الله) أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلغت وماقصرت .

(لا إله إلا هو) أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

(عليه توكلت) أى عليه وحده توكلت ، فلا أَكِلُ أمْرِى فيما أعجز عنه إلى غيره .

(وهو رب العرش العظيم) العرش مركز تدبير أمور الخلق كما قال تعالى « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه، وعظمةِ الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمةُ العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله والمدبر لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع أحد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخرها ـ يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عند ما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف والعسب إلا عنده ، وقد كانتا محفوظتين معروفتين للكثير كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى ، فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ـ إلى قوله وهو رب العرش العظيم) إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما ، فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر ، فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبدا ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما ففى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ بن حجر فى شرح البخارى : إن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، فهو صريح فى أن البحث عن كتبها فقط اه .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما حتى شهد من شهد أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أُبَىّ بن كعب وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذا زيد بن ثابت وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلا ، فلما كُتِبَتا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يرو أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

ســـــورة يونس

مكية إلا الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود ، وعدد آيها تسع ومائة ، وموضوعها يدور على إثبات أصول التوحيد وهدم الشرك وإثبات الرسالة والبعث والجزاء وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين وأصوله ، وهى موضوعات السور المكية .

ووجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبى صلى الله عليه وسلم واخْتُتِمَتْ بها هذه ، وأن جلّ تلك فى أحوال المنافقين وما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وما كانوا يقولونه فى القرآن .

وليس التناسب بين السور سببا فى هذا الترتيب الذى بينهما ، فكثيرا ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب فى موضوع الآيات ، وقد فصل بينهما كما فعل بسورتى الهمزة واللهب وموضوعهما واحد ، وقد يُجمع بينهما تارة أخرى كما فعل بين سور الطواسين ، وسور آل حاميم ، وسورتى المرسلات والنبأ .

ومن الحكمة فى الفصل بين القوية التناسب فى المعانى ـ أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن وأبعد به عن الملل وأدعى له إلى التدبر ، ولهذه الحكمة عينها تفرق مقاصد القرآن فى السورة الواحدة كالعقائد والأحكام العملية والحكم الأدبية والترغيب والترهيب والأمثال والقصص ، والعمدة فى كل ذلك التوقيف والسماع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٢) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن العظيم ، والحكيم : ذو الحكمة، لاشتمال الكتاب عليها ، والوحى : الإعلام الخفى لامرئ بما يخفى على غيره ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف والتبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ، والصدق : يكون فى الأقوال ويستعمل فى الأفعال ، فيقال صدق فى القتال إذا وفَّاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء فى التنزيل : مقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، وقدم صدق ، ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، سحر : أى يؤثر فى القلوب ويجذب النفوس فهو جار مجرى السحر ، ومبين : ظاهر .

الإيضاح

(الر) هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة هكذا : ألف . لام ، را . والأخير منها غير مهموز ، والحكمة فى مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى مايتلى عليه بعدها لأجل العناية بفهمه حتى لايفوته شىء مما يسمع ، فهى من وادى حروف التنبيه نحو (ألا) و (ها) الداخلة على اسم الإشارة .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى تلك آيات الكتاب المحكم الذى أحكمه الله وبينه لعباده كما قال جل شأنه : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ذاك أنه كتاب أحكمت معانيه ومبانيه ، وهو هادٍ لمتدبره وواعيه .

(أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم) أى عجيب من أمرهم أن ينكروا إنزال الوحى على رجل من جنسهم ويتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون بها ويستغربون شأنها ، كأن مشاركتهم له فى البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم ، وهو

بمعنى قوله تعالى حكاية عنهم « أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً » وقوله : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » .

وهذه الشبهة التى تمسكوا بأذيالها قد سبق إليها أقوام الأنبياء قبلهم كما جاء فى قصة نوح وهود من سورة الأعراف « أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ؟ » .

وقد يكون وجه العجب كونه من أفنائهم من جهة المال كما جاء على لسانهم وحكاه الله عنهم « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وحكى عنهم أنهم قالوا : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا إلا يتيم أبى طالب .

فإن كانوا قد عنوا الأول ، فهو عجب عاجب لأن بعث الملك إنما يتسنى إذا كان المبعوث إليهم ملائكة كما قال تعالى منكرا عليهم ذلك « قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً » .

وإن كانوا أرادوا الثانى فهو أغرب منه ، لأن مدار الاصطفاء للإيحاء هو التبريز فى إحراز الفضائل ونيل المكرمات ، وللنبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك القِدْح المعلّى فقد شهر من بينهم بالأمانة والصدق وحسن السمعة وبلوغ الغاية فى الكمالات ، ولله در القائل :

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال الآخر :

ولو صورت نفسك لم تزدها ... على مافيك من كرم الطباع

وليس للتقدم فى حظوظ الدنيا ولا للسبق فى رياساتها مدخل فى ذلك لا بقبيل ولا دبير ولا قليل ولا كثير ، فليس الغنى سببا للقرب والزلفى عند الله كما قال تعالى : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى » .

(أن أنذر الناس) أى أوحينا إليه بأن أنذر الناس كافة وأعلمهم بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد الدين مع التخويف بعاقبة ماهم فيه من كفر وضلال .

(و بشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) أى و بشر الذين آمنوا بما أوحيناه إليك بأن لهم أعمالا صالحة استوجبوا بها الثواب منه تعالى ، ومنزلة رفيعة نالوها بصدق القول وحسن النية .

(قال الكافرون إن هذا لسحر مبين) أى فلما أتاهم بوحى الله وتلاه عليهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة ورسوله: إن هذا الذى جاء به محمد لسحر مبين أى ظاهر واضح يبين لكم أنه مبطل فيما يدعيه .

وجعلوه سحرا لأنه خارق للعادة فى تأثيره فى القلوب وجذبه النفوس إلى الإيمان به واحتقار الحياة ولذاتها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنه كلام مزخرف حسن الظاهر لكنه واضح البطلان فى الحقيقة .

وقد كذبوا فى تسميته سحرا ، لأن السحر ما يكون بأسباب خفية يتعلمها بعض الناس من بعض إما بالحيل والشعوذة ، وإما باستخدام خواص طبيعية علمية مجهولة للجماهير ، وإما بتأثير قوى النفس وتوجيه الإرادة ، وجميعها من الأمور التى يشترك فيها الكثير من العارفين بها ، والقرآن ليس بسحر يؤثر بالعلم والصناعة ، بل هو أقوال مشتملة على آداب عالية وتشريع حكيم فيه مصلحة للناس ، معجز فى أسلوبه ونظمه ومعانيه ، أتى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه للناس ، ولم يكن ليقدر على شىء من مثله ، و بهذا ثبت أنه نبى من عند الله ، وأن ما جاء به وحى من لدنه .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) .

شرح المفردات

الخلق : لغة التقدير ، واليوم: لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه و إن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ، والعرش: مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولا صفته، والتدبير: النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكر فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه ، والقسط : العدل ، والحميم : الماء الشديد الحرارة .

المعنى الجملى

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم، يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب ــ قفى على ذلك بذكر أمرين :

(١) إثبات أن لهذا العالم إلها قادرا نافذ الحكم بالأمر والنهى يفعل ما يشاء وهو العليم الخبير .

(٢) إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .

الإيضاح

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها فى ستة أزمنة قد تمَّ فى كل زمن منها طور من

أطوارها وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام واقتضته حكمته من الإحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، مايهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم وتطهر قلوبهم وتستنير أفئدتهم لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما لايستنكر أن هذا الوحى منه عزّ وجل ؛ إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ولا يقدر عليه سواه .

(مامن شفيع إلا من بعد إذنه) أى لايوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه ، والآية بمعنى قوله سبحانه « مَنْ ذَا الذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذْنِهِ » وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لايشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة كما قال : « يَوْمَئِذٍ لاَتَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً » ومن أذن له بالشفاعة لايشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله كما قال : « وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى » .

وفى هـذا إيماء لِدَحْض العقيدة التى كان يعتقدها مشركو العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ويجلب لهم النفع كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم « مَانَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلَى اللهِ زُلْفَى » .

وفى هـذه العقيدة حجة عليهم إذ يقال لهم ـ إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى . وهو قول عليه تعالى بغير علم ـ فما بالكم تنكرون وتعجبون أن يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلّمهم مايهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة والهادى إلى طريق الرشاد.

(ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير والتصرف فى أمر الشفاعة يأذن بها لمن يشاء ـ هو الله ربكم المتولى شؤونكم

فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولا معه أحدا لا فى شفاعة ولا غيرها ، فالشفعاء لايملكون لكم من دونه نفعا ولا ضرا ، و إنما هو الذى يملك ذلك وحده وهو قد هدا كم إلى أسباب النفع والضر الكسبية بالعقول والمشاعر التى سخرها لكم ، و إلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعا ولا ضرا إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه ، فادعوه فيه تعالى وحده يحصل لكم ما فيه ترغبون أو يدفع عنكم ما تكرهون .

(أفلا تذكرون) أى أتجهلون هذا الحق الواضح فلا تتذكرون أن الذى خلق السموات والأرض ، وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ولا يعبد سواه، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لاينبغى أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين ونشد الرحال إلى من بَعُد منهم ونتقرب إليهم بالنذور ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين نطلب منهم ماعجزنا عنه بكسبنا من دفع ضر أو جلب نفع ، وكيف لانتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها وأجلى مظاهرها كما جاء فى الأثر « الدعاء مخ العبادة » .

ولكن أكثر العلماء وجمهرة الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلا واستشفاعا ، والأسماء لاتغير من قيمة الحقائق شيئا ، فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب « مَانَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » .

(إليه مرجعكم جميعا) أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعا بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أنتم فيه لايتخلف منكم أحد .

(وعد الله حقا) أى وعد الله ذلك وعدا حقا لاخلف فيه .

(إنه يبدأ الخلق ثم يعيده) أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق و ينشئه حين التكوين ، ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه .

وقد اتفق العلماء جميعا ماديهم وروحيهم على أن الأرض وجميع الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لايزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة والقوة المتصرفة فى أصل مادتها .

وهم جميعا متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها فى هذا النظام الشمسى الجامع لها بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بسا فتكون هباء منبثا .

وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل والإعادة أهون من البدء ، فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال فى سورة الروم : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجساد الحية فى انحلال وتجدد دائمين فما ينحل منها ويبخر فى الهواء أو يموت فى داخل الجسم ثم يخرج منه تحل محله مواد حية جديدة حتى يفنى جسد كل حيوان فى سنين قليلة ويتجدد غيره .

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى إنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله ، وهذا المعنى قد جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا » وقوله : « وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » .

والعدل فى الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان كما قال : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » وقال : «قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ » .

والجزاء بالعدل لايمنع أن يزيدهم ربهم شيئا من فضله ويضاعف لهم كما وعد على ذلك فى آيات أخرى ، منها قوله : « لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » وقوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » .

(والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى إن

(٥)

الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام ، وسائر المعاصى التى يزينها لهم الشيطان و يصدهم بها عن الإيمان .

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجـــزاء المؤمنين الصالحين ، بيان منه بأنه المقصود بالذات ، إذ هو الذى يكون به منتهى كمال الارتقاء البشرى للذين زكوا أنفسهم وطهروا قلوبهم وأخبتوا إلى ربهم فيلقى مَن عمل الصالحات من النعيم المادى ماهو خال من الشوائب التى تخالطه فى نعيم الدنيا ، ومن النعيم الروحى (وهو رضوان الله الأكبر) ممالايعلم كنهه فى هذه الحياة أحد كما قال «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » وجاء فى الحديث القدسى « أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » رواه البخارى .

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيتهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ، فليس من المقاصد التى اقتضتها الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، ولكنها مقتضى العدل ومقتضى مشيئته تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) .

شرح المفردات

الضوء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبا من

غيره ، ويدل على ذلك قوله : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » والسراج : نوره من ذاته ، والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوس السحاب فهو سبعة أضواء وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه عصر التنزيل ، والتقدير: جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال : « وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ » والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الآيات الدالة على وجوده ، وهو خلق السموات والأرض على ذلك النظام المحكم - ذكر هنا أنواعا من آياته الكونية الدالة على ذلك وعلى أنه خلقها على غاية من الإحكام والإتقان ، وهو تفصيل لما تقدم وبيان له على وجه بديع وأسلوب عجيب .

الإيضاح

(هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا) أى إن ربكم الذى خلق السموات والأرض - هو الذى جعل الشمس مضيئة نهارا والقمر منيرا ليلا ، ودبر أمور معاشهم هذا التدبير البديع ، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

(وقدره منازل) أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ينزل فى كل ليلة فى واحد منها لايتجاوزها ولايقصر دونها وهى ثمانية وعشرون يرى القمر فيها بالأبصار، وليلة أو ليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

(لتعلموا عدد السنين والحساب) أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير

المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية، ولولا هذا النظام المشاهد لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر ؛ إذ حساب السنين والشهور الشمسية لايعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى الذى يعرفه كل أحد بالمشاهدة، ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع فصول السنة فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات من حارة و باردة ومعتدلة .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقوله : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » .

(ماخلق الله ذلك إلا بالحق) أى ماخلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء ، وبها يبصر الناس جميع المبصرات و يقومون بأمور معايشهم وسائر شئونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم ، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معايشهم فلا عبث فيه ولاخلل ، فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان و يعلمه البيان و يعطيه من كمال الاستعداد مالم يعط غيره ، ثم يتركه بعد ذلك سدى يموت و يفنى ولايعود و يبعث ، لتجزى كل نفس بما كسبت فيجزى المتقون بصالح أعمالهم ، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم كما قال تعالى : « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ » .

(نفصل الآيات لقوم يعلمون) أى نبين الدلائل من حِكَم الخلق على رسولنا مفصلة منوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون دلالة الأدلة و يميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات فيجزمون بأن من خلق النيّرين على هذا النظام البديع لايمكن أن يخلق الإنسان سدى .

(إن فى اختلاف الليل والنهار) أى فى حدوثهما وتعاقبهما بمجىء كل منهما خِلفَةً للآخر وفى طولها وقصرهما على حسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس، وما لهما من نظام دقيق على حسب حركة الشمس اليومية والسنوية، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل دنيوى ودينى.

(وما خلق الله فى السموات والأرض) من أحوال الجماد والنبات والحيوان، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار، وأحوال البحار من مدّ وجزر، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم المواليد الثلاثة.

(لآيات لقوم يتقون) أى لدلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان وفى تشريع العقائد والأحكام - لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين وسننه فى التشريع، فلله سنن فى حفظ الصحة مَن خالفها مرض، وله سنن فى تزكية الأنفس، فمن خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن جُوزِىَ على ذلك فى الآخرة أشد الجزاء.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ، وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠).

شرح المفردات

قال فى المصباح: رجوته: أمّلته أو أردته قال تعالى: «لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا» أى لا يريدونه، ويستعمل بمعنى الخوف لأن الراجى يخاف ألا يدرك ما يترجاه، وقيل

الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل مايسرّ وما يسوء ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة ، والاطمئنان : سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به ، والمأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية ، والدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة الأسباب المسخرة لهم ، ولله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه والضراعة له فيما لايقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع ، سبحانك : أى تنزيها لك وتقديسا ، والتحية : التكرمة بقولهم : حياك الله ، أى أطال عمرك ، والسلام : السلامة من كل مكروه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على وجوده تعالى من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وأثبت بذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم العرض والحساب ـ قفى على هذا بذكر حال من كفر به وأعرض عن البينات الدالة عليه ، وحال المؤمنين الذين عملوا الصالحات موقنين بلقاء ربهم ـ ثم ذكر جزاء كلٍّ من الفريقين .

الإيضاح

(إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها) أى إن الذين لايتوقعون لقاءنا فى الآخرة للحساب والجزاء على الأعمال لإنكارهم للبعث ، ورضوا بالحياة الدنيا بدلا من الآخرة فقصروا كل همهم من الحياة على الحصول على أغراضهم منها ، وسكنت نفوسهم إلى شهواتها ولذاتها .

(والذين هم عن آياتنا غافلون) فلا يتدبرون منها ما نزل على رسولنا وما حوته من عبر ومواعظ ومعاد وحكَم ، ولايتفكرون فى صحائف الكون وما فيها من حكمته وسننه فى الخلق ، وبهذا شاركوا الفريق الأول فى الشغل بالدنيا عن الآخرة ، ومن ثم لم يستعدوا لحسابنا وما يعقبه من نعيم مقيم ، وعذاب أليم .

(أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) أى أولئك الذين سلف ذكرهم مأواهم فى الآخرة النار جزاء ما اجترحوا من السيئات طوال حياتهم ، فهم قد دنسوا أنفسهم بشرور الوثنية وظلمات الشهوات الحيوانية فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها ، ومن ثم لايجدون ملجأ بعد هول الحساب إلا جهنم دار العذاب .

و بعد أن أبان جزاء الفريق الأول كان من الواضح أن تستشرف نفس القارئ والسامع إلى جزاء الفريق الثانى فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) أى إن الذين آمنوا بما يجب الإيمان به ولم يغفلوا عن الآيات التى غفل عنها الغافلون ورجوا لقاء ربهم وخافوا حسابه وعقابه ، يهديهم ربهم بسبب إيمانهم صراطه المستقيم فى كل مايعملون و ينتهى ذلك بهم إلى دخول الجنة التى أعدها لعباده المخبتين .

وفى هذا إيماء إلى أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الهداية والفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات .

(تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم) أى تجرى من تحت غرفهم فى الجنات ومن تحت الأشجار .

(دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى إنهم يبدءون كل دعاء وثناء عليه تعالى يناجونه به بهذه الكلمة (سبحانك اللهم) أى تنزيها وتقديسا لك يا الله ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من كل مكروه ، وهى تحية المؤمنين فى الدنيا .

وهذه التحية تكون منه عز وجل حين لقائه كما قال فى سورة الأحزاب : « تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ » ومن الملائكة لهم عند دخول الجنة كما قال : « وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ » وتكون منهم بعضهم لبعض كما قال : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا » .

وإن آخر كل حال من أحوالهم من دعاء يناجون به ربهم ، ومطلب يطلبونه من إحسانه وكرمه (الحمد لله رب العالمين) كما أنه أول ثناء عليه حين دخولها كما قال « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ » كما أنه آخر كلام الملائكة كما قال : « وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

فعلى كل مؤمن أن يستعد لها بتزكية نفسه وترقية روحه ، ويعلم أنه لن يكون أهلاً لها إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى ، لا بالتوسلات للأولياء والتمنى لشفاعتهم كما قال تعالى : « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِىِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » .

وروى عن أبىّ بن كعب مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة إذا قالوا ـ سبحانك اللهم ، أتاهم مايشتهون » وكذلك روى مثله عن بعض التابعين ـ فالكلمة إذاً علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

تعجيل الشيء: تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعود به ، والاستعجال به: طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، أو للنجاة مما هو شر منه ، وقضاء الأجل انتهاؤه، ونذر: نترك ، والطغيان: مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان ، والعمه : التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر ، ومر:أى مضى فى طريقته التى كان عليها من الكفر بربه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تعجب القوم من تخصيص محمد بالنبوة ، وأزال هذا التعجب بقوله « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ » ثم ذكر دلائل التوحيد والبعث والجزاء ـ ذكر هنا جوابا عن شبهة كانوا يقولونها أبدا وهى : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فى ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء .

وخلاصة الجواب أنه لا مصلحة لهم فى إيصال الشر إليهم إذ لو أوصله إليهم لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إماتتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك أو خرج من صلبهم من يكون مؤمنا .

الإيضاح

(ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) أى ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم فى الشر وفيما عليهم فيه مضرة فى نفس أو مال كاستعجال مشركى مكة رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب الذى أنذرهم نزوله بهم كما حكى الله عنهم من نحو قوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ » وقوله « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ، وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً » وقوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

كاستعجالهم بالخير الذى يطلبونه بدعاء الله أو بعلاج الأسباب التى يظنون أنها قد تأتى به قبل أوانه لقضى أجلهم قبل وقته الطبيعى كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم .

ولكن الله أرحم بهم من أنفسهم ، وقد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالهداية الدائمة ، وقضى بأن يؤمن به قومه العرب ويحملوا دينهم إلى العجم ، وأنه يعاقب المعاندين من قومه فى الدنيا بما فيه تأديب لهم كما بين ذلك بقوله «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ» ويؤخر عذاب سائر الكافرين إلى يوم القيامة ، ولم يقض بإهلاكهم واستئصالهم ، بل يذرهم إلى نهاية آجالهم كما قال :

(فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون) أى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان فى الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه ، ولا نعجل لهم العذاب فى الدنيا بالاستئصال حتى يأتى أمر الله فى جماعتهم بنصر رسوله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وفى أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض ، ومأواهم النار وبئس القرار ، إلا من تاب وآمن منهم ،

وقد يكون المراد : ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلونه بما يقترفونه من ظلم وفساد فى الأرض لأهلكهم كما جاء فى قوله «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» ومن هذا دعاؤهم على أنفسهم حين اليأس ، ودعاء بعضهم على بعض حين الغضب كما قال « وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » أى وما دعاء الكافرين بربهم أو بنعمه فيما يخالف شرعه وسننه فى خلقه إلا فى ضياع لا يستجيبه الله لهم لحلمه عليهم ورحمته بهم .

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) أى إن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر فيه بشدة ألم أو خطر على نفسه كغرق ومسغبة وداء عضال دعانا ملحا فى كشفه عند اضطجاعه لجنبه أو قعوده فى كِسر بيته أو قيامه على قدميه حائرا فى أمره ، ولا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ما دام يشعر بمس الضر ويعلم من نفسه العجز عن النجاة منه ، وقدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان أشد عجزا وشعوره بالحاجة إلى ربه أقوى ثم التى تليها ثم التى تليها .

(فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه) أى فلما كشفنا عنه ضره الذى دعانا إليه حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه أو بغيره من الأسباب – مرّ ومضى فى طريقه التى كان عليها من الغفلة عن ربه والكفر به كأن الحال لم تتغير ولم يدعنا إلى شىء ولم نكشف عنه ضرا .

(كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) أى مثل هذا الطريق من معرفة الله والإخلاص فى دعائه وحده فى الشدة ، ونسيانه والكفر به بعد كشفها ، زين للمشركين من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك ، حتى بلغ من عنادهم للرسول صلى الله عليه وسلم واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه به فقالوا اللهم ربنا أمطر علينا حجارة من السماء .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) .

شرح المفردات

القرون : الأمم ، واحدها قرن ، وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وجاء فى الحديث الشريف « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم » ، والخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، وننظر : نشاهد ونرى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة أنهم كانوا يتعجلون العذاب ، وذكر أنه لاصلاح لهم فى إجابة دعائهم، ثم ذكر أنهم كاذبون فى هذا الطلب إذ لو نزل بهم الضر جأروا وتضرعوا إلى الله فى كشفه و إزالته .

بين هنا ما يجرى مجرى التهديد ، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال كما حدث للأمم قبلهم حتى يكون ذلك رادعا لهم وزاجرا عن هذا الطلب .

الايضاح

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الخطاب إلى قوم النبى صلى الله عليه وسلم وأهل وطنه مكة ، أى لقد أهلكنا كثيرا من الأمم قبلكم بسبب ظلمهم. والآية بمعنى قوله «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا» وهلاك الله للأمم بالظلم ضربان :

(١) ضرب بعذاب الاستئصال للأقوام الذين بعث الله تعالى فيهم رسلا لهدايتهم بالإيمان والعمل الصالح كقوم نوح وعاد وثمود ، فعاندوا الرسل فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيئهم بالآيات الدالة على صدقهم .

(٢) ضرب بعذاب هو مقتضى سنته تعالى فى نظم الاجتماع البشرى ، فالظلم مثلا سبب لفساد العمران وضعف الأمم ، ولاستيلاء القوية على الضعيفة كما قال «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ» ـ وهو إما ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف فى الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق و إما ظلم الحكام الذى يفسد بأس الأمة وَيَهِنُ من قوتها .

(وجاءتهم رسلهم بالبينات) أى أهلكناهم لما ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالبينات الدالة على صدقهم .

(وما كانوا ليؤمنوا) أى وما كان من شأنهم ولا من مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لأنهم قد مرنوا على الكفر وصار ديدنهم حب الشهوات واللذات من الجاه والرياسة والظلم والفسق والفجور .

(كذلك نجزى القوم المجرمين) أى ومثل هذا العذاب الشديد وهو الاستئصال نجزيه لكل قوم مجرمين .

وفى هذا وعيد شديد لأهل مكة على تكذيبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

(ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم) أى ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعد أولئك الأقوام بما آتيناكم فى هذا الدين من أسباب الملك والحكم إذ فى شريعتكم ما به سعادة الأمة فى دينها ودنياها .

وفى الآية بشارة لهذه الأمة بأنها ستخلفهم فى الأرض إذا آمنت به واتبعت النور الذى أنزل معه كما قال « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » ولقد صدق الله وعده فملكهم ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة وكثير من الأمم غيرها .

(لننظر كيف تعملون) أى لنرى ماذا تعملون فى خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، كما قال « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » وجاء فى الأثر « إن الدنيا خضرة حلوة ، و إن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » وقال قتادة : صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا بالليل أو النهار .

وفى ذلك إيماء إلى أن هذه الخلافة منوطة بالأعمال حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باق لهم وأنهم يتفلتون من سننه تعالى فى الظالمين .

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
(١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا
أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) .

المعنى الجملى

بعد أن بدأ الله السورة بذكر الكتاب الحكيم وإنكار المشركين الوحى على رجل منهم ثم أقام الحجة على الوحى والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ـ أعاد هنا الكلام فى شأن الكتاب نفسه وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنه ، وحجته البالغة عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى .

الايضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدّله) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب من البيان دالات على الحق ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم، وهو الرسول الله صلى الله عليه وسلم : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما لانؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها ، أو بدّله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سوره فى أسلوبها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم وتكفير آبائهم

حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه دعوى لايعول عليها، وكان قصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان خفيت عليهم أسباب معرفته ، ولم يكن بوحى من الله كما يزعمه .

(قل ما يكون لى أن أبدّله من تلقاء نفسى) أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ومحض رأيى وخالص اجتهادى .

(إن اتبع إلا مايوحى إلىّ) أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلىّ والاهتداء بهديه ، فإن بدّل الله منه شيئا بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما علىّ إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله :

(إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) أى إنى أخاف إن فعلت أىّ عصيان ، عذابَ يوم عظيم الشأن، ألا وهو يوم القيامة،فكيف بى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغيير لأهميته بقوله :

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) يقال دريته ودريت به ، أى علمته ، أى لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره وتنفيذ مشيئته ، ولو شاء ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسلنى ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمنّ عليكم بهذا العلم النافع لتهتدوا به وتكونوا بهدايته خلائف فى الأرض وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » فهو قد أنزله عالما بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

(فقد لبثت فيكم عمراً من قبله) أى فقد مكثت بين ظهرانيكم عمرا طويلا من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم سورة من مثله ولا آية تشبه آياته لا فى العلم والهداية ولا فى البيان والبراعة .

(أفلا تعقلون) أى أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتابا ولم يلقن من أحد علما ولم يتقلد دينا ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ولا نثر ولا خطابة ولا فخر ولا علم ولا حكمة لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون علىّ أن آتى بقرآن غيره .

وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شىء من العلم كما قال تعالى فى موسى « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً » وقال فى يحيى « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » .

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيئان :

(١) افتراء الكذب على الله ، وهو ما اقترحوه عليه بجحودهم .

(٢) التكذيب بآيات الله وهو ما اجترحوه من السيئات .

وقد نعيت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه ، وإنّ أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

(إنه لا يفلح المجرمون) أى لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا إذا لقوا ربهم ولا ينالون الفلاح .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ؛ لأن فيه نبذا لآلهتهم وطعنا فيها وتسفيها لآرائهم فى عبادتها — نعى عليهم هنا عبادة الأصنام و بين لهم حقارة شأنها إذ لا تستطيع نفعا ولا ضرا ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة عنده وليس لديهم برهان على ما يدّعون ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

الايضاح

(و يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) أى و يعبدون ما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا من الأصنام وغيرها حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه و يعبدون معه غيره كما قال تعالى « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

وفى الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها القدرة على الضر والنفع ، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده وضرّ من يشرك بعبادته غيره فى الدنيا والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر فى كل طور من أطواره على أن كل ما عبده من دون الله من صنم أو وثن فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلتّ عليها السويق ثم عُظِّمت حتى عُبِدَتْ ، أو الأشجار كالعُزّى معبودة قريش .

(و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) أى و يقولون فى سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى ،

وهؤلاء شفعاء عنده ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ونطيبها بالعطر ونقدم لهم النذور ونهلّ لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم يشفعون لنا عند الله ويقربوننا إليه زلفى ويدفعون بجاههم عنا البلاء ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عِكْرمة أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزّى .

فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لا بد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصى ـ أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده تائبا إليه طالبا مغفرته ورحمته .

(قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) أى قل لهم أيها الرسول مبينا لهم كذبهم ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم: أتخبرون الله بشىء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فإذا هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وأنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ولا ضر من شاء أو كشف ضر عنه كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له .

وفى هذا حجة أيما حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء

الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء، فهم يضرون وينفعون لا كالأصنام ، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعا بعبادتهم له مع ما آتاه من المعجزات ، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى وسيدنا الحسين والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده وشفاعة لديه تقرب إليه زلفى، ففى هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيماء إلى أن شئون الرب وسائر ما فى عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحى ، ومن ذلك اتخاذ الشفعاء والوسطاء عنده ، فيكون كفرا صراحا .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام ، وبين سبب هذه العبادة ـ ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

الايضاح

(وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا) أى إن الناس جميعا كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ثم اختلفوا فى الأديان ، وإلى ذلك الإشارة

بقوله عليه السلام « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم و إزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضا بغيا بينهم واتباعا لأهوائهم .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون) أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين .

وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولاسيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ورد عليهم مقالتهم بالحجج التى تثبت بطلان شركهم و إنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول صلى الله عليه وسلم بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله ـ حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ثم رد على ذلك .

الإيضاح

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون : هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كونية كآيات الأنبياء الذين يحدثنا

عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لأن كلا منهما سبق مفصلا فى سور أخرى كقوله فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة مطلبهم فقال : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ » .

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى وما صرفنا من إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية وأنه هو رحمة للعالمين، وفيهم من يؤمن أو يولد له من يؤمن، وقد آتى الله رسوله صلى الله عليه وسلم آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها كاستجابة بعض أدعيته صلى الله عليه وسلم كشفاء المرضى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر .

وعلى الجملة فحجة النبى صلى الله عليه وسلم على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلومه.

روى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة مرفوعا « ما من نبى إلا وقد أعطى

من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

(قل إنما الغيب لله) أى إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من الغيب الذى لايعلمه إلا الله ولا علم لى به ، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلىّ .

(فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) لما يفعله الله بى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَايُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » وقد جاء تفسير ماينتظره وينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة « فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ » .

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ونصر الرسل عليهم فى الدنيا وما وراءها من عذاب الآخرة .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى

أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) .

شرح المفردات

أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ، والمكر : التدبير الخفىّ الذى يفضى بالممكور به إلى ما لايتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ، والرسل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ، والتسيير : جعل الشىء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه مايسير عليه من دابة أو سفينة ، والفلك : السفينة أو السفن واحد وجمع ، والطيب : من كل شىء مايوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة ، والعاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرها ، يقال ريح عاصف وعاصفة ، وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيَسُدّ عليه سبل النجاة ، والبغى : مازاد على القصد والاعتدال ، من بغى الجرح إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جوابا عن هـذا بأنه مما لا يملك ذلك لأن هذا من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، قفى على ذلك هنا بجواب آخر ، وهو أن أولئك المشركين لايقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيرا ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمكرون فيها ولا تزيدهم إلا ضلالا .

الإيضاح

(و إذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا) أى و إذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ورخاء بعد شدة أصابتهم ، بادروا إلى المكر وأسرعوا بالمفاجأة به فى مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطرا أحيا الأرض وأنبت الزرع ودرّ به اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، و إذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، و إذا كان سببها دعاء نبىّ أنكروا إكرام الله له ، وتأييده بها كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام فما زادهم ذلك إلا كفرا وجحودا . روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن قريشا لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد وحتى جعل أحدهم يرى ماينه و بين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » فجاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، و إن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ومُطِروا فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون فى آيات الله و يعادون رسوله صلى الله عليه وسلم و يكذبونه .

(قل الله أسرع مكراً) أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرا ، فهو قد دبّر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون فى إطفاء نور الإسلام ، وقدسبق فى تدبيره لأمور العالمَ وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لاتخفى عليه خافية .

(إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ماتمكرون به .

وفى ذلك تنبيه إلى أن مادبروا ليس بخاف عليه تعالى، و إلى أن انتقامه واقع بهم لامحالة.

وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها ، و إنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكيما فى إحصاء أعمالنا لأجل أن نراقبه فيها فنلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب أضدادها .

ثم ضرب مثلا من أبلغ أمثال القرآن ليظهر حالهم و يتضح به ماهم عليه فقال :

(هو الذى يسيركم فى البر والبحر) أى إنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب ، وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجو .

(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتية لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بماهم فيه من راحة وانتعاش وتمتع بمنظره الجميل وهوائه العليل ـ جاءت ريح شديدة قوية فاضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحى بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لامحالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر حتى كأنهم سقطوا فى هاوية إذا به يثب بهم إلى أعلى كأنهم فى قمة الجبل الشاهق ـ فإذا ما نزلت بهم نذر العذاب وتقطعت بهم الأسباب دعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ماحل بهم ولا يتوجهون معه إلى ولى ولا شفيع ممن كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء . وقد صمموا العزيمة على طاعته وقالوا ربنا لئن

أنجيتنا من هذه التهلكة لنكونن من جماعة الشاكرين ، ولا نتوجه فى تفريج كروبنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولىّ ولا نبىّ .

وفى الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن من لايحصى عددهم من المسلمين فى هذا العصر لايدعون حين أشد الأوقات حرجا إلا الميتين من الأولياء والصالحين ، كالسيد البدوى والرفاعى والدسوقى والمتبولى وأبى سريع وغيرهم ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك .

قال السيد حسن صديق الهندى فى تفسيره «فتح الرحمن» : فياعجبا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع . فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية وأين وصل بها أهلها وإلى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ولا فى بعضه من عباد الأصنام « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» اهـ .

وقال الألوسى فى تفسيره : وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير وخطب جسيم فى برّ أو بحر دعوا من لايضر ولاينفع ، ولايرى ولايسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترى فيهم أحدا يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمرّ له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى الفريقين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قيلا ، وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للنجاة ذريعة ، وخرقت سفينة الشريعة اهـ .

(فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) أى فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس فى الأرض التى يعيشون فيها بالبغى عليهم والظلم لهم مع الإمعان فى ذلك والإصرار عليه .

وفى قوله : بغير الحق ـ تأكيد للواقع وتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، أولبيان أنه بغير حق عندهم أيضا بأن يكون ظلما ظاهرا لايخفى على أحد قبحه كما جاء فى قوله: « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ » .

وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة فى أى مكان كانوا وفى أى زمان وجدوا منبها واعظا فقال :

(يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) أى يأيها الغافلون عن أنفسكم أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم فى الحقيقة على أنفسكم لأن عاقبة وباله عائدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة وهى تنقضى سراعا ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

(ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم والتمتع بالباطل ونجازيكم به .

وفى الآية إيماء إلى أن البغى مجزىّ عليه فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلقوله : إنما بغيكم على أنفسكم ، ولما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى « مامن ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع مايدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » ، والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى ، ثم تلا : (يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) ـ (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) ـ (ومن نكث فإنما ينكث على نفسه) » .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .

والخلاصة — إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه ـ لما يولد من العداوة والبغضاء بين الأفراد ويوقد نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوا أو أعداء ممن يبغى عليهم .

ولا شك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرون عليها ـ وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع

الحنق والغضب ما لايخفى عليه فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة فى النفوس .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

لما كان سبب بغى الناس فى هذه الدنيا هو إفراطهم فى حبها والتمتع بزينتها - ضرب لذلك مثلا يصرف العاقل عن الغرور بها ويرشده إلى الاعتدال فى طلبها والكف عن التوسل فى الحصول على لذاتها بالبغى والظلم والفساد فى الأرض - فشبه حال الدنيا وقد أقبلت بنعيمها وزينتها وافتتن الناس بها بعد أن تمكنوا من الاستمتاع بها ، ثم أسرع ذلك النعيم فى التقضى وانصرم غبّ إقباله واغترار الناس به ، بحال ما على الأرض من أنواع النبات يسوق الله إليها المطر فيلتفّ بعضها على بعض وتصبح بهجة للناظرين ثم لاتلبث أن تنزل بها فجأة جائحة تستأصلها وتجعلها حطاما كأن لم تكن بالأمس .

الإيضاح

(إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام) أى إنما صفة الحياة فى صورتها ومآلها كصفة ماء نزل من السماء

فأنبتت به الأرض أزواجا شتى من النبات تشابكت واختلط بعضها ببعض على كثرتها واختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى تكفى الناس فى أقواتهم ومراعى أنعامهم .

(حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أى حتى كانت الأرض بها فى خضرتها السندسية وألوان أزهارها المختلفة كعروس حليت بالذهب والجواهر والحلل المختلفة الألوان ذات البهاء والبهجة ، وازينت بها فى ليلة زفافها ، وظن أهلها أنهم قادرون على التمتع بثمراتها متمكنون من ادخار غلاتها .

(أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) أى نزل بها فى تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها فجاءتها جائحة وضرب زرعها بعاهة كجراد أو صقيع شديد أو ريح سموم ليلا وهم نائمون ، أو نهارا وهم غافلون فجعلناها كالأرض المحصودة التى قطعت واستؤصل زرعها ولم يبق منه شىء ، أو كأنها لم تنبت ولم تكن زروعها نضرة بالأمس .

وجاء هذا المعنى فى قوله : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) أى كهذا المثل الواضح الذى يمثل حال الدنيا وغرور الناس بها مع سرعة زوالها وتعلق الآمال بها ـ نفصل الآيات الدالة على حقيقة التوحيد وأصول التشريع والآداب والمواعظ وتهذيب الأخلاق . وكل ما فيه صلاح للناس فى معاشهم ومعادهم لمن يستعمل عقله ويزن أعماله بموازين الحكمة .

وقد غفل الناس عن الهداية بهذه الآيات وأمثالها . وقد اهتدى بها الشعب العربى فخرج من خرافة شركه إلى نور التوحيد والعلم والحضارة . ثم اهتدى بدعوته الملايين من الشعوب الأخرى فشاركوه فى السعادة والنعيم ، ولم يكن للمسلمين الآن حظ منها إلا التمتع بحسن ترتيلها فى بعض المواسم والمآتم ولم يخطر لهم ببال أن يتدبروا معانيها وأن يهتدوا بهديها ـ وهم لو فعلوا ذلك لعلموا أن كل ما يشكو منه الناس من

العداوات القومية والحروب الدولية والرذائل النفسية . والشقاء الذى عمت جرثومته البشر ، إنما سببه التنافس فى متاع هـــذه الحياة ، ولو التزموا القصد والاعتدال فى مطالبهم منها وصرفوا همتهم فى قوة الدولة و إعلاء كلمة الله والاستعداد للآخرة لسعدوا فى الدارين ونالوا رضا الله فى الحالين .

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) .

شرح المفردات

دار السلام : هى الجنة ، والسلام : السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار ، ورهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : « وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا » أى لاتكلفنى ما يشق على و يعسر ، والقتر : الدخان الساطع من الشواء والحطب ، و كذا كل غبرة فيها سواد ، والعاصم : المانع .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه غرور المشركين الجاهلين بمتاع الدنيا وضرب لهم الأمثال على ذلك ـ قفى على هــذا بالترغيب فى الآخرة ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها فقال :

الإيضاح

(والله يدعو إلى دار السلام) أى ذلك الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو مايدعو إليه الشيطان ، فيوقع متبعيه فى جهنم دار النكال والوبال ، والله يدعو عباده إلى دار السلام ، إذ يأمرهم بما يوصل إليها .

(ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) أى ويهدى من يشاء إلى الطريق الموصل إليها بلا تعويق ، لأنه طريق مستقيم لاعوج فيه وهو الإسلام : عقائده وفضائله وأحكامه .

وأصل الهداية الدلالة بلطف ، وهى إما بالتشريع ببيانه وتفصيله للناس عامة ، وإما بالتوفيق للسير على سنن الدين والاستقامة عليه، وهى خاصة بالمستعدين للعمل به ، ومن ثم قيدها بالمشيئة .

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) أى للذين أحسنوا أعمالهم فى الدنيا المثوبة الحسنى : أى التى تزيد فى الحسن على إحسانهم وهى مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر وجاء هذا المعنى فى قوله : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » أى ولهم زيادة على هذه الحسنى فوق مايستحقون على أعمالهم بعد مضاعفتها.

وقد ورد من طرق عدة أن هذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم وذلك هو أعلى مراتب الكمال الروحى الذى لايصل إليه إلا المحسنون العارفون فى الآخرة .

(ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) أى ولا يغشى وجوههم شىء مما يغشى الكفرة من الغبرة التى فيها سواد ولا أثر هوان ولا كسوف بال .

(أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم أصحاب الجنة وسكانها وهم ساكنون فيها أبدا فهى لاتبيد فيخافوا زوال نعيمهم ولا هم بمخرجين منها فتتنغص عليهم لذاتهم .

(والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) أى والذين عملوا السيئات فى الدنيا فعصوا الله فيها وكفروا به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، جزاء سيئة من عملهم السىء الذى عملوه فى الدنيا بمثلها من عقاب الله فى الآخرة جزاء وفاقا ، ولايزادون على مايستحقونه من العذاب شيئا .

(وترهقهم ذلة) أى تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزى بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور .

(مالهم من الله من عاصم) أى مالهم من الله من مانع يمنعه إذا هو عاقبهم أو يحول بينه وبينهم ، كالذين اتخذوهم فى الدنيا شركاء وزعموهم شفعاء ، فذلك هو اليوم الذى تتقطع فيه الأسباب التى كانت تفيد فى الدنيا « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما) أى كأنما ألبست وجوههم قطعا من أديم الليل حال كونه حالكا مظلما لابصيص فيه من نور القمر الطالع ولا النجم الثاقب فتشقها قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى أولئك الذين لهم تلك الصفات هم أصحاب النار هم فيها خالدون لايبرحونها لأنه ليس لهم مأوى سواها ، وقد جاء فى معنى هـذه الآيات فى وصف الفريقين قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » وقوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)
هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)

شرح المفردات

الحشر: الجمع من كل جانب إلى موقف واحد، ومكانكم: كلمة يراد بها التهديد والوعيد، أى الزموا مكانكم، وزيلنا: فرقنا وميزنا، وتبلو: تختبر، وأسلفت: قدمت، وضل: ضاع وذهب.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه وتعالى جزاء الذين كسبوا السيئات وما يكون لهم من الذلة والهوان - قفى على ذلك بذكر اليوم الذى يحصل فيه هذا الجزاء.

الإيضاح

(ويوم نحشرهم جميعا) أى واذكر أيها الرسول الكريم لكلا الفريقين الذين أحسنوا الحسنى، والذين كسبوا السيئات - يوم نحشرهم جميعا بلا تخلف أحد فى موقف الحساب.

(ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم) أى ثم نقول لمن أشرك منهم بعد طول مكث لا يكلمون بشىء - الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم إياهم والحجة التى يدلى بها كل فريق منكم.

وفى هذا وعيد شديد وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد وتقريع بكون هذا منعظم سيئاتهم.

(فزيلنا بينهم) أى ففرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله سبحانه وتعالى،

وميزنا بعضهم من بعض ، كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، ويراد بهذا التفريق تقطيع ما كان بينهم فى الدنيا من صلات وروابط وخيبة ما كان للمشركين فى الشركاء من آمال .

(وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) أى وقال شركاؤهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة ، وإنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم التى كانت تغويكم ، وتتخذون تماثيلنا هيا كل لمنافعكم وأغراضكم ، والمعبود الحق هو الذى يعبد لأنه صاحب السلطان الأعلى على الخلق وبيده النفع والضر .

(فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) أى فكفى الله شهيدا وحكما بيننا وبينكم ، فهو العليم بحالنا وحالكم .

(إن كنا عن عبادتكم لغافلين) أى إننا كنا فى غفلة عن عبادتكم لا ننظر إليها ولا نفكر فيها .

(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أى فى موقف الحساب تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ، ومؤمنة وجاحدة ، ما قدمت فى حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها فى صفاتها من أثر ، خير أو شر ، بما ترى من الجزاء عليه فهو ثمرة طبيعية له لا شأن فيه لولىّ أو شفيع ولا معبود ولا شريك .

(وردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ارجعوا إلى الله الذى هو مولاهم الحق ، دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الأولياء ، والشفعاء ، والأنداد والشركاء .

وقد جاء هذا المعنى فى آيات كثيرة كقوله « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ » وقوله « وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ » .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وضاع عنهم ما كانوا يفترون عليه من الشفعاء والأولياء ، فلم يجدوا أحدا ينصرهم ولا ينقذهم من هول ذلك الموقف كما قال : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » وقد تكرر هذا المعنى فى آيات

كثيرة ، منها ما جاء مجملا ، ومنها ما جاء مفصلا ، فمنها مايسأل الله فيه العابدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) .

المعنى الجملى

بعد أن بين جنايات المشركين على أنفسهم و بين فساد معتقداتهم وما سيلقونه من الجزاء على مافعلوا ــ قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن :

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ، ومن الأرض بما ينبته من شتى النباتات من نجم وشجر تأكلون منه وتأكل أنعامكم .

(أم من يملك السمع والأبصار) أى قل لهم من يملك ماتتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأنتم بدونهما لاتدرون شيئا من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيرا منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية وكمال الحياة الإنسانية إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

وخلاصة ذلك — مَن خلق هذه الحواس ووهبها للناس وحفظها مما يعتريها من الآفات ، ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لا حاجة إلى الفكر فيه ، فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علما وإعجابا بإنعام الله بهما ، وإيمانا بأنه لايقدر غيره على إيجادهما .

(ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من المخلوقات وما لاتعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميتة بعد إحيائه إياها بماء المطر النازل عليها من السماء كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ » .

وعلامة الحياة فى النبات النموّ ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة ، ولم يكونوا يصفون أصول الأحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه ، ومن ثم مثلوا إخراج الحى من الميت والميت من الحى بخروج النخلة من النواة والطائر من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته لدى المخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبذور والنوى والبيض والمنىّ حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ثم تكوّن من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى ، وقالوا أيضا إن الغذاء من الطعام الميت الذى يحرق بالنار ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتملان على مادة الحياة ، وقالوا أيضا: إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما مما يفرزه البدن ، وتتجدد فيه مواد جديدة تحل محل ما خرج منها وفنى .

والخلاصة — إن علماء المواليد قالوا : الحى لايخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته المحيي لغيره .

(ومن يدبر الأمر) أى ومن يلى تدبير أمر الخليقة جميعا بما أودعه فى كل منها من السنن وقدّره من النظام .

(فسيقولون الله) أى فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تعلثم ولا تلكؤ بأنّ فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه - إذ لاجواب غيره وهم لايجحدون ذلك ولا ينكرونه .

(فقل أفلا تتقون) أى فقل لهم أيها الرسول الكريم : أفلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشرككم وعبادتكم لغيره ممن لايملك لكم ضرا ولا نفعا .

(فذلكم الله ربكم الحق) أى فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربى لكم بنعمه والمدبر لأموركم ، وهو الحق الثابت بذاته الحى المحيي لغيره المستحق للعبادة دون سواه .

(فماذا بعد الحق إلا الضلال) أى فماذا بعد الرب الحق الثابتة ربوبيته إلا الضلال أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى، وما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال .

(فأنى تصرفون) أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

(كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وحدة الربوبية والألوهية ، وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال - حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية وهداية الدين الحق .

(أنهم لايؤمنون) أى هى أنهم لايؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن الآية بينة ، والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة واستقلال العقل فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال لرسوخهم فى الكفر ، واطمئنانهم به بالتقليد كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من الحجة أقامه سبحانه دليلا على توحيده و بطلان الإشراك به جاء بطريق السؤال للتوبيخ و إلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهرا جليا ، ثم ذكر على سبيل الاستفهام ، وتفويض الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

الإيضاح

(قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده) أى قل لهم أيها الرسول: هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما تزعمون، أو الكواكب السيارة أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن، من له هذا التصرف فى الكون ببدء الخلق فى طور ثم إعادته فى طور آخر.

ولما كانوا لايجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم للبعث والمعاد، لَقَّنَ الله رسوله الجواب فقال:

(قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) إذ القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالأولى، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية دون الأحياء النباتية، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات فى الأرض حين مايصيبها ماء المطر فى فصل الشتاء وموته بجفافها فى فصل الصيف والخريف، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة، لأنهم يشاهدون كلا منهما وهم لايسلمون إلا بما يرون بأعينهم أو يلمسونه بأيديهم قال:

(فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون من الحق الذى لامحيد عنه، وهو التوحيد إلى الضلال البيِّن، وهو الإشراك وعبادة الأصنام، وذلك من دواعى الفطرة وخاصة العقل حين تفكيره فى المصير.

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره إلزاما لهم عقب الإلزام الأول، فسألهم عن شأن من شئون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية فقال:

(قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق) أى قل لهم أيها الرسول: هل من أولئك الشركاء من يهدى إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها تتم حكمة الخلق. كما يدل على ذلك قوله (رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

والهداية أنواع — هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان، وهداية الحواس من سمع و بصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين ، وهو للنوع البشرى فى جملته بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق وتسهيل سبله ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدّعوا أن أحدا من أولئك الشركاء يهدى إلى الحق لا من ناحية الخلق ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

(قل الله يهدى للحق) أى قل هو الله سبحانه الذى يهدى إلى الحق دون غيره بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل وأنزل من الكتب وهدى إلى النظر والتدبّر وأعطى من الحواس .

(أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى) قرأ يعقوب وحفص يهدى بكسر الهاء ، وتشديد الدال وأصله يهتدى ، أى أفمن يهدى إلى الحق وهو الله أحق أن يتبع فيما يشرعه ، أم من لا يهدى غيره ولا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى إذ لا هادى غيره .

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء — المسيح عيسى بن مريم وعُزَير والملائكة . وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى فى سورة الأنبياء « وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا » .

(فما لكم كيف تحكمون ؟) أى أىّ شىء أصابكم وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم و بين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواه ، كيف تحكمون بجواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه .

وفى هذا تعجيب من حالهم وسوء صنيعهم وقبيح فعلهم .

(وما يتبع أكثرهم إلا ظنا) و بعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية، بيّن حال المشركين الاعتقادية ، وهى أن أكثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم

لغير الله ، ولا فى إنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام إلا ضربا من ضروب الظن قد يكون ضعيفا كأن يقيسوا غائبا على شاهد ومجهولا على معروف ويقلدون الآباء اعتقادا منهم أنهم لايكونون على باطل فى اعتقادهم، ولا ضلال فى أعمالهم.

وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق والهدى وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لاتضر ولا تنفع ، ولكنهم يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله صلى الله عليه وسلم عنادا واستكبارا وخوفا على زعامتهم أن تضيع سدى فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

(إن الظن لايغنى من الحق شيئا) الحق هو الثابت الذى لاريب فى ثبوته وتحققه ، أى إن الشك لايقوم مقام اليقين فى شىء ، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

وخلاصة ذلك — إن الظن لايجعل صاحبه غنيا بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك كالعقائد الدينية .

(إن الله عليم بما يفعلون) أى إن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالتقليد باتباع الآباء والأجداد .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق هو ما كان قطعيا من كتاب أو سنة، وهو الدين الذى لايجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لايفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى القضاء مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءانُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده، وأن محمد صلى الله عليه وسلم عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم واتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه فى عقائدهم ـ عاد إلى الكلام فى تفنيد رأيهم فى الطعن على القرآن بمقتضى هـذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من الأقلين كالزعماء والمستكبرين .

الإيضاح

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه وينسبه إليه ، إذ لا يقدر على ذلك غيره عزّ وجل ، فإن ما فيه من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وأنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة ، وجعل المقصد من كل ذلك هو اتباع الحق واجتناب الضلال ، والوصول بذلك إلى العلم الصحيح ـ ليس فى طوق البشر ولا هو داخل تحت قدرته وفى حيز مكنته ، ولئن سلم أن بشرا فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئا .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أبو جهل قال : إن محمدا لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب الله ؟

(ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحى لرسل الله تعالى بالإجمال كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم بدعوته إلى أصول الدين الحق من الإيمان بالله واليوم الآخر وصالح الأعمال بعد أن نسى بعض هذا بقية أتباعهم وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النبى الأمى يعلم شيئا من ذلك لولا الوحى عن ربه .

(وتفصيل الكتاب) أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع .

(لاريب فيه) أى لاينبغى لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه ، لأنه الحق والهدى .

(من رب العالمين) أى من وحيه لا افتراء من عند غيره ولا اختلاقا كما قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

و بعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا: إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد افتراه وفند مزاعمهم وتعجب من حالهم وشنيع مقالهم وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى ما كان ينبغى أن تقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم افتراه من عند نفسه واختلقه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنى اختلقته وافتريته ، فأتوا بسورة مثله فى نظمه وأسلوبه وعلمه مفتراة فى موضوعها لاتلتزمون أن تكون حقا فى أخبارها ، فإن لسانى لسانكم ، وكلامى كلامكم ، وأنتم أشد مرانا واعتقادا للنثر والنظم منى ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله ، ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا ، فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريته .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمرسكم ، ولم يوجد فى كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر فى سوق عكاظ، وبهم دارت رحى النظم والنثر، وتقضت أعمارهم فى الإنشاء والإنشاد مثله - فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقُدَر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله صلى الله عليه وسلم أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقنا أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هـذا القرآن فى جملته ولا بسورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذ كاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة — إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان على يقين بأنه من عند ربه ، وأنه صلى الله عليه وسلم كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه فى القرآن بتحدّيه لهم - إلى إظهار بطلانه ببيان أن كلامهم ناشئ من عدم علمهم بحقيقة أمره واختبار حاله فقال :

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) أى هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا مافيه ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آنفا ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله .

(ولما يأتهم تأويله) أى ولم يأتهم إلى الآن مايئول إليه ويكون مصداقا له بالفعل ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلة .

وخلاصة ذلك — إنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب - قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره أو ينتظروا وقوع ما أخبر به -

وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله - شناعة وقصر نظر لاتخفى على عاقل ، وفيه دليل على أنهم مقلدون .

(كذلك كذب الذين من قبلهم) أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذى أوعدهم به .

(فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم وهو تأويل وعيدهم لهم لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هى التى بينها الله فى قوله : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

وقد أنذر الله قوم محمد صلى الله عليه وسلم بمثل ما نزل بالأمم قبلهم فى الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أنذرهم عذاب الآخرة وكذبه المعاندون المقلدون فى كل ذلك ظنا منهم أنه لايقع .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤١)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فى الآية السالفة أنهم كذبوا بالقرآن قبل أن يأتيهم تأويله وقبل أن يحيطوا بعلمه - قفى على ذلك بذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع ، وبين أنهم حينئذ يكونون فريقين : فريق يؤمن به ، وفريق يستمر على كفره وعناده .

الإيضاح

(ومنهم من يؤمن به) أى ومن هؤلاء المكذبين من يؤمن به حين إتيان تأويله وظهور حقيقته بعد أن سعوا فى معارضته ورازوا قواهم فيها فتضاءلت دونها .

(ومنهم من لايؤمن به) أى ومنهم من يصر على الكفر ويستمر عليه .

(وربك أعلم بالمفسدين) أى وربك أعلم بمن يفسدون فى الأرض بالشرك والظلم والبغى لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وهؤلاء سيعذبهم فى الدنيا ويخزيهم وينصركم عليهم ويجزيهم فى الآخرة لفسادهم وسوء معتقداتهم .

(وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم) أى وإن أصروا على تكذيبك فقل لى عملى ، وهو البلاغ المبين والإنذار والتبشير ، وما أنا بمسيطر ولا جبار ، ولكم عملكم وهو الظلم والفساد الذى تجزون به يوم الحساب كما قال تعالى : « هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ » .

(أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) أى لاتؤاخذون بعملى ولا أؤاخذ بعملكم ، وهذا كقوله : «قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي، وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ».

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن أنبأ الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن من قومه من لايؤمن به لا حالا ولا استقبالا ، بل يصرون على التكذيب بعد ما جاءتهم البينات ، وكان ذلك من

شأنه صلى الله عليه وسلم أن يثير عجبه ويجعله يطيل الحزن والأسف إن لم يؤمنوا بهذا الحديث - ذكر سبب هذا ، وهو أنهم قوم طبع الله على قلوبهم وفقدوا الاستعداد للإيمان فلا وسيلة له صلى الله عليه وسلم فى إصلاح حالهم ولاقدرة له صلى الله عليه وسلم على هدايتهم .

الإيضاح

(ومنهم من يستمعون إليك) أى ومن المكذبين ناس يصيخون بأسماعهم إذا قرأت القرآن أو بينت ما فيه من أصول الشرائع والأحكام ، ولكنهم لايسمعون إذ يستمعون ، فهم لايتدبرون القول ولايتفقهون مايراد منه ، بل جلّ همهم أن يتسمعوا غرابة نظمه وجرس صوته بترتيله ، كمن يستمع إلى الطائر يغرد على غصن الشجرة ليتلذذ بصوته لا ليفهم ما يغرد به ، وقد وصف الله حالهم فى آى أخرى فقال : «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ. لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» وقال : « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً » .

والآن نرى من المسلمين من يستمع إلى قراءة القرآن من قارئ حسن الصوت للتلذذ بترتيله وتوقيع صوته لا لينتفع بعظاته وعبره ، ولا ليفهم عقائده وأحكامه .

(أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون) أى إن السماع النافع للمستمع هو الذى يعقل به مايسمعه ويفقهه ويعمل به ، ومن فقد هذا كان كالأصم الذى لايسمع ، وإنك أيها الرسول الكريم لم تؤت القدرة على إسماع الصم الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة فكذلك لاتستطيع أن تسمع إسماعا نافعا مَن فى حكمهم وهم الذين لايعقلون مايسمعون ولايفقهون معناه فيهتدوا به وينتفعوا بعظاته .

(ومنهم من ينظر إليك) أى ومنهم من يتجه نظره إليك حين تقرأ القرآن ،

ولكنه لايبصر ما آتاك الله من نور الإيمان والخلُق العظيم وأمارات الهدى والتزام الصدق .

(أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون) أى إنك أيها الرسول الكريم كما لاتقدر على هداية العُمى بدلائل البصر الحسية ، لاتقدر على هدايتهم بالدلائل العقلية ، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التى تدركها .

وخلاصة ما تقدم — إن هداية الدين كهداية الحس لا تكون إلا للمستعد بهداية العقل ، و إن هداية العقل لاتحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد، وهؤلاء قد انصرفت نفوسهم عن استعمال عقولهم استعمالا نافعا فى الدلائل البصرية والسمعية لإدراك أى مطلب من المطالب الشريفة التى وراء شهواتهم وتقاليدهم .

(إن الله لايظلم الناس شيئا) يراد بالظلم هنا المعنى الذى تدل عليه اللغة وهو نقص ما تقتضى الخلقة الكاملة وجوده كما فى قوله : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا» أى إنه لم يكن من سنن الله تعالى فى خلقه أن ينقصهم شيئا من الأسباب التى يهتدون باستعمالها إلى مافيه خيرهم من إدراكات و إرشاد إلى الحق بإرسال الرسل ونصب الأدلة التى توصلهم إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(ولكن الناس أنفسهم يظلمون) أى إنهم يظلمون أنفسهم وحدها دون غيرها لأن عقاب ظلمهم واقع عليها ، فهم يجنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات المشاعر والعقل والدين و بعدم استعمالها فيما خلقت لأجله من اتباع الحق فى الاعتقاد والهدى فى الأعمال ، وذلك هو الصراط المستقيم الموصل لسعادة الدارين .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)

المعنى الجملى

لما وصف الله هؤلاء المشركين بترك التدبر والإصغاء وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن قبل أن يأتيهم تأويله – قفى على ذلك بالوعيد بما سيكون لهم من الجزاء على هذا يوم القيامة .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) الساعة يضرب بها المثل فى القلة : أى وأنذرهم أيها الرسول يوم يجمعهم الله بالبعث بعد الموت ويسوقهم إلى مواقف الحساب والجزاء ، وكأنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا مدة قليلة ثم تقضت .

وخلاصة ذلك — إن هذه الدنيا التى غرّتهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة الأمد ستزول بموتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع لأكثر من التعارف ، والآية بمعنى قوله : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ » وقوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله : « قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ، قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

(قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) أى إن هؤلاء آثروا الحياة القصيرة المنغصة بالأكدار السريعة الزوال على الحياة الأبدية بما فيها من النعيم المقيم ، فلم يستعدوا لها و يعملوا الأعمال الصالحة التى تزكى نفوسهم وتهذب أرواحهم فخسروا السعادة فيها وما كانوا مهتدين فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الزائل على النفيس الخالد .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ
قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ
بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِي
وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ
مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ، وَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه وتعالى فى الآية السالفة أن هؤلاء المشركين الذين كذبوا بلقاء الله تعالى قد خسروا وما كانوا مهتدين ، وهذا يتضمن تهديدا ووعيدا بالعذاب الذى سيلقونه فى الدنيا والآخرة ــ قفى على ذلك ببيان أن بعض هذا العذاب ستراه

أيها الرسول الكريم وتقر عينك برؤيته ، وبعض آخر سيكون لهم يوم الجزاء وهو عليم بما فعلوه فيجازيهم به قدر ما يستحقون .

الإيضاح

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم) أى وإن أريناك بعض ما نعدهم من العقاب فى الدنيا ، فذاك الذى يستحقونه وهم له أهل ،وقد أراه ما نزل بهم من القحط والمجاعة بدعائه صلى الله عليه وسلم عليهم ، ونصره عليهم نصرا مؤزرا فى أول معركة هاجمه بها رؤساؤهم وصناديدهم وهى غزوة بدر فقتلهم وشردهم شر تقتيل وتشريد ، وكذلك فعل بهم صلى الله عليه وسلم فى غيرها من الغزوات حتى فتح عاصمتهم أمّ القرى ودخل الناس فى الدين أفواجا .

(أو نتوفينك فإلينا مرجعهم) أى أو نتوفينك قبل أن نريك ذلك فيهم فمصيرهم بكل حال إلينا وآنئذ سيلقون من الجزاء ما يعلمون به صدق وعيدنا .

(ثم الله شهيد على ما يفعلون) فيجزيهم به على علم وشهادة حق ، وقد جاء بمعنى الآية قوله : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ » وقوله . « وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » .

(ولكل أمة رسول) أى إنه تعالى رحمة بعباده وإزالة للحجة جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولا بعثه فيها وقت الحاجة إليه ليبين لهم ما يجب عليهم من الإيمان به وباليوم الآخر وما ينجيهم من العقاب فى ذلك اليوم وهو العمل الصالح الذى يكون سببا فى سعادتهم فى الدارين .

وفى الآية دليل على أن الله تعالى قد أرسل إلى كل جماعة من الأمم السالفة رسولا وما أهمل أمة قط ، ويدل على ذلك قوله : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » وقوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقوله : « رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » .

(فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون) أى فإذ جاء رسولهم وبلّغهم ما يجب عليهم معرفته من أمور دينه ، لم يبق لهم حينئذ عذر فى مخالفته ، فهنالك فى يوم الحساب يقضى الله تعالى بينهم بالعدل ولا يظلمون فى قضائه شيئا مما سيحل بهم من عذاب لايكون ظلما لهم لأنه من قِبَل أنفسهم وهم الذين دنسوها بسيىء الأعمال فاستحقوا على ذلك شديد العقاب .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقول كفار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه من المؤمنين مكذبين له صلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم به من نزول العذاب بالأعداء والنصرة للأولياء : متى يقع هذا الوعد الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى قولكم: إن الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا : أى فى نحو ما جاء فى قوله : « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا » وقوله : « قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا » .

وقد لقن الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب عن هذا السؤال بقوله :

(قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله) أى قل أيها الرسول لمن يستعجل الوعيد ويقول لك متى هذا الوعد : إنى بشر رسول لا أملك لنفسى فضلا عن غيرى شيئا من التصرف فى الضر فأدفعه عنها، ولاشيئا من النفع فأجلبه لها من غير طريق الأسباب التى يقدر عليها غيرى، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولابذل النصر والمعونة للمؤمنين ، لكن ما شاء الله تعالى من ذلك يكون متى شاء ولا شأن لى فيه لأنه خاص بمقام الربوبية دون الرسالة التى من وظيفتها التبليغ لا التكوين .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

(لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى لكل أمة من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم يحل بهم عند حلوله لايتعداهم إلى أمة أخرى ، إذا جاء ذلك الأجل فلا يملك رسولهم من دون الله تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قلّت .

قال فى فتح البيان : وفى هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار ديدنه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التى لايقدر على دفعها إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم ما لايقدر على تحصيله إلا الله سبحانه وتعالى ؛ فإن هذا مقام رب العالمين الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم فكيف يطلب من نبىّ من الأنبياء أو ملَك من الملائكة أو صالح من الصالحين ماهو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب من رب الأرباب القادر على كل شىء الخالق الرازق المعطى المانع .

وحسبك ما فى الآية من موعظة ، فإن هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده « لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا » فكيف يملكه لغيره ، وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لاتبلغ إلى منزلته ؟

فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عزّ وجل ، كيف لايتعظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا إله إلا الله ، ومدلول « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ماهو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، الضار النافع وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ومقربين لهم إليه ، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع وينادونهم تارة على الاستقلال وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من

شر سماعه ، والله ناصر دينه ومطهر شريعته من أوضار الشرك وأدناس الكفر ، وقد توسل الشيطان أخزاه الله تعالى بهذه الذريعة إلى ماتقر به عينه ويثلج به صدره من كفر كثير من هذه الأمة المباركة « وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ اه .

(قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا) أى قل لهم أيها الرسول أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذابه الذى تستعجلون به فى وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو بأمور معاشكم بالنهار .

(ماذا يستعجل منه المجرمون) أى أىّ نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون ؟ أعذاب الدنيا أم عذاب يوم القيامة؟ وأيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة .

(أثم إذا ماوقع آمنتم به) أى أيستعجل مجرموكم بالعذاب الذين هم أحق بالخوف منه بدل الإيمان الذى يدفعه عنهم ثم إذا وقع بالفعل آمنتم به حين لاينفع الإيمان إذ هو قد صار ضروريا بالمشاهدة والعيان، لاتصديقا للرسول عليه السلام .

(آلآن وقد كنتم به تستعجلون) أى وقيل لكم على سبيل التوبيخ : آلآن آمنتم به اضطرارا ، وقد كنتم به تستعجلون تكذيبا به واستكبارا .

(ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) أى ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالرسالة والوعد والوعيد تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا بحيث لافناء له ولا زوال .

ثم بين أن هذا العذاب جزاء ما صنعوا فى الدنيا فقال :

(هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟) أى لاتجزون إلا بما كنتم تكسبون باختياركم من الكفر والظلم والفساد فى الأرض والعزم على الثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فى هذا شىء من الظلم لأنه أثر لازم لإفساد النفس بالظلم وعمل المفاسد حتى لم تعد أهلا للكرامة وجوار المولى فى جنة الخلد .

(ويستنبئونك أحق هو؟) أى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا

العذاب الذى تعدهم به فى الدنيا والآخرة أحق هو سيقع ؟ جزاء على ما كنا نكسبه من المعاصى فى الدنيا ، أم هو إرهاب وتخويف فحسب ؟

(قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) إى بكسر الهمزة وسكون الياء كلمة يجاب بها عن كلام سبق بمعنى نعم ، وأعجزه الأمر : فاته ، أى نعم أقسم لكم بربى إنه لحق واقع ماله من دافع ، وما أنتم بواجدى من يوقع العذاب بكم عاجزا عن إدراككم وإيقاعه بكم .

وخلاصة ذلك — إنه حين ينزل العذاب بكم لستم بفائتيه بهرب أو امتناع بل أنتم فى قبضته وسلطانه ، إذا أراد فعل ذلك بكم فاتقوا الله تعالى فى أنفسكم .

روى أحمد والشيخان عن أنس قال: «بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد إذ دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد ؟ قلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال : أبن عبدالمطلب؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد أجبتك ، فقال إنى أسألك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجِد علىّ فى نفسك ، قال سل مابدالك ، فقال أسألك بربك ورب من قبلك : آلله أرسلك إلى الناس كلهم ، قال : اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله : آلله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم ، قال : أنشدك بالله :آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: اللهم نعم، قال أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ قال : اللهم نعم ، قال آمنت بما جئت به ، وأنا رسول مَن ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » .

وفى رواية أحمد أنه قال أيضا: «آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولانشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال: اللهم نعم ، وأنه كان أشعر ذا غديرتين وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن صدق ذو العقيصتين يدخل الجنة» .

وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ماتكلم به أن قال: بئست اللات والعُزّى ، قالوا مَهْ (أى كف عن هذا !) ياضمام ، اتق البرص والجذام،

اتق الجنون ، قال : ويلكم إنهما والله مايضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث إليكم رسولا وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ، فوالله ما أمسى فى ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما .

ثم ذكر مافى هذا اليوم من الأهوال فقال :

(ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به) أى ولو أن لكل نفس كفرت بالله ـ جميع ما فى الأرض من أنواع الملك وصنوف النعم وأمكنها أن تجعله فداء لها من ذلك العذاب الأليم الذى تعانيه ـ لافتدت به ولم تدخر منه شيئا .

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) إسرار الشىء : إخفاؤه وكتمانه ، وإسرار الحديث : خفض الصوت به ، والندم والندامة : مايجده الإنسان فى نفسه من الألم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجهر به بالكلام كما قال تعالى: « يَاحَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطْتُ » أو يخفيه ويكتمه حين لايجد فائدة من إعلانه أو اتقاء للشَّمَاتَةِ أو الإهانة. أى وأسر أولئك الذين ظلموا غمهم وأسفهم على ما فعلوا من الظلم حين معاينة العذاب بأبصارهم؛ إذ برزت لهم نار جهنم وأيقنوا أنهم مواقعوها لامصرف لهم عنها ، فما مثلهم إلا مثل من يقدم للصلب يثقله مانزله به من الخطب الجلل ويغلب عليه الحزن الفادح فيخرسه ولا يستطيع أن ينطق ببنت شفة ويبقى جامدا مبهوتا لاحراك به .

ثم بين أنه لاظلم اليوم .

(وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون) أى وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالحق والعدل ، وخصومهم هم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذلك من أضلوهم وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الإيمان .

وجاء فى معنى هذه الآية قوله فى سورة سبأ « وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وقوله: « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » وقوله : «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً » .

ثم أتبع ماتقدم بالدليل على قدرته على إنفاذ حكمه و إنجاز وعده ، وكون الظالمين لايعجزونه ولا يستطيعون منه مهرباً فقال :

(ألا إن لله ما فى السموات والأرض) أى إنه تعالى مالك السموات والأرض وكل من فيهما من العقلاء وغيرهم ، فليس للكافرين به شىء يملكونه فيفتدون به أنفسهم من ذلك العذاب ، بل الأشياء كلها لله الذى إليه عقابهم جزاء ما كسبت أيديهم .

والخلاصة — فليتذكر من نسى ،وليتنبه من غفل، وليعلم من جهل ، أن لله وحده جميع ما فى العوالم العلوية والعوالم الأرضية يتصرف فيها كيف يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئا من التصرف والفداء ، فى يوم البعث والجزاء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون) أى إن كل ما وعد به على ألسنة رسله حق لاريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على كل شىء ولا يعجزه شىء ولكن أكثر الكفار منكرى البعث والجزاء لايعلمون أمر الآخرة لغفلتهم عنها وقصور أنظارهم عن الوصول إلى ما يكون فيها .

ثم أقام الدليل على قدرته على ذلك فقال :

(هو يحيى ويميت وإليه ترجعون) أى إنه تعالى هو المحيى المميت لايتعذر عليه فعل ما أراد من الإحياء والإماتة ، ثم إليه ترجعون حين يحييكم بعد موتكم ويحشركم إليه للحساب والجزاء بأعمالكم .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)

شرح المفردات

الموعظة : الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التى يرق لها القلب فتبعث على الفعل أو الترك ، والشفاء : الدواء ، والهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ، ويكون فى الاعتقاد بالحجة والبرهان ، وفى العمل ببيان المصالح والحكم ، والرحمة : الإحسان ، وفضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ، ورحمته : هى الثمرة التى نُتجت من ذلك، وبها فضلوا جميع الناس.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث ـ قفى على ذلك بذكر التشريع العملى وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة

الإيضاح

(يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) أى قل لهم أيها الرسول قد جاءكم كتاب جامع لكل ماتحتاجون إليه من المواعظ الحسنة التى تصلح أخلاقكم وأعمالكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والهداية الواضحة للصراط المستقيم الذى يوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

والخلاصة — إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر فى أربعة أمور :

(١) الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب بذكر مايرق له القلب فيبعثه على الفعل أو الترك .

وقد جاء فى معنى الآية قوله : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ

عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ » وقوله : « هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ » .

(٢) الشفاء لما فى القلوب من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التى يشعر من أحبها بضيق الصدر كالشك فى الإيمان والبغى والعدوان وحب الظلم و بغض الحق والخير .

(٣) الهدى إلى طريق الحق واليقين والبعد من الضلال فى الاعتقاد والعمل .

(٤) الرحمة للمؤمنين وهى ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها بذل المعروف و إغاثة الملهوف وكفّ الظلم ومنع التعدّى والبغى .

و إجمال ذلك — إن موعظة القرآن وشفاءه لما فى الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل وهداه إلى الحق والفضائل موجهات إلى أمة الدعوة وهم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ المؤمنين بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان و بالرحمة الخاصة بهم الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة فقال :

(قل بفضل الله و برحمته فبذلك فليفرحوا) أى قل لهم ليفرحوا بفضل الله و برحمته أى إن كان شىء فى الدنيا يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعا «فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله » .

وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد « فضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن» .

(هو خير مما يجمعون) أى إن الفرح بهما أفضل وأنفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة وسائر خيرات الدنيا لأنه هو سبب السعادة

فى الدارين . وتلك سبب السعادة فى الدنيا الزائلة فقط . فقد نال المسلمون فى العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير مع الصلاح والإصلاح مما لم يتسنّ لغيرهم من قبل ولامن بعد ، و بعد أن جعلوا ديدنهم جمع المال ومتاع الدنيا ووجهوا همتهم إليه وتركوا هداية القرآن فى إنفاقه والشكر عليه ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدى أعدائهم .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ، قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه وتعالى الأدلة العقلية على إثبات الوحى والرسالة ـ ثنى على ذلك بذكر فعل من أفعالهم لاينكرونه ولايجادلون فى وجوده وهو يثبت صحة وجودهما .

ذاك أن التشريع بالتحليل والتحريم هو حق الله تعالى وحده وأن الأصل فى الأرزاق وسائر الأشياء التى ينتفع بها الإباحة ، فتحريم بعض الأشياء وتحليل بعض إما افتراء على الله تعالى يستحق فاعله أشد العقاب عليه ، و إما بأمر الله تعالى بوساطة رسله ، والأول لاتعترفون به فثبت الثانى وهو المدعى .

الإيضاح

(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) أى قل لهؤلاء المشركين أخبرونى أيها الجاحدون للوحى والرسالة ـ هذا الذى أفاضه الله عليكم من

فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحيوان فجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام فقال : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا » إلخ وقوله فى سورة المائدة : « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » .

(قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) أى قل لهم إن حق التحريم والتحليل لايكون إلا لله ، فهل الله هو الذى أذن لكم بذلك بوحى من عنده ؟ أم أنتم على الله تفترون بزعمكم أنه حرّم ماحرمتم وحلل ماحللتم .

والخلاصة — إنه لامندوحة لكم من الاعتراف بأحد الأمرين ، إما دعوى الإذن من الله لكم بالتحريم والتحليل ، وذلك اعتراف بالوحى ، وأنتم تنكرون وتزعمون أنه محال ، وإما الافتراء على الله وهو الذى يلزمكم إذا أنكرتم الأول .

وبعد أن سجل سبحانه وتعالى عليهم جريمة افتراء الكذب على الله ، قفى عليه بالوعيد مع الإيماء إلى مايكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة فقال :

(وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى أىّ شىء ظنهم فى ذلك اليوم الذى تجزى فيه كل نفس ما عملت ؟ أيظنون أنهم يتركون بلا عقاب على جريمة افتراء الكذب على الله وتعمده فيما هو خاص بربوبيته ونزاع له فيها وشرك به كما قال : « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ » وقال : « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ » .

(إن الله لذو فضل على الناس) أى إن الله ذو فضل على الناس فى كل ماخلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرع لهم من الدين ، ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة ، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده كيلا

يتحكم فيهم أمثالهم من عباده كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضارًّا بهم ، وحصر محرمات الطعام فى أمور معينة .

(ولكن أكثرهم لايشكرون) ذلك الفضل كما يجب كما قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » ومن ثم تراهم يحرمون مالم يحرمه الله و يكفرون نعمه فيغالون فى الزهد وترك الزينة والطيبات من الرزق ، أو يسرفون فى الأكل والشرب والزينة ابتغاء الشهرة والتكبر على الناس ، مع أن الإسلام يأمر بالاعتدال كما قال تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ » .

أخرج أحمد عن أبى الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا رثّ الهيئة فقال : « هل لك مال ؟ » قلت : نعم ، قال : «من أى المال ؟ » قلت : من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم . فقال : « إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمته عليك وكرامته » .

وأخرج البخارى والطبرانى عن زهير بن أبى علقمة مرفوعا « إذا آتاك الله مالاً فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولايحب البؤس ولا التباؤس» .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١)

شرح المفردات

الشأن : الأمر العظيم، وجمعه شئون، تقول العرب :ما شأن فلان ، أى ما حاله ، وأفاض فى الشىء أو من المكان : اندفع فيه بقوة أو بكثرة، وعزب الرجل بإبله يعزب:

أى بعد وغاب فى طلب الكلأ ، والذرة : النملة الصغيرة ، وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة،وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ، والكتاب : هو اللوح المحفوظ .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون ـ قفى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ما دق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكره وعبادته .

الإيضاح

(وما تكون فى شأن) أى وما تكون أيها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذارا لها وتبشيرا وتعليما وعملا .

(وما تتلو منه من قرآن) أى وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك تعبدا به أو تبليغا له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره صلى الله عليه وسلم كانت عظيمة حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان فيها قدوة صالحة .

و بعد أن خاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ـ انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها فقال :

(ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أى ولا تعملون

أىّ عمل ، خيرا كان أو شرا ، شكرا كان أو كفرا ، وإن كان كمثقال الذرة ، إلا كنا رقباء عليكم إذ تخوضون فيه فنحفظه عليكم ونجازيكم به .

(وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) أى وما يبعد عن علمه ولا يخفى عليه أقل شىء يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتما به مندفعا فيه ـ جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليه ، وكذلك فى التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه بكل شىء فقال :

(ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى ولا شىء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك وإن عظم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها إكمالاً للنظام وبيانا لضبط جميع الأعمال .

وفى معنى الآية قوله : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ »

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا تدركها الأبصار . وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافا مضاعفة (المكروسكوبات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم (المكروبات) ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ، لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)

شرح المفردات

الأولياء : جمع ولىّ من الوَلْى ،وهو القرب ، يقال تباعد بعد وَلْى : أى بعدقُرْب، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، والبشرى : هى الخبر السار الذى تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لعباده سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها ، وذكرهم بما يجب عليهم من شكره على تفضله عليهم ـ ذكر هنا حال الشاكرين المتقين الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة .

الإيضاح

(ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) أى إن أولياء الله الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده والتوكل عليه ولايتخذون له أندادا يحبونهم كحبه ، ولا يتخذون من دونه وليا ولاشفيعا يقربهم إليه زلفى ـ لاخوف عليهم فى الآخرة مما يخاف منه الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة كما قال تعالى : « لاَيَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ » ولا هم يحزنون من لحوق مكروه أو ذهاب محبوب ، ولا يعتريهم ذلك فيها لأن مقصدهم نيل رضوان الله المستتبع للكرامة والزلفى ، ولا ريب فى حصول ذلك ولا خوف من فواته بموجب الوعد الإلهى .

وكذلك فى الدنيا لايخافون مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعفاء الإيمان وعبيد الدنيا من مكروه يتوقع كما قال تعالى : «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

(الذين آمنوا وكانوا يتقون) التقوى — هى اتقاء كل ما لايرضى الله من ترك واجب وفعل محرم ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى فى خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الأمة ، أى أولياء الله الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ، وملكة التقوى له عز وجل وما تقتضيه من عمل .

(لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى لهم البشرى فى الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة فى كل أمر ـ وباستخلافهم فى الأرض ما أقاموا شرع الله وسننه ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وبإلهام الحق والخير كما ورد من حديث ابن مسعود مرفوعا عند الترمذى والنسائى : « إن للشيطان لَمّة بابن آدم وللملك لَمّة ؛ فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ؛ وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله تعالى ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » . وفى الآخرة بما أشارت إليه الآية الكريمة : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

(لاتبديل لكلمات الله) أى لاتغيير ولا خلف فى مواعيده تعالى ، ومن جملتها بشارة المؤمنين المتقين بجنات النعيم والخير العميم .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الذى ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز الذى ليس بعده فوز ، لأنه ثمرة الإيمان الحق والتقوى فى حقوق الله وحقوق الخلق .

وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

شرح المفردات

العزة : الغلبة والقوة ، والخرص : الحزر والتقدير للشىء الذى لايجرى على قياس من وزن أو كيل أو زرع كخرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ، ويستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ، والمبصر : ذو الإبصار ، تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم صفة أوليائه وما بشرهم به ووعدهم فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم ، وكان أعداؤهم يغترون بقوتهم فى مكة بكثرتهم ، وكانوا لغرورهم بها يكذبون بوعد الله ، وكان ذلك مما يحزنه كما قال: « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » .

قفى على ذلك بتسليته له صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى أعدائه ، وتبشيره بالنصر والعزة والوعيد لأعدائه .

الإيضاح

(ولا يحزنك قولهم) أى لاتحزن لقولهم ولا تبال بما يتفوهون به فى شأنك مما لاخير فيه .

(إن العزة لله جميعا) أى لأن الغلبة والقهر لله تعالى لايملك أحد من دونه شيئا منها ، فهو يهبها لمن يشاء ويحرمها من يشاء وليست للكثرة دائما كما يدعون : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ » وقد وعد الله بها رسله والذين آمنوا بهم واتبعوهم من أوليائه كما قال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » وقال : « وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ » .

(هو السميع العليم) أى هو السميع لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك فيكافئهم على ذلك ، وهو العليم بما يفعلون من إيذاء وكيد ، فهومذلهم ومحبط أعمالهم.

ثم أقام الدليل على كون العزة لله جميعا وكون الجزاء بيده فقال :

(ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض) أى ألا إن لله كل من فى السموات والأرض عبيدا مملوكين له ، لا مالك لشىء من ذلك سواه ، فكيف يكون إلها معبودا ما يعبده هؤلاء المشركون ، من الأوثان والأصنام ، والعبادة للمالك دون المملوك وللرب دون المربوب .

ثم بين أنه لا شريك له أبدا

(ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) أى إن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى بدعائهم فى الشدائد واستغاثتهم فى النوازل والتقرب إليهم بالقرابين والنذور - لايتبعون شركاء له فى الحقيقة يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر عنهم ، إذ لاشركاء له .

(إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلايخرصون) أى مايتبعون فى الحقيقة فيما يقولون إلا الظن فى دعواهم أنهم أولياء لله وشفعاء عنده ، فهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين الذين لايصل إليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابه ووزرائه ووسائطه .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(وإن هم إلا يخرصون) أى وماهم فى اتباع هذا الظن الذى لايغنى من الحق شيئا إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون .

والخلاصة — إنهم إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة ، فقاسوا الرب فى تدبير أمور عباده على الملوك ، وجهلوا أن أفعال الله تعالى إنما تجرى بمقتضى مشيئته الأزلية على وفق علمه الذاتى وحكمته البالغة العادلة ، وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له تعالى : «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا » أى إن أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون إليه بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم - يتوسلون إليه راجين خائفين لا كأعوان الملوك الذين لاينتظم أمر ملكهم بدونهم .

ثم أقام البرهان على مضمون ماقبله من نفى وجود شركاء له فى الخلق والتقدير وشفعاء عنده حين التصرف والتدبير فقال :

(هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) أى هو الذى جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع ، فجعل الليل مظلما لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش، وجعل النهار مضيئا ذا إبصار لتنتشروا فى الأرض وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب . وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى اختلاف الليل والنهار وحال أهلهما فيهما لدلائل وآيات على أن المعبود بحق هو الذى خلق الليل والنهار وخالف بينهما - لقوم يسمعون مايتلى عليهم من التذكير بحكمته تعالى ووجه النعمة فى ذلك ، سماع تدبر وعظة لما يسمع .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ، هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا، أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

شرح المفردات

الولد : يستعمل مفردا وجمعا ، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما، وسبحان: كلمة تنزيه وتقديس ، وتستعمل للتعجب ، والسلطان: الحجة والبرهان.

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عند الله – قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى جدّه اتخذ ولدا ، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء .

الإيضاح

(قالوا اتخذ الله ولدا) أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله .

(سبحانه) أى تنزه ربنا عما لايليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن يكون المعنى - عجيب أن تصدر منهم تلك الكلمة الحمقاء .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله :

(هو الغنى له مافى السموات ومافى الأرض) أى إن الله غنى عن خلقه جميعا فإن كل مافى الوجود من العالم العلوى والسفلى ملك له، ولاحاجة له إلى شىء منه وجميعه فى حاجة إليه ، ولايجانسه شىء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد إما للنصرة والمعونة وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة ، وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار رِفده وبره حين عجزه أو فقره ، وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنىّ عن كل ذلك ولاحاجة له إلى شىء من هذه المنافع فهو مُسْتَغْنٍ أزلا وأبدا .

(إن عندكم من سلطان بهذا) أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

(أتقولون على الله ما لاتعلمون) أى أتقولون على الله قولا لا تعلمون حقيقته وتنسبون إليه تعالى ما لايجوز إضافته إليه ، ولا سيما بعد مجىء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحى الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لادليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع ، وأن التقليد فيها غير سائغ .

(قل إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى قل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذه ولدا لنفسه أو بدعوى أن

الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ولا ينجون من عذاب الآخرة .

(متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال أو عظم جاهٍ فهو قليل بالنسبة إلى ماعند الله فى الآخرة للصادقين المتقين — ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآيات الله وبالافتراء عليه وتكذيب رسله بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لايعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)

شرح المفردات

النبأ : الخبر له خطر وشأن ، والمقام : الإقامة والمكث ، والإجماع : العزيمة على الأمر عزما لا تردد فيه .

أجمعـــوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

والغمة : الستر واللبس ، يقال إنه لفى غمة من أمره: إذا لم يهتد له ، وقضاء الأمر: أداؤه وتنفيذه، قال تعالى « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ » والإنظار: التأخير والإمهال ، خلائف ، أى يخلفون الذين هلكوا بالغرق ، المنذرون : المخوفون بالله وعذابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم له بعد أن قامت البراهين على صدقه — قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له صلى الله عليه وسلم وبيانا بأن قومه لم يكونوا بدعا فى عنادهم وتكذيبهم له ولكن سبقهم فى مثل فعلهم كثير من سالفى الأمم وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم فينزجروا بما فيه مزدجر لهم ويعترفوا بصدقه صلى الله عليه وسلم ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة فيندموا ، ولات ساعة مندم .

الإيضاح

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت) أى واقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سننه فى المكذبين لرسله من قبلك ـ خبر نوح حين قال لقومه ياقوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم وتذكيرى إياكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته — فإننى قد وكلت أمرى إلى الله الذى أرسلنى واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتى .

(فأجمعوا أمركم وشركاءكم) أى فأعدوا أمركم واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله كما أدعو ربى وأتوكل عليه .

(ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أى ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفيًا عليكم فيه حيرة ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه .

(ثم اقضوا إلىّ ولا تنظرون) أى أدوا إلىّ ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه، وبعد استبانته التى لا غمة فيها ولا التباس بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

والخلاصة — إن نوحا طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدلّ بيأسه وقوته المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شىء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

(فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إياكم وتبليغ رسالة ربى إليكم ، فلن يضرنى فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ولا جزاءا ، وما جزاء عملى وثوابى إلا على ربى الذى أرسلنى إليكم فهو يوفينى إياه ، آمنتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنقادين بالفعل لما أدعوكم إليه .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك) أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته ، فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

(وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى وجعلنا الذين نجينا مع نوح فى السفينة خلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم وحقت عليهم كلمة ربك، فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم وقوع عذاب الله بهم وأصروا على

تكذيبه ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وعاقبة المؤمنين المتقين لك .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)

شرح المفردات

الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئا غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ، والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعا لهوى النفس وشهواتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه وبيّن عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بيّن هنا عبرة أخرى من عبر مكذبى الرسل وسنة من سنن الله فيهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيعلموا أن لله سننا لاتبديل فيها ولا تحويل فيتقوا مثل تلك العاقبة التى حلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤه فى مُكْنتهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه و يبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوها .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات) أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فى تكذيب رسلهم فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا فى زمانه إلا شعيبا فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة فقد كانوا

متحدين معهم لغة ووطنا ، فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه فى رسالته على حسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

(فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله فى سبب كفره وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء .

(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى مثل هذا الطبع وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم فى كل قوم كقومك إذ كانوا مثلهم فى اللجاج والعتوّ والاستكبار فى الأرض « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهٰرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨)

شرح المفردات

الملأ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ، ولفته عن كذا : صرفه .

المعنى الجملى

أفردت قصة موسى وهرون مع فرعون وملئه وفصلت تفصيلا وافيا لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر ، إذ فيها من العبرة أن قوة الحق تثل العروش وتهد أركان

الباطل وإن علا أصحابه ، فقد كان الفلج والظفر لموسى على ذلك الطاغية الذى قال أنا ربكم الأعلى ، وانتهى أمره بالغرق وصار مثلا للآخرين .

الإيضاح

(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل صلوات الله عليهم موسى وهرون إلى فرعون مصر وأشراف قومه ، وخصهم بالذكر لأن قومهم القبط كانوا تبعا لهم يكفرون بكفرهم ويؤمنون بإيمانهم إن آمنوا ويرجعون إليهم فى إقامة المصالح والمهمات مؤيدين له بآياتنا التسع المبينة فى سورة الأعراف ، فأعرضوا عن الإيمان كبرا وعلوا مع علمهم بأن ماجاءا به هو الحق لما كانوا عليه من العلم بصناعة السحر ولكنهم كانوا راسخين فى الإجرام والظلم والفساد فى الأرض كما قال تعالى « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » .

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) أى فلما جاءهم موسى بالحجج والبينات الدالة على الربوبية والألوهية قالوا من فرط عتوّهم وعنادهم : إن هذا لسحر واضح لمن رآه وعاينه .

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا؟ ولايفلح الساحرون) أى قال لهم موسى على وجه الإنكار والتوبيخ : أتقولون للحق الواضح الظاهر وهو أبعد الأشياء عن السحر الذى هو باطل حين جاءكم دون أن تترووا وتتدبروا فيه : إنه سحر وما ترونه بأعينكم من آيات الله وترجف له قلوبكم من عظمته لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم ، وقد مضت سنة الله بأن السحرة لا يفوزون فى الأمور الهامة كالدعوة لدين والتأسيس لملك ، وذلك ما تتهموننى به على ضعفى وقوتكم ، فإن السحر شعوذة لاتلبث أن تفتضح وتزول .

وبعد أن أفحمهم بحجته ولم يجدوا ردّا مقنعا اضطروا إلى التشبث بذيل التقليد

للآباء والأجداد وتلك حجة العاجز المضعوف فى رأيه ذى الخطل فى تصرفه ، فلم يكن منهم إلا تلك المقالة .

(قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) أى قالوا له منكرين : ما جئتنا إلا لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا لنتبع دينك وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها فى أرض مصر كلها ، وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان و إذعان فيما يخرجنا من دين آبائنا الذى تدين به عامتنا ، وتتمتع بكبريائه خاصتنا ، وهم الملك وأشراف قومه .

والخلاصة — إنه لا غرض لك من تلك الدعوة إلا هذا و إن لم تعترف به ، وقد وجهوا الخطاب أولا لموسى لأنه هو الداعى لهم ، وأشركوا معه أخاه فى فائدة الدعوة والغرض منها وهى الكبرياء فى الأرض لأنهما سيشتركان فيها .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢)

المعنى الجملى

كانت الآيات الماضية فى ذكر الحوار بين موسى وفرعون — وهنا ذكر ما فعل فرعون فى مقاومة دعوة موسى لصدّ الناس عن اتباعه باعتبار أنه ساحر فأحضر السحرة ليقاوموا عمله ، و يتغلبوا عليه فيبطلوا حجته .

الإيضاح

(وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) أى قال لملئه بعد أن يئس من إلزامه بالقول : اعملوا على دفع حجته بالفعل فأتونى بكل ساحر عليم بفنون السحر ، حاذق ماهر فيها .

(فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) أى فأتوا بهم فلما جاءوا قال لهم موسى هذه المقالة بعد أن خيروه بين أن يلقى ما عنده أوّلا أو يلقوا ما عندهم كما جاء ذلك فى سورتى الأعراف وطه — ليظهر الحق و يبطل الباطل .

(فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر) أى فلما ألقوا حبالهم وعصيهم السحرية قال لهم موسى غير مكترث بهم ولا بما صنعوا : إن هذا الذى فعلتم وألقيتموه أمام النظارة هو السحر لا ماجئتُ به من الآيات البينات من عند الله وقد سماه فرعون وملؤه سحرا .

(إن الله سيبطله) أى إن الله سيظهر بطلانه بما يظهره على يدىّ من المعجزة حتى يظهر للناس أنه صناعة لا آية خارقة للعادة ، وحجة واضحة على بطلان حجتى .

ثم علل ما قال ببيان سنن الله فى تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد فقال :

(إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، و يحق الله الحق بكلماته) أى إن الله لايجعل عمل المفسدين صالحا للبقاء فيقويه بالتأييد الإلهى و يديمه ، بل يزيله و يمحقه ، و يثبت الحق الذى فيه صلاح الخلق و ينصره على ما يعارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهى مقتضى إرادته التشريعية التى يوحيها إلى رسله ، ومن ثم سينصر موسى على فرعون وينقذ قومه من عبوديته .

(ولو كره المجرمون) أى ولو كره كل من اتصف بالإجرام كفرعون وملئه .

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ(٨٣)

وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)

شرح المفردات

الذرية فى اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل فى الصغار والكبار عرفا ، والفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب، والعلو : القهر والاستبداد ، ومسلمين : أى مذعنين ومستسلمين ، وتبوأ الدار : اتخذها مباءة ومسكنا يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ، والقبلة : مايقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه، ومنه قبلة الصلاة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مافعله فرعون لمقاومة دعوة سيدنا موسى - قفى على ذلك بذكر ما كان من بنى إسرائيل مع موسى توطئة لإخراجهم من أرض مصر .

الإيضاح

(فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) أى إن إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ثم عزمه على قتله ، كما جاء فى قوله : « وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » .

كل هـذا أوقع الرعب والخوف فى قلوب بنى إسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه، وهم الأحداث والشبان وكانوا خائفين من فرعون وأشراف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب منهم ـ أن يضطهدوهم و يعذبوهم ليرتدوا عن دينهم .

(وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين) أى وإن فرعون لشديد العتوّ قوى القهر فى أرض مصر فهو جدير بأن يخاف منه كما حكى الله عنه بقوله : « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » كما أنه من المسرفين المتجاوزين الحد فى الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء وغمط الحق واحتقار الخلق، ومن ثم ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء .

(وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى وقال موسى لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا ، وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين ، إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام ، وليس فى الآية دلالة على إيمان جميع قومه ، إذ الإيمان بالله غير الإيمان لموسى المتضمن معنى الإسلام والاتباع الذى أشير إليه بقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ » فهم قد طلبوا منه بعد ما نجاهم من الغرق أن يجعل لهم آلهة من الأصنام ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه .

(فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى فقالوا على الفور ممتثلين أمره حين علموا أن إنجاز الوعد موقوف على ذلك : على الله توكلنا ، ودعوا بأن يحفظهم ربهم من فتنة القوم الظالمين .

ذاك أن التوكل على الله وهو أعظم علامات الإيمـان لايكمل إلا بالصبر على الشدائد ، والدعاء لايستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب بأن تعمل ماتستطيع عمله ، وتطلب إلى الله أن يسخر لك مالاتستطيع .

وخلاصة ما قالوا — ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فرارا من شدة ظلمهم لنا ، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفرا وعنادا وظلما بظهورهم علينا ويظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل .

وقد دلت التجارب على أن سوء حال المؤمنين من ضعف أو فقر تجعلهم موضعا لافتتان الكفار بهم باعتقاد أنهم خير منهم كما جاء فى قوله : « وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ؟ » .

(ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) أى ونجنا برحمتك فخلصنا من أيدى القوم الكافرين قوم فرعون لأنهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم فى المهن الحقيرة ، ومثل هذا قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم والذين آمنوا معه : « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا) أى قلنا لهما : اتخذا لقومكما بيوتا فى مصر تكون مساكن وملاجىء تعتصمون بها .

(واجعلوا بيوتكم قبلة) أى واجعلوا بيوتكم متقابلة فى وجهة واحدة .

(وأقيموا الصلاة) فيها متجهين إلى جهة واحدة لأن الاتحاد فى الاتجاه يساعد على اتحاد القلوب .

(وبشر المؤمنين) بحفظ الله إياهم من فتنة فرعون وملئه الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم .

وإنما خص موسى بالتبشير لأن بشارة الأمة وظيفة صاحب الشريعة ، وأشرك معه هرون فى أمر قومهما بالتبوأ لأنه مما يتولاه الرؤساء بتشاور بينهم فهو تدبير عملى يقوم به هو ووزيره المساعد على تنفيذه .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ، رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ
وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ
أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩)

شرح المفردات

الزينة: الحلل والحلى والأثاث والرياش والماعون، والأموال: ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك، والطمس: الإزالة، يقال طمس الأثر وطمسته الريح: إذا زال، والشد على القلب: الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للايمان.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه جبروت فرعون وملئه وخوف بنى إسرائيل من بطشهم وأنهم امتنعوا لأجل ذلك عن الايمان، إلا قليلا من شبانهم استجابوا لدعوة موسى بعد حثٍّ لهم وتحريض على الايمان وطلب موسى من بنى إسرائيل أن يتخذوا بيوتا لهم بمصر يقيمون فيها مراسم دينهم، ثم بشرهم بالفوز والغلبة والنصر — قفى على ذلك بدعوة موسى على فرعون وقومه مع ذكر السبب الذى دعاه إلى ذلك، وهو الجحود والعناد لدعوته لما أوتوه من بسطة النعمة التى أبطرتهم فتركوا الدين وراءهم ظهريا.

الإيضاح

(وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) أى وقال موسى بعد أن أعد قومه بنى إسرائيل للخروج من مصر على قدر مايستطيع من الإعداد الدينى والدنيوى، وغرس فى قلوبهم الإيمان وحب العزة والكرامة ونحو

ذلك وتوجه إلى الله أن يتم أمره : ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبراءهم زينة من حليّ وحلل وآنية وماعون وأثاث ورياش وأموالا كثيرة من صامت وناطق أى من ذهب وفضة وزروع وأنعام يتمتعون بها وينفقون منها فى حظوظهم وشهواتهم .

(ربنا ليضلوا عن سبيلك) أى لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل وصالح العمل .

وقد جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتُخضع رقاب الناس لأربابها كما قال تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى».

وقد أثبت البحث والتنقيب فى نواويس قبور المصريين التى كشفت حديثا ، وفيما حفظ فى دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ، مايشهد بكثرة تلك الأموال ووجود أنواع من الزينة والحلى لم تكن لتخطر على البال ، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التى لاتضارعها مدنية العصر الحاضر مع مابلغه العلم والرقى العقلى فى الإنسان .

(ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) أى ربنا امحق أموالهم بالآفات التى تصيب زروعهم والجوائح التى تهلك أنعامهم وتنقص مكاسبهم فيذوقوا ذل الحاجة ، واطبع على قلوبهم وزدها قسوة على قسوتها وإصرارا وعنادا فيستحقوا شديد عقابك ولا يؤمنوا إلا إذا رأوا عذابك ولا ينفعهم إيمانهم إذ ذاك .

وسبب غضبة موسى أنه عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا وردد عليهم المواعظ والنصائح ردحا من الزمن وحذرهم عذاب الله وانتقامه وأنذرهم عاقبة ماهم عليه من الكفر والضلال المبين ثم لم يزدهم ذلك إلا كفرا وعتوا واستكبارا فى الأرض ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالاختبار أنه لا يكون منهم إلا الضلال وأن إيمانهم كالمحال ـ فاشتد عليهم ومقتهم ودعا عليهم بما علم أنه لايكون غيره ، إذ لم يبق له فيهم حيلة وأنهم لايستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه ويسيرون قُدُما فى طريق الغى والهلاك .

وخلاصة ذلك — كأنه قيل فليثبتوا على ضلالهم وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما علىّ منهم، هم أهل لذلك وأحق به ، ومامثله إلا مثل قول الأب المشفق على ولده الذى انحرف عن جادة الاستقامة ولم يقبل منه نصيحة : فلتمض فى غوايتك ولتعث فى الأرض فسادا ، وهو لا يريد غوايته بل حَرَدا وغضبا عليه .

وقد روى أن موسى دعا بهذا الدعاء وهرون عليه السلام كان يؤمّن على دعاء أخيه ، ومن ثم قال تعالى :

(قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون) أى قال لهما عز اسمه قد قبلت دعوتكما فى فرعون وملئه وأموالهم ، فامضيا لأمرى واثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الحق ، ومن إعداد شعبكما للكفاح والجلاد والخروج من مصر ، ولاتسلكا سبيل الذين لايعلمون سنتى فى خلقى فيستعجلا الأمر قبل ميقاته ويستبطئا وقوعه فى حينه .

وفى سفر الخروج من التوراة مايدل على استجابة دعاء موسى فقد كانت تنزل النوازل على مصر وأهلها فيلجأ فرعون إلى موسى حين كل نازلة منها ليدعو ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى إذا كشفها قسّى الرب قلب فرعون فأصر على كفره ، وما قاله المفسرون فى تفسير الطمس على الأموال فهو من ترّهات الأباطيل الإسرائيلية التى روجها كعب الأحبار وأمثاله ممن كان مقصدهم صد اليهود عن الإسلام بما يروونه فى تفسيره مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين فى وقائع عملية وأمور حسية .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)

شرح المفردات

يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ، ويقال تبعته حتى أتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته ، المسلمين : أى المنقادين لأمره ، وننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، والنجوة : المكان المرتفع من الأرض ، والآية : العبرة والعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وذكر ما أتى به موسى من الحجج والبينات الدالة على صدقه وغلبه لسحرة فرعون ولم يزده ذلك إلا كبرا وعتوًّا فدعا عليه بالطمس على الأموال والشد على القلوب وذكر إستجابة الله دعوته — قفى على ذلك بذكر خاتمة القصة وهو ما كان من تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه ، إذ كانت دولته أقوى دول العالم فى عصره .

الإيضاح

(وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) أى جاوز بنو إسرائيل البحر بمعونته تعالى وقدرته وحفظه وكان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم ، فلحقهم فرعون وجنوده ظالمين عادين عليهم ليفتكوا بهم أو يعيدوهم إلى مصر ليسوموهم سوء العذاب ويجعلوهم

عبيدا لهم ، وخاض البحر وراءهم حتى إذا أشرف على الغرق قال آمنت أنه لا إله بحق إلا الرب الذى آمنت به جماعة بنى إسرائيل بدعوة موسى ، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعد ما كان منى من جحود بآياته وعناد لرسوله .

وكرر المعنى الواحد بثلاث عبارات حرصا منه على القبول المفضى إلى النجاة ، ولكن هيهات فقد فات الوقت وجاء الإيمان حين اليأس وهو لا يجدى فتيلا ولا قطميرا — وهذا ما بينه سبحانه بقوله موبخا له .

(آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أى وقيل له أتسلم الآن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات ، وقد عصيت قبل ذلك وكنت من المفسدين فى الأرض الظالمين للعباد ، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل ، فقد صار إسلامك اضطرارا لا اختيارا .

وخلاصة المعنى — آلآن تقرّ لله بالعبودية وتستسلم له بالذلة وتخلص له الألوهية وقد عصيته قبل نزول نقمته بك فأسخطته على نفسك وكنت من المفسدين فى الأرض الصادين عن سبيله ، فهلا أقررت بما أقررت به الآن وباب التوبة لك منفتح .

(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) أى فاليوم نجعلك على نجوة من الأرض ببدنك ينظر إليك من كذب بهلاكك ، لتكون عبرة لمن بعدك من الناس يعتبرون بك فينزجرون عن معصية الله والكفر به والسعى فى الأرض بالفساد .

ووجه العبرة فى ذلك — أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله ، ووعيده لأعدائهم كطغاة مكة التى أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم .

(وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى وإن كثيرا من الناس لفى غفلة عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة له وحده خالصة ، فهم يمرون عليها وهم عنها معرضون ، فلا يتفكرون فى أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها .

وفى ذلك إيماء إلى ذم الغفلة وعدم التفكر فى أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها للعظة والاعتبار .

ووا أسفا قد صار من نزل فيهم القرآن من بينهم بل فى مقدمتهم وهو حجة عليهم وهو منهم براء .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)

شرح المفردات

مبوأ صدق : أى منزلا صالحا مرضيا . وأصل الصدق ضد الكذب ولكن قد جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق إذا كان كاملا فى صفته صالحا للغرض المقصود منه ، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق ، والعلم هنا علم الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده — قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والجاحدين من قومه المفترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم — فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عددا وأشد قوة وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم وتدبروا مليا خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين وأعطاهم أعظم ملك فى العالمين .

الإيضاح

(ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق) أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية وهى بلاد فلسطين ، وهو بمعنى قوله « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» .

(ورزقناهم من الطيبات) أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا ، وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام وصيد البر والبحر .

(فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم مجمعين على نبوته والإقرار به و بمبعثه غير مختلفين فيه بالنعت الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن آخرون .

(إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز الحق من الباطل ويدخل الأولين الجنة والآخرين النار و بئس القرار .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه قصص الأنبياء السالفين وما لاقوه من أقوامهم من العناد والجحود والاستكبار والعتو ، وفى كل حال كان النصر حليف المؤمنين والخذلان نصيب الظالمين — قفى على ذلك بذكر صدقه فيما قال ووعد وأوعد وكون ذلك سنة الله فى المكذبين قبل ، وسيكون ذلك فيهم من بعده ، وليس فى هذا سبيل للافتراء والشك ، وقد ساق ذلك بطريق التلطف فى الأسلوب فوجه الكلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد قومه فجاء على نحو قولهم: إياك أعنى واسمعى ياجاره ، وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقوله « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » .

الإيضاح

(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) المراد بالكتاب جنسه أى الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل ، أى فإن كنت أيها الرسول فى شك مما قلناه فى تلك الشواهد من قصة هود ونوح وموسى وغيرهم فرضا وتقديرا ، فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء كاليهود والنصارى فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لايستطيعون إنكاره .

وقد جرت عادة العرب أن يقدروا الشك فى الشىء ليبنوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى فكن شجاعا ، وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام مجيبا ربه تعالى عن سؤاله إياه « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ » فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ولكنه يفرضه ليستدل على ذلك بأنه لو قاله لعلمه الله منه ، ويجرى العلماء فى محاوراتهم بينهم و بين نظرائهم

أو بينهم و بين تلاميذهم على هذا النمط ، فيشككونهم فيما لا شك فيه عندهم ليبنوا على ذلك أحكاما أخرى فيقولون: إن كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة إلى متساويين، أى إن كون الخمسة زوجا يستلزم ذلك ، وهذا لايدل على أن الخمسة زوج وهكذا ما فى الآية فهو يدل على أنه لو حصل الشك لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

(لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) الامتراء الشك والتردد، أى لقد جاءك الحق الواضح بأنك رسول الله وأن هؤلاء اليهود والنصارى يعلمون صحة ذلك ويجدون نعتك فى كتبهم ، فلا تكونن من الشاكين فى صحة ذلك .

وهذا النهى وما بعده يدلان على أن فرض الشك والسؤال فيما قبلهما تعريض بالشاكين والمكذبين له من قومه ممن لم تستنر بصيرتهم بنبوته صلى الله عليه وسلم فأظهروا الإيمان بألسنتهم ولم يثبت فى قلوبهم فهم فى شك فيه .

(ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) أى ولا تكونن أيها الرسول ممن كذب بآيات الله وحججه فى الأكوان مما يدل على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل لهداية البشر فتكون ممن خسروا أنفسهم بالحرمان من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين، فالشك والامتراء فيما أنزل إليك كالتكذيب بآيات الله جحودا بها وعنادا ، كلاهما سواء فى الخسران المذكور لحرمان الجميع من الهداية بها والوصول إلى السعادة فى الدارين .

(إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون) أى إن الذين ثبتت عليهم كلمة ربك بعذابهم على حسب سننه تعالى فى خلقه بفقدهم الاستعداد للاهتداء ، لايؤمنون لرسوخهم فى الكفر والطغيان وإحاطة خطاياهم بهم وإعراضهم عن آيات الله التى خلقها فى الأكوان بما يرشد إلى وحدانيته وكمال قدرته .

(ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى ولو جاءتهم كل آية من

الآيات الكونية كآيات موسى عليه السلام التى اقترحوا مثلها عليك ، والآيات المنزلة عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند الله وعلى حقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم ويذوقوه حين ينزل بهم فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم ويقال لهم إذا ذاك « آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ » .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠)

شرح المفردات

لولا : كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلاّ ، والمراد بالقرية أهلها وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، والخزى : الذل والهوان ، والحين : مدة من الزمن والمراد بها العمر الطبيعى الذى يعيشه كل شخص ، والإذن بالشىء : الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه ، والرجس : لغة الشىء القبيح المستقذر ، والمراد به هنا العذاب .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث تكملة لما قبلها وبيان لسنن الله تعالى فى الأمم مع رسلهم وفى خلق البشر مستعدين للإيمان والكفر والخير والشر وفى تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وفقهما ، فبعد أن بين أن الذين حقت عليهم كلمة

ربك لايؤمنون حتى يروا العذاب الأليم — أتبعه بذكر هذه الآيات للدلالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الإيمان .

الإيضاح

(فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها) أى فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم فنفعهم إيمانهم قبل وقوع العذاب الذى أنذروا به .

وخلاصة ذلك — إنه لم يؤمن قوم منهم بحيث لم يشذ منهم أحد .

(إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) يونس عليه السلام بعث فى أهل نينوى بأرض الموصل وكانوا أهل كفر وشرك فدعاهم إلى الإيمان بالله وحده وترك ما يعبدون من الأصنام فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم أن العذاب مصبّحهم بعد ثلاث ليال - فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل، فلما أصبحوا تغشّاهم العذاب ، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى ربهم وأخلصوا النية فرحمهم واستجاب دعاءهم وكشف عنهم ما نزل بهم من العذاب .

والخلاصة — إن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل وكانو علموا بقربه من خروج نبيهم - صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان فى الدنيا بعد ما أظلهم وكاد ينزل بهم ، ومتعناهم بمتاعها إلى زمن معلوم وهو الوقت الذى يعيش فيه كل منهم على حسب سنن الله فى استعداد بنيته ومعيشته .

وفى ذلك تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا العذاب بعنادهم ، حتى إذا أنذرهم نبيهم بقرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس وقبل أن ينزل بهم البأس .

(ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) أى ولو شاء ربك أن يؤمن أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا بأن يلجئهم إلى الإيمان قسرا ، أو يخلقهم مؤمنين طائعين كالملائكة ، لا استعداد فى فطرتهم لغير الإيمان .

وجاء فى معنى الآية قوله « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » وقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » .

وخلاصة ذلك — إنه لو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعدا بفطرته للخير والشر والإيمان والكفر ، ومرجحا باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيئته ـ لفعل ذلك، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا يوازن باختياره بين الإيمان والكفر ، فيؤمن بعض ويكفر آخرون .

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) أى إن هذا ليس بمستطاع لك ولا من وظائف الرسالة التى بعثت بها أنت وسائر الرسل الكرام كما قال تعالى « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ » وقال « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » وقال « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) أى وما كان لنفس بمقتضى ما أعطاها الله من الاختيار والاستقلال فى الأفعال ، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سننه فى الترجيح بين المتقابلين ، فالنفس مختارة فى دائرة الأسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة فى اختيارها استقلالا تاما ـ بل مقيدة بنظام السنن والأقدار الإلهية .

(ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) أى وإذا كان كل شىء بإذنه وتيسيره ومشيئته التى تجرى بقدره فهو يجعل الإذن وتيسير الإيمان للذين يعقلون آياته ويوازنون بين الأمور فيختارون خير الأعمال ويتقون شرها ويرجحون أنفعها على أضرها بإذنه تعالى وتيسيره ، ويجعل الخذلان والخزى المرجح للكفر والفجور على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، إذ هم لخطل رأيهم وسلوك سبيل الهوى يرجحون الكفر على الإيمان والفجور على التقوى .

قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن سنته فى نوع الإنسان ، أن خلقه مستعدا للإيمان والكفر والخير والشر ، ولم يشأ أن يجعله على طريقة واحدة إما الكفر وحده وإما الإيمان وحده ، وإنك أيها الرسول لاتقدر على جعله على غير ذلك ــ بين هنا أن مدار سعادته على استعمال عقله فى التمييز بين الخير والشر ، وما على الرسول إلا التبشير والإنذار وبيان الطريق المستقيم الذى يوصل إلى السعادة ، وما الدين إلا مساعد للعقل على حسن الاختيار إذا أحسن النظر والتفكير اللذين أمر الله بهما.

الإيضاح

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) أى قل لهم أيها الرسول لمن تحرص على هدايتهم من قومك : انظروا بأبصاركم وبصائركم ماذا فى السموات والأرض من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات، وشمس وقمر، وليل ونهار، وسحاب ومطر، وهواء وماء ، وليل ونهار، وإيلاج أحدهما فى الآخر حتى يطول هذا ويقصر ذاك ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسُهُولٍ وقفار وعمران ، وما فى البحر من عجائب وهو مسخر مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ويجرى بها برفق بتسخير القدير العليم

الذى لا إله غيره ولا رب سواه « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » إنه يريكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون .

(وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) تغنى : تنفع وتفيد ، والنذر واحدها نذير ، أى إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها والرسل على بلاغة حجتها لا تجدى نفعا لقوم لا يتوقع إيمانهم ، لأنهم لم يوجهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها على ما تدل عليه من وحدانية الله وقدرته . والاعتبار بسننه فى خلقه والاستفادة منها فيما يزكى النفس ويرفعها عن أرجاس الأمور .

(فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم محذرا مشركى قومه من حلول عاجل نقمة ربهم بهم وقد حل بمن قبلهم من سائر الأمم الخالية التى سلكت فى تكذيب رسله وجحودهم مسلكهم : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون بما جئتهم به من عند الله تعالى إلا يوما يعاينون فيه من عذاب الله مثل أيام أسلافهم الذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشرك والتكذيب .

والخلاصة ـ إنهم لا ينتظرون إلا مثل وقائعهم مع رسلهم مما بلغهم مبدؤه وغايته.

(قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى قل لهم منذرا مهددا : انتظروا عقاب الله ونزول سخطه بكم ، إنى من المنتظرين هلاككم بالعقوبة التى تحل بكم ، وإنى على بينة بما وعد الله به وصدق وعده للمرسلين ، وإن الذين يصرون على الجحود والعناد سيكونون من الهالكين .

(ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) أى إن سنتنا فى رسلنا مع أقوامهم الذين يبلغونهم الدعوة ويقيمون عليهم الحجة وينذرونهم سوء عاقبة التكذيب فيؤمن بعض ويصر آخرون على الكفر ـ أن نهلك المكذبين وننجى رسلنا والذين آمنوا بهم .

(كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) أى ومثل هذا الإنجاء ننجى المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصرين على تكذيبك وعدا حقا علينا لا نخلفه كما قال تعالى « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً » .

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على صدقه فى رسالته وصحة الدين الذى جاء به وبسطها غاية البسط حتى لم يبق فيها مجال للشك - قفى على ذلك بالأمر بإظهار دينه ، وبإظهار الفارق بينه وبين ما هم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التى لا تضر ولا تنفع وبيان أن الذى بيده النفع والضر هو الله الذى خلقهم .

الإيضاح

(قل يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين) أى قل لهم أيها

الرسول إن كنتم فى شك من دينى الذى أدعوكم إليه ولم يتبين لكم أنه الحق فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه لتعلموا أنه لامدخل فيه للشك ، وإنى لا أعبد الحجارة التى تعبدونها من دون إلهكم وخالقكم ، بل أعبد الله الذى يقبض الخلق فَيُمِيتهم إذا شاء وينفعهم ويضرهم إذا أراد ، ومثل هذا هو الحقيق بأن يعبد وأن يُخاف وأن يُتقى دون من لايقدر على شىء من ذلك .

وفى ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه ، وإنما ينبغى أن تشكوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التى لا تعقل ولا تضر ولا تنفع ، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذوو الفطرة السليمة ، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذى لبّ وعقل سليم .

وقد أمرت أن أكون من المؤمنين الذين وعدهم الله بالنجاة من عذابه ، وينصرهم على أعدائهم واستخلافهم فى الأرض .

(وأن أقم وجهك للدين حنيفا) أى وأمرت أن أكون من المؤمنين وأمرت بأن أقيم وجهى للدين القيم الذى لا عوج فيه حال كونى حنيفا أى مائلا عن غيره من الشرك والباطل ، وذلك بالتوجه إلى الله وحده فى الدعاء وغيره بدون التفات إلى شىء سواه ، وعلى نحو هذه الآية جاء قوله « إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

فمن توجه قلبه إلى غيره فى عبادة من العبادات ولا سيما مُخّ العبادة وروحها وهو الدعاء فهو عابد له مشرك بالله ، ثم نهى الله رسوله عن ضد ذلك فقال :

(ولا تكونن من المشركين) أى ولا تكونن ممن يشرك فى عبادة ربه الآلهة والأنداد كأرباب الديانات الوثنية الباطلة الذين يجعلون بينهم وبين الله حجابا من الوسطاء والأولياء والشفعاء يوجهون قلوبهم إليهم عند الشدة تصيبهم والحاجة تستعصى عليهم ليقضوا لهم حاجتهم إما بأنفسهم أو بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، فإن فعلت ذلك كنت من الهالكين .

(ولا تدع من دون الله ما لاينفعك ولا يضرك) أى ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء ـ مالا ينفعك فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره .

(فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) أى فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت فى هذه الحال من الذين ظلموا أنفسهم ، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى ، فدعاء الله وحده أعظم العبادات ، ودعاء غيره شرك وظلم للنفس لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه ، فهو وضع للشىء فى غيرموضعه ، وقد جاء فى معنى الآية آيات كثيرة متفرقة فى السور لانتزاع هذا الشرك من قلوب السواد الأعظم من الناس، وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من كتاب ربهم ، وكانت عبادتهم له دعاءه بالغدو والآصال والليل والنهار ، وفيها نعى على الذين هجروا تدبر القرآن وتلقوا عقائدهم من الآباء والأمهات والمعاشرين الأميين الجاهليين فتوجهوا إلى القبور فزينوها بالسرج والمصابيح ودعوها من دون الله وتقربوا إليها بالهدايا والنذور لتكشف عنهم الضر وتعطيهم ما يرجون من النفع ، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة فيزعمون أنها خاصة بعبادة الأصنام والنذر للأوثان ، والتعظيم للصلبان ، كأن الشرك بالله جائز من بعض المخلوقين دون بعض .

ثم أكد سبحانه المعنى السالف ودحض شبهة الذين يدعون غير الله لأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم وكشف الضر عنهم فقال :

(وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) أى وإن يمسسك الله أيها الإنسان بضر كمرض يصيبك بمخالفة سننه فى حفظ الصحة ، أو نقص فى الأموال والثمرات بأسباب لك فيها عبرة ، أو ظلم يقع عليك من غيرك ، فلا كاشف له إلا هو، وقد جعل الله للأشياء أسبابا يعرفها خلقه بتجاربهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها

ومعرفة خواص العقاقير التى تداوى بها ، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتى البيوت من الأبواب ونتوجه إلى الله وحده وندعوه مخلصين له متوكلين عليه .

(وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده) أى وإن يردك ربك برخاء ونعمة وعافية فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين فضله الذى تعلقت به إرادته تعالى ، فما شاء كان حتما ، فلا يرجى خير ونفع إلا من فضله ، ولا يخاف ردّ ما يريده ، فهو يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب أو بغير كسب ، وبسبب ماقدره فى السنن العامة وبغير سبب ، ففضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فإنه لايقع إلا بسبب من الأسباب الخاصة بكسب العبد أوالعامة فى نظام الخلق كالأمراض التى تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيرا ، وفساد العمران وسقوط الدول الذى يقع بترك العدل وكثرة الظلم .

(وهو الغفور الرحيم) أى وهو الغفور لذنوب من تاب وأناب من عباده من كفره وشركه إلى الإيمان به وطاعته ، الرحيم بمن آمن به منهم فلايعذبه بعد التوبة ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعا بذنوبهم فى الدنيا قبل الآخرة كما قال تعالى : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ» وقال : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ » .

قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن قرر سبحانه دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ـ ختم السورة بهذا البلاغ للناس كافة بمقتضى البعثة العامة ، وهو إجمال لما تقدم من التفصيل فيها .

الإيضاح

(قل يأيها الناس قدجاءكم الحق من ربكم) أى قل لهم أيها الرسول مخاطبا جميع الناس من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ومن ستبلغه عنك : قد جاءكم الحق المبين لحقيقة هذا الدين ، وقد أوحى به إلى رجل منكم ، وكان خفيا عنكم بما جهل من دعوة الرسل السالفين أو حرّف و بدل ، ففصله هذا الكتاب العربى المبين .

(فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه) أى فمن سلك سبيل الحق وصدق بما جاء من عند الله فى كتابه الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، كأنما فائدة ذلك عائدة إليه لأنه يفوز بالسعادة فى دنياه ودينه ، وذلك إنما يكون بعمله لا بعمل غيره ولا بتأثيره بشفاعته أو وساطته .

(ومن ضل فإنما يضل عليها) أى ومن اعوجّ عن الحق الذى أتاه من عند الله وأعرض عن كتابه وعن آياته فى الأنفس والآفاق ، فإنما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهتداء فى الدنيا وما يصيبه من العذاب على كفره وجرائمه فى الآخرة.

(وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا بموكَّل من عند الله بأموركم ولا بمسيطر عليكم فأكرهكم على الإيمان ، وأمنعكم بقوتى من الكفر والعصيان ولا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، وما أنا إلا رسول مبلغ إليكم أمر ربكم ، بشير لمن اهتدى ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر .

(واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله) أى واتبع أيها الرسول وحى الله الذى أنزله إليك فى كتابه واعمل به وعلمه أمتك واصبر على مايصيبك من الأذى

والمكاره ، وعلى ما ينالك من قومك حتى يقضى الله بينك و بين المكذبين لك وينجز لك ما وعدك .

(وهو خير الحاكمين) أى وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين ، فهو لايحكم إلا بالحق، وغيره قد يحكم بالباطل إما لجهله بالحق أو مخالفته له باتباع الهوى ، وقد امتثل رسوله أمر ربه وصبر حتى حكم الله بينه و بين قومه وأنجز وعده له صلى الله عليه وسلم ولمن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم فى الأرض وجعلهم الأئمة الوارثين ماأقاموا الدين.

وغير خافٍ مافى هذه الآيات من التسلية لنبيه ووعده للمؤمنين ووعيده للكافرين .

سورة هود عليه السلام

وهى مكية كالتى قبلها ، وعدد آيها ثلاث وعشرون ومائة ، نزلت بعد سورة يونس ، وتضمنت ماتضمنته تلك من أصول الإسلام، وهى التوحيد والنبوة والبعث والحساب والجزاء .

وفصل فيها ما أجمل فى سابقتها من قصص الرسل عليهم السلام وهى مناسبة لها فى فاتحتها وخاتمتها وتفصيل الدعوة فى أثنائها ، فقد افتتحتا بذكر القرآن بعد (الر) وذكر رسالة النبي المبلغ عن ربه ، و بيان أن وظيفة الرسول إنما هى التبشير والإنذار وفى أثنائهما ذكر التحدى بالقرآن والرد على الذين زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه ، وَمُحَاجَّةُ المشركين فى أصول الدين ، وختمتا بخطاب الناس بالدعوة إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى الأولى بالصبر حتى يحكم الله بينه و بين الكافرين ، وفى الثانية بانتظار هذا الحكم منه تعالى مع الاستقامة على عبادته والتوكل عليه .

وعلى الجملة فقد أجمل فى كل منهما مافصل فى الأخرى مع فوائد انفردت بها كل منهما ، فقد اتفقتا موضوعا فى الأكثر واختلفتا نظما وأسلوبا مما لامجال للشك فى أنهما من كلام الرحمن ، الذى علم الإنسان البيان .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ

كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤)

شرح المفردات

(الر) تقدم أن قلنا إنها حرف تنبيه كألا وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال : (أَلِفْ لَامْ ، رَا) وإحكام البناء كالقصر والحصن : إتقانه حتى لايقع فيه خلل ، وتفصيل العقد بالفرائد : جعل خرزة أو مرجانة بلون بين كل خرزتين من لون آخر ، والمتاع : كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت ، والأجل المسمى : هو العمر المقدر .

المعنى الجملى

جاءت هـذه الآيات فى أصول الدين وهى القرآن وما بيّن فيه من توحيد الله وعبادته وحده والإيمان برسله والبعث والجزاء فى اليوم الآخر .

الإيضاح

(الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) أى هذا كتاب عظيم الشأن جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف واضحة المعانى لاتقبل شكا ولا تأويلا ولا تبديلا كأنها الحصن المنيع الذى لايتطرق إليه خلل ـ وجعلت فصولا متفرقة فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولاعجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ويعطيهم مافيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذلك ومصادره وموارده .

(ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير) أى أحكمت وفصلت بألا تعبدوا إلا الله ، أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لاشريك له ،

وهذا كقوله: « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » وقل للناس إنى من عند الله نذير ينذركم عقابه، ويبشركم ثوابه على طاعته والإخلاص له.

وهذا بيان لوظيفة الرسالة، ومبين لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) أى واسألوه أن يغفر لكم ما كان منكم من أعمال الشرك والكفر والإجرام، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه مما تعبدون من دونه من الأصنام والأوثان

فإن فعلتم ذلك واستغفرتم من كل ذنب وتبتم من الإعراض عن هدايته وتنكّب سننه يمتعكم فى دنياكم متاعا حسنا فيرزقكم من زينة الدنيا وينسأ لكم فى آجالكم إلى الوقت الذى قضى عليكم فيه الموت وهو العمر المقدر لكم فى علمه المكتوب فى نظام الخليقة وسنن الاجتماع البشرى فى عباده، ولا يقطعه بعذاب الاستئصال ولا بفساد العمران ولا ينقصه ما ينقص من أدمن على الشرك والمعاصى.

ذاك أن الله ماحرم إلا الأشياء الضارة بالعقل أو بالصحة أو بنظام الاجتماع المالى أو البدنى، وإنما يكمل ضررها بإصرار فاعليها عليها، فإذا أقلعوا عنها وندموا على مافعلوا وبادروا إلى التوبة من قريب، امتنع ذلك الفساد.

وهذه سنة مطردة فى ذنوب الأمم، وهى فيها أظهر من ذنوب الأفراد، فالمشاهد أن الأمم التى تصر على الظلم والفسوق والعصيان يهلكها الله تعالى فى الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران حتى تزول منعتها وتتمزق وحدتها.

(ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وإن تجتنبوا الشرك وتؤمنوا بالله وتستغفروه يمتعكم متاعا حسنا تكونون به خير الأمم نعمة وقوة وعزة ويعط كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله، أما فى الآخرة فهو مطرد دائما، وأما فى الدنيا فقد يكون ناقصا مشوبا بأكدار ولا يكون مطردا لقصر أعمار الأفراد.

(وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) أى وإن توليتم وأعرضتم عما دعوتكم إليه من عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير الهول شديد البأس ، فيصيبكم مثل ما أصاب أقوام الرسل الذين عاندوهم وأصروا على تكذيبهم وعصيانهم ، أو قريب منه بعد نصر الرسول والمؤمنين .

(إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير) أى إليه تعالى رجوعكم بعد موتكم جميعا أمما وأفرادا لا يتخلف منكم أحد ، وحينئذ تلقون جزاءكم بالعدل والقسطاس ، وهو سبحانه قدير على كل شىء .

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)

شرح المفردات

ثنى الشىء : عطف بعضه على بعض فطواه، وإثناء الثوب : إطواؤه، وثناه عنه: لواه وحوله ، وثناه عليه : أطبقه وطواه ليخفيه فيه ، وثنى عنانه عنى : تحول وأعرض والاستخفاء : محاولة الخفاء ، واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام : « وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم إن أعرضوا حاق بهم عذاب يوم كبير - بين فى هذه الآية حالهم وصفتهم العجيبة الدالة على إعراض الحيرة والعجز ومنتهى الجهل .

الايضاح

(ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه) أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم وينكسون رءوسهم كأنهم يحاولون طىّ صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن ليستخفوا منه صلى الله عليه وسلم حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم ، روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبى صلى الله عليه وسلم ثنى صدره كيلا يراه أحد .

(ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون) أى إن ثنى صدورهم وتنكيس رءوسهم ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم لايغنى عنهم شيئا ، فإن ربهم يعلم مايسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم مايعلنون نهارا .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شىء من توحيده أو أمره أو نهيه .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

تمت مسودة هذا الجزء فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف هجرية بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٨	من أتى أبواب السلطان افتتن .
	من الأعراب من كان يظن أن الصدقات مغارم ، ومنهم من كان يظن أنها قربات عند الله .
١١	المسلمون ثلاث طبقات .
١٢	من أهل المدينة ناس مردوا على النفاق .
١٣	المنافقون فريقان .
١٦	خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .
١٧	كان الرسول يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم .
١٨	فوائد الصدقات فى إصلاح المجتمع الإسلامى .
١٨	فرضت الزكاة فى أول الإسلام مطلقة .
٢٠	ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة .
٢١	كان المتخلفون عن الجهاد فى غزوة تبوك أقساما ثلاثة .
٢٥	الأغراض التى لأجلها بنى مسجد الضرار .
٢٧	حب الله للمتطهرين .
٣١	بيعة العقبة .
٣٣	المؤمنون الكملة .
٣٧	النبوة والإيمان الصادق لايبيحان الاستغفار للمشركين فى حال .
٤٠	غزوة العسرة .
٤٣	لايرخص فى الكذب إلا فى ثلاث .

الصفحة	المبحث
٤٤	فى المعاريض مايغنى عن الكذب .
٤٨	وجوب التفقه فى الدين والاستعداد لتعليمه .
٥٤	الأب الرحيم ربما لجأ إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها .
٦٠	ليس الغنى سببا للزلفى والقرب من الله .
٦١	ليس القرآن بسحر .
٦٣	العرش مركز تدبير هذا الملك العظيم .
٦٤	لاينبغى أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين .
٦٥	الإعادة أهون من البدء .
٦٧	منازل القمر وسيلة لمعرفة عدد السنين والحساب .
٧١	تحية أهل الجنة .
٧٢	لايكون المؤمن أهلا للجنة إلا بالعمل ومجاهدة النفس والهوى .
٧٤	لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة .
٧٥	الإنسان عند الشدة يدعو ربه وعند الرخاء ينساه .
٧٦	هلاك الله للأمم ضربان .
٨٠	شر الظلم افتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته .
٨٢	الشرك ضربان شرك فى الربوبية وشرك فى الألوهية .
٨٣	شئون الرب وسائر مافى عالم الغيب لاتعلم إلا بوحى .
٨٥	معجزة النبى صلى الله عليه وسلم هى كتابه المعجز .
٨٨	دعا رسول الله على المشركين فقال : اللهم أنزل عليهم سنين كسنى يوسف .
٩٠	الناس الآن أشد من المشركين إشراكا فإذا نزلت بهم ضائقة دعوا الأموات وقد كان المشركون يدعون الله فى مثل هذا .
٩١	ثلاث هن رواجع على أهلها ـ المكر . والنكث . والبغى .
٩٣	مثل الحياة الدنيا فى القرآن .

الصفحة	المبحث
٩٤	صفات المحسن والمسىء يوم القيامة .
٩٥	وعد الله المحسن بالحسنى وزيادة وأوعد الذين كسبوا السيئات بسيئة مثلها .
٩٨	لاشفيع ولا ناصر يوم القيامة .
١٠٠	علامة الحياة فى النبات والحيوان .
١٠٢	الأدلة على بطلان الشرك .
١٠٥	أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن .
١٠٦	مافى القرآن ليس فى طوق البشر أن يأتى بمثله .
١٠٧	تحدّيهم أن يأتوا بسورة مثله .
١٠٨	إسراعهم فى تكذيبهم قبل أن يتدبروا معناه .
١١٠	النبى ليس بمسيطر ولاجبار .
١١١	المسلمون الآن يسمعون القرآن لترتيله لالتدبر معانيه .
١١٢	هداية الله لا تكون إلا المستعد لها .
١١٣	الدنيا كساعة من نهار
١١٥	ماترك الله أمة بلا رسول .
١١٦	المشركون كانوا يستعجلون العذاب .
١١٧	عجبا لقوم يطلبون الحاجات ممن دفنوا تحت أطباق الثرى .
١١٩	حديث ضمام بن ثعلبة مع النبى صلى الله عليه وسلم .
١٢٠	يتمنى الظالم أن يكون له فداء فى ذلك اليوم .
١٢٢	القرآن عظة وشفاء وهدى ورحمة .
١٢٤	التحليل والتحريم لله وحده .
١٢٥	جزاء المفترين على الله الكذب يوم القيامة .
١٢٧	الله رقيب وشهيد على أعمال المرء فى هذه الحياة .

الصفحة	المبحث
١٢٨	لا يغيب عن ربنا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .
١٢٩	أولياء الله .
١٣٠	للشيطان لمة وللملك لمة .
١٣٠	الذين يتوسلون بهم يتوسلون إلى ربهم راجين خائفين .
١٣٠	قال المشركون الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .
١٣٥	العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع والتقليد فيها غير سائغ .
١٣٧	مقالة نوح لقومه .
١٤١	حين جاء موسى بالآيات البينات قال فرعون وقومه إن هذا إلا سحر مبين .
١٤١	الساحر لا يفوز بمطلوب .
١٤٢	قالوا لموسى ماغرضك من هذه الدعوة إلا امتلاك البلاد .
١٤٣	مقالة موسى للسحرة .
١٤٥	الدعاء لا يستجاب إلا مع اتخاذ الأسباب .
١٤٦	كان المصريون يستعملون بنى إسرائيل فى المهن الحقيرة .
١٤٨	دعوة موسى على المصريين فى ذلك الحين .
١٥١	غرق فرعون فى بحر القلزم .
١٥٣	عاقبة بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر .
١٥٧	قوم يونس لما آمنوا .
١٥٨	لو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا .
١٦٠	لا تغنى الآيات والنذر لمن لا يفكر فيها .
١٦٢	الإله الذى ينبغى أن يعبد .
١٦٣	لا يكشف الضر إلا رب العالمين .
١٦٥	الرسول ليس بمسيطر ولا جبار .

شعارنا

الدين واللغة

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

مكتبة
مصطفى البابي الحلبي
وأولاده
بمصر

مطبعة
مصطفى البابي الحلبي
وأولاده
بمصر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر

صندوق بوستة الغورية نمرة ٧١

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثاني عشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثاني عشر

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا، وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ
لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الدابة : اسم لكل نسمة حية تدب على الأرض زحفا ، أو على قوائم ثنتين فأكثر ، وغلب عرفا على ما يركب من الخيل والبغال والحمير ، والدب والدبيب : الانتقال الخفيف البطيء كدبيب الطفل والشيخ المسنّ والعقرب ، والمستقر : مكان

الاستقرار من الأرض ، والمستودع : حيث كان مودعا قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ، والعرش : مركز نظام الملك ومصدر التدبير ، والبلاء : الاختبار والامتحان ، والأمة : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى: « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ» وأصلها الجماعة من نوع واحد أو دين واحد أو زمن واحد ، مصروفا عنهم: أى مدفوعا ومحبوسا ، وحاق : نزل وأحاط .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السالفة شمول قدرته تعالى لكل شىء و إحاطة علمه بما يسرون ومايعلنون و إحاطته بما فى الصدور ـ قفى على ذلك بذكر مايهم الناس من آثارقدرته ومتعلقات علمه ، وهومايتعلق بحياتهم وشئونهم المختلفة ، ثم بذكرخلقه للعالم كله ، ومكان عرشه قبل هذا من ملكه ، و بلاء البشر بذلك ليظهر أيهم أحسن عملا ، ثم بعثه إياهم بعد الموت لينالوا جزاء أعمالهم مع إنكار الكفار لذلك وطلب استعجال العذاب الذى أوعدهم به مع بيان أنه واقع بهم لامحالة إن أصروا على كفرهم.

الإيضاح

(وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) أى وما من دابة من أنواع الدواب فى الأرض إلا على الله رزقها ، لافرق فى ذلك بين الجِنة (المكروبات) التى لاترى بالأبصار ، و بين ضخام الأجسام ، والوسطى بين هذه وتلك ، وقد أعطى كلا خلقه المناسب لمعيشته ثم هداه إلى تحصيل غذائه بالغريزة والفطرة ، ولله تعالى حكم فى خلق كل نوع منها ، فإن خفى علينا أمر خلق الحيات والسنانير ونحوها ، فلنا أن تقول مثلا إنه لولاها لضاقت الأرض بكثرة أحيائها ، أو لأنتنت من كثرة أمواتها .

ومعنى كفالته تعالى لرزقها أنه سخره لها وهداها إلى طلبه وتحصيله كما قال : « رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » وقد علم بنصوص القرآن وسنن

الله فى الخلق وأسباب الرزق أن مشيئته تعالى لاتكون إلا بمقتضى سننه فى ارتباط الأسباب بالمسببات مع الحكمة فى ذلك ، لا أنه يأتيها بمحض قدرته سواء طلبته أم لا.

(ويعلم مستقرها ومستودعها) أى ويعلم حيث تستقر وتقيم ، وحيث كانت مودعة إلى حين ، ويرزقها فى كلتا الحالين .

(كلٌّ فى كتاب مبين) أى كل الدواب وأرزاقها ومستقرها ومستودعها ثابت مرقوم فى كتاب مبين ولوح محفوظ كتب الله فيه مقادير الخلق كلها .

(وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) أى فى ستة أيام من أيام الله فى الخلق والتكوين وما شاء من الأطوار لامن أيامنا فى هذه الدار التى وجدت بهذا الخلق لا قبله ، فلا يصح أن تقدر أيام الله بأيامها ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» وقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

وقد أثبت علماء الفلك أن أيام غير الأرض من الكواكب التابعة لنظام شمسنا تختلف عن أيام هذه الأرض فى طولها على حسب أجرامها وأبعادها وسرعتها فى دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقه تعالى من الدخان الذى يعبرون عنه بالسديم ـ شموسا مضيئة تتبعها كواكب منيرة ـ يقدر اليوم منها بألوف الألوف من سنينا هذه .

(وكان عرشه على الماء) أى وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء ، وعرش الرحمن من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا، فلا نعلم كنه استوائه عليه ولاصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم ، ومن ثم روى عن أم سلمة رضى الله عنها وعن مالك وربيعة قولهم: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

ومن الآية نعلم أن الذى كان دون العرش من مادة الخلق قبل تكوين السموات والأرض هو الماء الذى جعله الله أصلا لخلق جميع الأحياء كما قال : « أَوَلَمْ يَرَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ؟ » أى إنه يجب عليهم أن يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لافتق فيها ولا انفصال ، وهى ماتسمى لدى علماء الفلك السديم، ويسميها القرآن الدخان ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض فكان منها ماهو سماء ومنها ماهو أرض ، وجعلنا من الماء كل شىء حى، أفلا يؤمنون بأن الرب الذى خلق كل هذا هو الذى يُعبد وحده ولا يُشرك به شىء ، وأنه قادر على إعادة الخلق كما بداه أول مرة ؟.

والخلاصة — إن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى يتنزل إليه أمر التدبير والتكوين .

ثم علل خلقه بما ذكر ببعض حكمه الخاصة بالمكلفين المخاطبين بالقرآن فقال :

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى ليجعل ذلك ابتلاء واختبارا لكم فيظهر أيكم أحسن إتقانا لما يعمله لنفسه وللناس ، ذاك أنه تعالى سخر لنا ما فى الأرض وجعلنا مستعدين لإبراز ما أودعه فيها من منافع وفوائد مادية ومعنوية ، ومستعدين للافساد والضرر ، ليجزى كل عامل بما يعمل ، وإنما يتم ذلك ويظهر فى الآخرة .

(ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أى ولئن أخبرت هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، ليجزيهم فيما بلاهم به كما قال : « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ليجيبنك الذين كذبوا بلقاء الله قائلين : ماهذا الذى جئتنا به من هذا القرآن لتسخرنا لطاعتك وتمنعنا عن لذات الدنيا ـ إلا سحر بين ظاهر تسحر به العقول وتسخر به الضمائر والقلوب .

وبعد أن ذكر مايقوله المنكرون للبعث ذكر مايقوله المنكرون لإنذار الرسول صلى الله عليه وسلم إياهم عذاب الدنيا والآخرة بتكذيبهم له فقال :

(ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن مايحبسه) أى ولئن أخرنا

عنهم العذاب الذى توعدهم به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حين من الزمن مقدر فى علمنا وسنتنا فى خلقنا الذى بيناه بقولنا «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» ليقولن استهزاء، أى شىء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقا؟

(ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم) أى ألا إن له يوما يأتيهم فيه حين تنتهى المدة المضروبة دونه، ويومئذ لا يصرفه صارف ولا يحبسه حابس.

(وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وسيحيط بهم يومئذ من كل جانب ما كانوا يستهزئون به من العذاب قبل وقوعه، فلا هو يصرف عنهم ولا ينجون منه.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

شرح المفردات

الإذاقة هنا: الإعطاء القليل، والنزع: السلب والحرمان، واليئوس: شديد اليأس من عود تلك النعمة، والكفور: كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم، والنعماء والنعمة والنعمى: الخير والمنفعة، ويقابلها الضراء والضر، وفرح: بطر مغترا بهذه النعمة، وفخور: متعاظم على الناس بما أوتى من النعم، مشغول بذلك عن القيام بشكرها.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليبلو الإنسان أيشكر أم يكفر؟ - قفى على ذلك بذكر طبيعة الإنسان فى ذلك، وهى أنه إذا أصابته نعماء

ثم نزعت منه قنط من روح الله وكفر بها ، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس بطر وفخر - هكذا شأن الإنسان - إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .

الإيضاح

(ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور) أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم كرخاء عيش و بسطة رزق وصحة وأمن وولد بار، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها فكان شديد الاغتباط بها ، ثم سلبناه ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله فى الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لايزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .

والخلاصة — إنه يجمع بين اليأس بعودة مانزع منه والكفر بما بقى له لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .

(ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء كشفاء من مرض وزيادة قوة وخروج من عسر إلى يسر ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصايب والضراء ولن يعود ، وما هى إلا سحابة صيف قد تقشعت، وعلى أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه حينئذ لشديد الفرح بما يهيجه البطر بتلك النعمة ، و إنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس والاحتقار لمن دونه فيها .

والخلاصة — إنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء مسته باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر و يفخر على الناس ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء وعمل الخير لبنى الإنسان كفاء ماهو متمتع به من تلك النعم .

ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فياذكر من حاليه السالفتين قبله الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

(إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها و يبدل النعماء بها و يشكره باستعمال النعمة فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك لهم مغفرة من ربهم تمحو ماعلق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير فى الآخرة على ماوفقوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة — إن الإنسان و إن كان مؤمنا حق الإيمان لايسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصايب ، وذلك قد ينافى كمال الرضا ، كما لايسلم حين النعماء من شىء من الزهو والتقصير فى الشكر ، فيغفر له كل منهما بصبره وشكره و إنابته إلى ربه ، وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ » .

ووصف الأجر بالكبير — لما حواه من نعيم سرمدى وأمن من العذاب ورضا الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)

شرح المفردات

لعل هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ، وضيق الصدر : يراد به الغم والحزن ، والكنز : مايدخر من المال فى الأرض ، والوكيل : الرقيب الحفيظ للأمور الموكل بحراستها ، والاستجابة للداعى : إجابته ، والإسلام : الإذعان والخضوع والانقياد.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى بدء السورة قولهم فى القرآن : إنه سحر مبين ، وأنهم يستغشون ثيابهم كى لا يسمعوه - قفى على ذلك بذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن و بيان أن همه وحزنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من كلامهم كل مبلغ ثم أعقبه بتحدّيه لهم بالقرآن كى يأتوا بعشر سور مثله ، حتى إذا ماعجزوا علم أنه وحى من عند الله .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت حين قال رؤساء مكة : يامحمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك فقال لا أقدر على ذلك .

الإيضاح

(فلعلك تارك بعض مايوحى إليك وضائق به صدرك) أى أفتارك أنت أيها الرسول بعض مايوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين من الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك والإنذار والوعيد لهم ، والنعى على معبوداتهم وتسفيه أحلامهم ، وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كما أنزل .

ذاك أنهم كانوا يتهاونون به فيضيق صدره أن يلقى إليهم ما لايقبلون و يضحكون منه ، فاستحثه سبحانه على أداء الرسالة وعدم المبالاة باستهزائهم ، وطرح مقالاتهم الساخرة وراءه ظهريا .

وخلاصة ذلك — تحمل أخف الضررين : وهو تحمل سفاهتهم ، على ترك بعض الوحى والوقوع فى الخيانة فيه .

(أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) أى كراهة أن يقولوا : هلا أعطاه ربه كنزا من عنده يغنيه ويمتاز به عن غيره ، أو جاء معه ملك يؤيده فى دعوته كما حكى الله عنهم فى سورة الفرقان « وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا » .

وجملة المعنى — إن عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الإيمان وشدة اهتمامك بأمرهم مما من شأنه أن يقتضى ضيق الصدر على حسب الطباع البشرية أو أن يخطر على البال ترك بعض الوحى ، ولولا عصمتنا إياك وتثبيتنا لك لاجترحت ذلك واستسلمت لما لمثله جرت العادة ، ولكن الله حفظك حتى تؤدى رسالته وترحم العالمين بنور نبوتك كما قال : « وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا » وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » وقوله : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » وقوله : « المص . كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » .

(إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) أى ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحى إليك غير مبال بما يصدر منهم ويطلق ألسنتهم ، والله هو الرقيب على عباده وليس عليك من أعمالهم شىء ، وقد جاء بمعنى الآية قوله « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » وقوله : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » وقوله : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

وبعد أن ذكر ضيق صدره لتكذيب المشركين له ، قفى على ذلك بذكر ماقالوه فى القرآن فقال :

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة إن محمدا قد افترى هذا القرآن ؟ قل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم لاتدعون أنها من عند الله ، فإنكم أهل اللسن والبيان والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة وفنون الشعر والخطابة ، ولم يسبق لى مع العمر الطويل الذى عشته بينكم أن أزاول شيئا من ذلك ، فإن كان من كلام البشر فأنتم على مثله أقدر ، فإنكم لتعلمون أنى لم أكذب على بشر قط ، فكيف أفترى على الله ، وإن زعمتم أن لى من يعيننى على تأليفه ووصفه ، فادعوا من استطعتم ممن تعبدون غير الله ، ومن جميع خلقه ليساعدوكم على الإتيان بهذه السور العشر ، ولتكن مثله مفتريات إن كنتم صادقين فى دعواكم ، بأن تشتمل على مثل مافيه من تشريع دينى ومدنى وحكم ومواعظ ، وآداب وأنباء غيبية إخبارا عن ماض ، وأنباء غيبية عن مستقبل ، بمثل هذا النظام البديع والأسلوب البالغ حد الإعجاز ، والبلاغة الساحرة للألباب ، والسلطان الحاكم على الأنفس والأرواح .

والخلاصة — إن مشركى مكة المعاندين لم يجدوا شبهة فى القرآن بعد شبهة السحر التى لم تجد آذانا صاغية عند العرب ، لأنهم أرباب الفصاحة واللسن فعرفوا فضله على سائر الكلام - إلا زعمهم أن محمدا قد افتراه جملة وليس بوحى من عند الله فتحداهم بالإتيان بعشر سور مثله فى النظم والأسلوب ، محتوية على التشريع القيم من دينى ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ وآداب ، وكلفهم دعوة من استطاعوا من دون الله ليظاهروهم ويعاونوهم على ذلك ، فعجزوا ولم يجدوا من فصحائهم من يستجيب لهم ، فقامت عليهم الحجة وعلى غيرهم إلى يوم الدين ، وهذا معنى قوله :

(فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) أى فإن لم يستجب لكم من

تدعونهم من دون الله ليعاونوكم على الإتيان بالعشر السور المماثلة للقرآن من فحول الكتاب ومصاقع الخطباء وعلماء أهل الكتاب العارفين أخبار الأنبياء ، فاعلموا أنما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمقتضى علم الله و إرادته أن يبلغه لعباده على لسان رسوله ، لايعلم محمد ولا غيره ممن تدعونه زورا أنهم أعانوه ، لأنه من علم الغيب الذى لايعلمه إلا من أعلمه الله به .

(وأن لا إله إلا هو) أى واعلموا أنه لا إله يعبد بحق إلا هو ، إذ من خصائص الإله أن يعلم ما لايعلمه غيره ، وأن يعجز من عداه عن مثل مايقدر عليه .

(فهل أنتم مسلمون) أى فهل أنتم بعد أن قامت عليكم الحجة داخلون فى الإسلام الذى أدعوكم إليه بهذا القرآن ، مؤمنون بما فيه من عقائد ووعد ووعيد وأحكام وحِكم وآداب .

والخلاصة — إنه لم يبق لكم بعد أن دحضت شبهتكم وانقطعت معاذيركم إلا جحود العناد و إعراض الاستكبار ، والعاقل المنصف لايرضى لنفسه بمثل هذا .

ادعاؤهم افتراء النبى صلى الله عليه وسلم القرآن على الله

افتراء القرآن يشمل ناحيتين :

(١) افتراء فى جملته بإسناده إلى الله ما ادعاه أنه من كلامه أوحاه إليه .

(٢) افتراء أخبار الغيب التى يدعى أنها من عند الله ولا يعلمها إلا هو وبها استدل على نبوته ، وقد حكى الله عنهم ادعاء الأمرين فى سورة الفرقان بقوله: « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

وأساطير الأولين : هى قصصهم وأكاذيبهم التى سطروها ، وكانت العرب تسلى نفسها عن جهلها بالأديان والتواريخ بزعمهم أنها أساطير الأولين .

أنباء الغيب ضربان :

(ا) أنباء الغيب الماضية ، وتشمل قصص الرسل مع أقوامهم، وأخبار التكوين كخلق السموات والأرض وما بينهما كخلق الإنسان والجانّ .

(ب) أنباء الغيب الآتية ، وتشمل وعد الله بنصره لرسله والمؤمنين وجعل العاقبة لهم واستخلافهم فى الأرض وخذلان أعدائهم الكافرين ، والقيامة والبعث والحساب والجزاء على العقائد والأعمال ، وقد كانوا ينكرون ذلك ويستبعدونه .

ماحوته قصص القرآن

إن فى قصص القرآن لأشعة من ضياء العلم والهدى جاءت على لسان كهل أمىّ لم يكن منشئا ولا راوية ولا حافظا ، ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلى :

(١) بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .

(٢) بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعا ولا ضرا .

(٣) بيان سنن الله فى استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

(٤) بيان سنن الله فى الاجتماع وطباع البشر وما فى خلقه للعالم من الحكمة .

(٥) آيات الله وحججه على خلقه فى تأييد رسله .

(٦) نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم على حسب حالهم كقوم نوح فى غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملئه فى ثروتهم وعتوهم ، وقوم عاد فى قوتهم وبطشهم ، وقوم لوط فى فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثا مفترى ، فإن مفتريه يكون أكمل منهم كلهم علما وعملا وهداية وإصلاحا ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا

بهديه ، ولن يكشف حقيقة أمره إلا من يستطيع أن يأتى بحديث مثله ولو مفترى فى صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم أن الاحتذاء والاتباع أهون من الابتداء والابتداع .

ولـكن افتراء الأمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعية محال أيما محال ، وقد عجز عن مثلها حكماء العلماء ـ أفهكذا يكون الافتراء ، والحـديث المفتى الذى ينهى عنه العقلاء .

وفى التحدى بهذه السور العشر توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدوا لمعارضته ، لـكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)

شرح المفردات

نوف إليهم : أى نوصل إليهم ، ولا يبخسون : لا ينقصون ، وحبط : أى فسد ، و بطل : ولم ينتفع به .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الحجة على حقية دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله وليس بالمفترى من عند محمد صلى الله عليه وسلم كما يدعيه المشركون ـ قفى على ذلك

ببيان أن الباعث لهم على المعارضة والتكذيب ليس إلا شهواتهم وحظوظهم الدنيوية والإسلام يدعو إلى إيثار الآخرة على الأولى .

الايضاح

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون) أى من حظه من الدنيا التمتع بلذاتها من طعام وشراب وزينتها من اللباس والأثاث والرياش والأموال والأولاد دون استعداد للحياة الآخرة بعمل البر والإحسان وتزكية النفس بعمل الطاعات بباعث الإيمان ـ نؤد إليهم ثمرات أعمالهم وافية تامة على حسب سنتنا فى الأسباب ولا ينقصون شيئا من نتاج كسبهم لأجل كفرهم ، إذ مدار الأرزاق فيها على الأعمال لاعلى النيات والمقاصد ، وإن كان لهداية الدين أثر فى ذلك كالاستقامة والصدق ، واجتناب الخيانة والزور والغش ونحو ذلك .

والخلاصة — إن جزاء الأعمال فى الدنيا منوط بأمرين : كسب الإنسان ، وقضاء الله وقدره به ، وأما جزاء الآخرة فهو بفعل الله تعالى بلا وساطة أحد . « وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين لاهمّ لهم إلا الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار، لأن الجزاء فيها كالجزاء فى الدنيا على الأعمال ، وهم لم يعملوا للآخرة شيئا ، فإن العمل لها يكون بتزكية النفس بالإيمان وعمل الفضائل ـ وبالتقوى باجتناب المعاصى والرذائل، وفسد ماصنعوه مما ظاهره البر والإحسان كالصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك ، إذ لم يكن تزكية لأنفسهم تقربهم من ربهم ، بل كانت لأغراض نفسية من شهوات الدنيا كالرياء والسمعة والاعتزاز بذوى القرابة على الأعداء ولو بالباطل ، وظهر بطلان ما كانوا يعملون ، إذ قد علم أنه لافائدة منه فقد انقطع أثره الدنيوى ولا أجر له فى الآخرة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

والخلاصة — إن الدين يبيح التمتع بالطيبات من المآكل والمشارب ، ويبيح الزينة فى غير سرف ولا خيلاء ، على شريطة ألا يجعلها المرء كل همه فى الحياة ، فيحتقر المواهب الإنسانية من عقلية وروحية وهى التى سما بها الإنسان على غيره من المخلوقات ، ألا ترى أن الثور يفضله فى كثرة الأكل ، والبعير فى كثرة الشرب ، والعصفور فى كثرة السفاد ، والطاوس فى الزينة ولمعان اللباس .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) .

شرح المفردات

البينة : مايتبين به الحق كالبرهان فى الأمور العقلية والنصوص فى الأمور النقلية ، والتجارب فى الأمور الحسية ، والشهادة فى القضاء ، ويتلوه : يتبعه ، والشاهد :

هو القرآن ، والموعد : مكان الوعد وهى النار يردها كما قال: « لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ » والمرية : الشك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مآل من كان يريد الدنيا وزينتها ولا يهتم بالآخرة وأعمالها ـ قفى على ذلك بذكر من كان يريد الآخرة ويعمل لها ، وكان على بينة من ربه فى كل مايعمل ومعه شاهد يدل على صدقه ، وهو القرآن ، ومآل من أنكر صحته وكفر به .

الإيضاح

(أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) أى أفمن كان على نور بصيرة فى دينه ويؤيده نور غيبى يشهد بصحته وهو القرآن مشرق النور والهدى ، ويؤيده شاهد آخر جاء من قبله ، وهو الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام حال كونه إماما متبعا فى الهدى والتشريع ، ورحمة لمن آمن وعمل به من بنى إسرائيل (وشهادة موسى لهذا النبى الكريم شهادة مقال بالبشارة بنبوته ، وشهادة حال وهى التشابه بين رسالتيهما) ـ أى أفمن كان على هذه الأوصاف كمن يريد الحياة الدنيا الفانية وزينتها الموقوتة ، ويظل محروما من الحياة العقلية والروحية التى توصل إلى سعادة الآخرة الباقية .

ونحو الآية قوله : «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ»

وإجمال المعنى — أفمن كان كامل الفطرة والعقل ، وعرف حقيقة الوحى وهو القرآن ومافيه من نور وهداية ، وعرف تأييده بالوحى السابق الذى اهتدى به بنو إسرائيل ، فتظاهرت لديه الحجج الثلاث فى هداية دينه كمن حرم من ذلك وكان همه مقصورا على الحياة الفانية ولذاتها .

(أولئك يؤمنون به) أى أولئك الذين جمعوا بين البينة الوهبية والبينة الكسبية النقلية يؤمنون بهذا القرآن إيمان يقين و إذعان، على علم بما فيه من الهدى والفرقان، فيجزمون بأنه ليس بالمفترى من دون الله ولم يكن من شأنه أن يكون كذلك .

(ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن يكفر بهذا القرآن فيجحد أنه من عند الله ممن تحزبوا من أهل مكة وزعماء قريش للصدّ عنه . قال مقاتل هم بنو أمية و بنو المغيرة بن عبد الله المخزومى وآل طلحة بن عبيد الله ، والذين سيتحزبون لمثل ذلك من أهل الكتاب - فأنه يصير إلى جهنم من جرّاء تكذيبه لوعيده الذى جاء فى نحو قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) .

(فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) أى فلا تكن أيها المكلف فى شك من أمر هذا القرآن، إنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، آتيا من ربك وخالقك الذى يربيك بما تكمل به فطرتك ويوصلك إلى سعادتك فى دنياك وآخرتك.

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون هذا الإيمان الكامل ، أما المشركون منهم فلاستكبار زعمائهم ورؤسائهم ، وتقليد مرءوسيهم وعامتهم لهم ، وأما أهل الكتاب فلتحريفهم دين أنبيائهم وابتداعهم فيه .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ (٢٤) .

شرح المفردات

الأشهاد : واحدهم شاهد ، واللعنة : الطرد من الرحمة ، والصدّ عن سبيل الله : الصرف عنه ، والعوج الالتواء ، ومعجزين فى الأرض : أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه ، وضل : أى غاب ، ولاجرم : أى حقا ، وأخبتو : أى خشعوا وخضعوا وأصله من الخبت ، وهو الأرض المطمئنة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سبق أن الناس فريقان: فريق يريد الدنيا وزينتها ، وفريق على بينة من ربه ، قفى على ذلك ببيان حال كل من الفريقين فى الدنيا وما يكون عليه فى الآخرة .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم لنفسه ولغيره ممن افترى على الله كذبا فى وحيه وأقواله أو أفعاله ، أو أحكامه أو صفاته ، أو فى اتخاذ الشفعاء والأولياء له بدون إذنه أو فى زعم أنه اتخذ له ولدا من الملائكة كالعرب الذين قالوا الملائكة بنات الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، أو فى تكذيب ما جاء به رسله من دينه لصدّ الناس عن سلوك سبيله .

(أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) أى ويوم القيامة تعرض أعمال هؤلاء وأقوالهم على ربهم لمحاسبتهم ، ويقول الذين يقومون للشهادة عليهم من الملائكة والأنبياء وصالحى المؤمنين : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم بالافتراء عليه ، ويفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة الدالة على خروجهم من محيط الرحمة .

وقد جاء فى معنى الآية قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ » وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول : الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) » .

(الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون) أى إن الظالمين هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن سبيل الله ، وهى دينه القيم وصراطه المستقيم، ويصفونها بالعوج والالتواء لينفروا الناس منها، والحال أنهم كافرون بالآخرة لايؤمنون ببعث ولاجزاء .

(أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب) أى إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله لم يكونوا بالذين يعجزون ربهم بهربهم منه فى الأرض إذا أراد عقابهم ، بل هم فى قبضته وملكه ، لايمتنعون منه إذا أرادهم ولايفوتونه هربا إذا طلبهم ، ولم يكن لهم أنصار ينصرونهم من دون الله ويحولون بينهم وبينه إذا هو عذبهم ، ويضاعف لهم العذاب من أجل ضلالهم وإضلالهم .

ثم بين علة هذه المضاعفة بقوله :

(ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) أى ما كانوا يستطيعون إلقاء أسماعهم إلى القرآن إصغاء لدعوة الحق لاستحواذ الباطل على أنفسهم ورين الكفر والظلم على قلوبهم كما حكى الله عنهم بقوله: « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » وما كانوا يبصرون مايدل عليه فى الأنفس وفى الآفاق.

وإجمال المعنى — إنهم لشدة انهماكهم فى الكفر واتباع الهوى والشهوات صاروا يكرهون الحق والهدى ، فيثقل عليهم سماع مايبينه من الآيات السمعية ومايثبته من الآيات البصرية ، فهم قد ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم ، فلا يسمعون الحق سماع منتفع ولا يبصرون حجج الله إبصار مهتدٍ .

(أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى أولئك الذين هذه صفتهم هم الذين غبنوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله بافترائهم عليه واشتراء الضلالة بالهدى ، و بطل كذبهم بادعاء أن له شركاء وشفعاء يقربونهم إليه زلفى ، ثم سُلك بما كانوا يدعونه من دون الله غير مسلكهم ؛ إذ سُلك بهم إلى جهنم وصارت آلهتهم عدما ؛ لأنها كانت فى الدنيا أحجارا أو خُشُبا أو نحاسا ، وذلك هو ضلالهم و بُعدهم عنهم .

(لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى حقا إنهم فى الآخرة أشد الناس خسرانا ، إذ هم قد اعتاضوا عن نعيم الجنان ، بحميم آنٍ ، وعن شرب الرحيق المختوم ، بسموم وحميم ، وظلّ من يحموم ، وعن الحور العين ، بطعام من غسلين ، وعن قرب الرحمن ، بعقوبة الملك الديان .

و بعد أن بين حال الكافرين وأعمالهم ومآلهم ، بين حال المؤمنين وعاقبة أمرهم فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى إن الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا فى الدنيا الأعمال الصالحة ،

فأتوا بالطاعات وتركوا المنكرات وخشعت نفوسهم واطمأنت إلى ربهم - أولئك هم قطان الجنة الذين لايخرجون منها ولا يموتون ، بل هم ماكثون فيها أبدا .

(مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) أى مثل فريقى الكافرين والمؤمنين وصفتهما الحسية التى تطابق حالها كمثل الأعمى الفاقد لحاسة البصر فى خلقته، والأصم الفاقد لحاسة السمع الذى حرم وسائل العلم والمعرفة الإنسانية والحيوانية ، ومن هو كامل حاستى السمع والبصر فهو يستمد العلم من آيات الله فى خلقه بما يسمع من القرآن و بما يرى فى الأكوان وهما وسيلتا العلم والهدى لعقل الإنسان .

(هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ؟) أى هل يستوى الفريقان صفة وحالاً ومآلا ؟ كلا ، إنهما لايستويان ، أتغفلون عن ذلك المثل الجلى الواضح فلا تتذكرون مابينهما من التباين والاختلاف فتعتبروا به ؟ .

و إجمال المعنى — إنه شبه الكافرين بالعُمى الذين لايستعملون أبصارهم فيما يفضلون به الحيوان العجم من فهم آيات الله التى تزيدهم علما وهدى ، و بالصم الذين لايسمعون داعى الله إلى الرشاد والهدى فيجيبونه و يهتدون به ، وشبه المؤمنين الذين انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم واهتدوا إلى الجنة وتركوا ما كانوا خابطين فيه من كفر وضلال ، بحال من هو سميع بصير فيهتدى بسمعه إلى مايبعده من مواضع الهلاك ، و يهتدى ببصره بوساطة النور حين السير فى الظلام .

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ

هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) .

شرح المفردات

الملأ : الأشراف والزعماء ، والأراذل : واحدهم أرذل ، وهو الخسيس الدنىء ، وبادى الرأى : أى ظاهره قبل التأمل فى باطنه ، وفضل : أى زيادة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعثة النبي الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ليبين لقومه أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وأنه إنما بعث بمثل مابعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا كما قال : « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً » .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين) أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلا لهم إنى لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله :

(ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أى بألا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئا ، وكانوا أول من أشرك بالله واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض .

ثم علل هذا بقوله :

إنى أخاف عليكم الخ ، أى إن لم تخصوه بالعبادة وتفردوه بالتوحيد وتخلعوا مادونه من الأنداد والأوثان ـ أخفْ عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه وعذابه ، لمن عذب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته .

(١) (فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا) أى إن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ماأنت إلا بشر مثلنا فى الجنس لامزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

(٢) (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى وإنه لم يتبعك إلا الأخساء كالزرّاع والصناع ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادى الرأى قبل التأمل فى عواقبه والنظر فى مستنده وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

(٣) (وما نرى لكم علينا من فضل) أى وما نرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى يحملنا على اتباعكم ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

(٤) (بل نظنكم كاذبين) أى إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام أشركوا فيها أتباعه ولم يجابهوه بها وحده ؛ كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته وعدم الدخول فى دينه .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ

الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَلَـكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩)
وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)
وَلَا أَقُولُ لَـكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ،
وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُـكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي
أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، والبينة : مايتبين به الحق ، وعميت : أخفيت ، وطرده: أبعده ونحاه ، وتجهلون : أى تسفهون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم ، وتذكرون أصله تتذكرون ، وزرى على فلان زارية : عابه واستهزأ به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالتهم وطعنهم على نوح عليه السلام بتلك الشبه السالفة ، قفى على ذلك بدحض نوح لها ورد شبهات أخرى قد تكون صدرت منهم ولم يحكها لعلمها من الرد عليها ، وربما لم يقولوها وإن كان كلامهم يستلزمها، وهذا من خواص أسلوب الكتاب الكريم ، وسرّ من أسرار بلاغته .

الإيضاح

(قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم) أى قال ياقومى : أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما جئتكم به من ربى يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ومن كسبى البشرى الذى تشاركوننى فيه ، وآتانى رحمة من عنده وهى النبوة وتعاليم الوحى التى

هى سبب رحمة خاصة لمن يهتدى بها ، فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه فلم تتبينوا بها ماتدل عليه من التفرقة بينى و بينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .

(أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا ، إنا لانفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم مايرى و يشاء ، وما علىّ إلا البلاغ .

وهذا أول نصّ فى دين الله على أنه لاينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، وردّ لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها و إبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لاتقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ، فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى إن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

فما بالك بمن يختصهم الله من عباده بما شاء مما لا كسب لهم فيه كالأنبياء والرسل الكرام .

(وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله) أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ودعوتكم إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ولا أريد بذلك مالا فأكون متهما فيه عندكم لمكانة حبّ المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى به ، فهو الذى يجازينى ويثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده ، فجاءت على لسان هود

وصالح وشعيب ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيا عنهم .

(وما أنا بطارد الذين آمنوا) أى ليس من شأنى ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى وأنحيه عنى احتقارا له على أىّ حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا) وقد روى أنهم قالوا له يانوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله :

(إنهم ملاقو ربهم) أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم ـ صائرون إلى ربهم وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى تجهلون مايمتاز به البشر بعضهم عن بعض من اتباع الحق والتحلى بالفضائل وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء : « قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ » .

(وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم) أى وياقوم لا أجد أحدا يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم واتباعهم إياى فيما بلغتهم ـ فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب مهما تكن صفة من اجترحه كما قال فى سورة الأنعام : « فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » .

(أفلا تذكرون) أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لأنه فتنتهوا عنه ؟ ، فإن لهم ربا ينصرهم وينتقم لهم .

(ولا أقول لكم عندى خزائن الله) أى ولا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله : (أنواع رزقه التى يحتاج إليها عباده للإنفاق منها) اتصرّف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ولامن خصائص النبى ، ولوكان كذلك لاتبع الناس الرسل لأجلها ، بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته وتأهيلها لمثوبته فى دار كرامته ، ورضاه عنها يوم لاينفع مال ولابنون .

(ولا أعلم الغيب) فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالايصل إليه علمهم الكسبى من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم فى معايشهم وكسبهم فأخبر بها أتباعى ليفضلوا عليكم، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه : « قُلْ لَاأَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَاضَرّاً إِلَّامَاشَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ » .

(ولا أقول إنى ملك) من الملائكة أرسلت إليكم فأكون كاذبا فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرت بدعائكم إلى الله وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم .

وفى هذا دحض لشبهتهم إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ويمتاز عنهم ، ولاسبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكا يعلم مالايعلمه البشر ويقدر على مالايقدر عليه البشر .

(ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) أى ولا أقول للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده ، وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثة حالهم : لن يؤتيهم الله خيرا وهو ماوعده على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

(الله أعلم بما فى أنفسهم) أى الله أعلم بما فى صدورهم وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بادى الرأى، بلا بصيرة ولا علم .

(إنى إذا لمن الظالمين) أى إنى إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ماأبدته ألسنتهم لى على غير علم منى بما فى نفوسهم أكون ظالما لهم بهضم حقوقهم .

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)

شرح المفردات

أصل الجدال : هو الصراع و إسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، والنصح: تحرى الخير والصلاح للمنصوح له والإخلاص فيه قولا وعملا ، والإغواء : الإيقاع فى الغى، وهو الفساد الحسى والمعنوى ، والإجرام : الفعل القبيح الضار الذى يستحق فاعله العقاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهاتهم على رفض نبوة نوح عليه السلام وردّ نوح عليهم بما فيه مقنع لهم لو كانوا يعقلون ، ذكر هنا مقالتهم التى تدل على العجز والإفحام وأن الحيل قد ضاقت عليهم فلم يجدوا للرد سبيلا ، وفى ذلك إيماء إلى أن الجدال فى تقرير أدلة التوحيد والنبوة والمعاد وفى إزالة الشبهات عنها هى وظيفة الأنبياء ، والتقليد والجهل والإصرار على الباطل والإنكار والجحود هو ديدن الكفار المعاندين .

الإيضاح

(قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومه له قد حاججتنا فأكثرت جدالنا واستقصيت فيه فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ولم يبق لدينا شىء نقوله كما قال فى سورة نوح حكاية عنه .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا) أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدنيوى الذى تخافه علينا وهو الذى أراده بقوله : (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) إن كنت صادقا فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا قبل عقاب الآخرة .

(قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : ياقوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هربا منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لامحالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

(ولاينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أى إن نصحى لكم لاينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنًى وجاهٍ ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة — إن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من الغاوين ، لاخلقه للغواية فيهم ابتداء من غير عمل منهم ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

(هو ربكم وإليه ترجعون) أي هو مالك أموركم ومدبرها على حسب سننه المطردة فى الدنيا ، ولكل شىء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيرا .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥) .

المعنى الجملى

قال مقاتل وغيره : هذه الآية معترضة فى قصة نوح حكاية لقول مشركى مكة فى تكذيب هذه القصص. وللجمل والآيات المعترضة فى القرآن حكم وفوائد، منها تنبيه الأذهان ومنع السآمة وتجديد النشاط بالانتقال من غرض إلى آخر والتشويق إلى سماع بقية الكلام ، ومن المتوقع هنا أن يخطر فى بال المشركين حين سماع ما تقدم من هذه القصة أنها مفتراة ، لاستغرابهم هذا السبك فى الجدال ، والقوة فى الاحتجاج فكان إيراد هذه الآية تجديدا للرد عليهم وتجديدا لنشاطهم .

الإيضاح

(أم يقولون افتراه) أى بل أيقول مشركو مكة : إن محمدا افترى خبر قوم نوح . فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

(قل إن افتريته فعلىّ إجرامى) أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله فما الذى يحمله على اقترافه ؟ .

(وأنا برىء مما تجرمون) أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم ، فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) .

شرح المفردات

ابتأس : اشتد بؤسه وحزنه ، والفلك : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع ، والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ، وسخر منه : استهزأ به ، ويخزيه : يذله ويفضحه ، ومقيم : أى دائم .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه أن نوحا قد أكثر فى حجاجهم وجدالهم ، وأنه كلما ازداد فى ذلك زادوا عتوّا وطغيانا حتى تعجلوا منه العذاب وقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين — قفى على ذلك بذكر ما أيأسه من إيمانهم وأعلمه بأن ذلك كالمحال الذى لا يكون ، فالجدال والحجاج معهم عبث ضائع ، فلن يؤمن منهم إلا من قد حصل منه إيمان من قبل . فإياك أن تغتمّ على ما كان منهم من تكذيب فى تلك الحقبة الطويلة ، فقد حان حينهم وأزف وقت الانتقام منهم .

الإيضاح

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ودعا عليهم دعوته

التى حكاها الله عنه « رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْـكافِرِينَ دَيَّارًا » : أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ماتدعوه إليه إلا من قد آمن من قبل فيظل على إيمانه فلا يشتدنّ عليك البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ولمن آمن معك ، فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام وحان حين العذاب .

(واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه ، وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرض لك خطأ فى صنعته ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) وقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

(ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم فقد حقت عليهم كلمة العذاب وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة : لاتأخذنك بهم رأفة ولا شفقة .

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى وشرع يصنع الفلك ، وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزءوا به وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ظنا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجارا بعد أن كنت نبيًا ، وليس ذلك بالغريب منهم ، فإنه مامن أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أوفعل إلا سخروا منه قبل أن يكتب له النجاح فيه .

(قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون) أى قال نوح مجيبا لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتستجهلوننا لرؤيتكم ما لاتتصورون له فائدة ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقا ، نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحل بكم .

(فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) أى فإن كنتم لاتعلمون اليوم فائدة مانعمل وما له من عاقبة محمودة فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويجلب له العار والخزى فى الدنيا وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل مافى الدنيا فهو هيّن لين بالنسبة إلى ما يكون فى الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ(٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) .

شرح المفردات

الفور والفوران: الارتفاع القوى، يقال فى الماء إذا نبع وجرى، وإذا غلا وارتفع

والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس ، وحلول وقت انتقامه منهم ، والتنور: مايخبز فيه الخبز، اتفقت فيه لغة العرب والعجم، وأهل بيت الرجل : نساؤه وأولاده وأزواجهم ، ومجريها ومرساها : أى إجراؤها وإرساؤها ، ومعزل : أى مكان عزلة وانفراد ، وآوى : أى ألجأ ، وعصمه : حفظه ، والبلع : ازدراد الطعام والشراب بسرعة ، وغاض الماء : غار فى الأرض ونضب ، والجودى : جبل بالموصل .

المعنى الجملى

هذه الآيات غاية لما ذكر قبلها من الاستعداد لهلاكهم ، ومقابلة السخرية بغير ابتئاس ولا ضجر .

الإيضاح

(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

(قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين) أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آنئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ويبقى نوعها على الأرض .

(وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن) أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا إلا من سبق عليه القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم كما قال : (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) واحمل من صدقك واتبعك من قومك .

(وما آمن معه إلا قليل) منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره فى عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التى حملها ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك فى سفر التكوين .

(وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها) أى فحملهم نوح وقال اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرساؤها فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى : إن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسيها ، لابحولنا ولا بقوتنا .

(إن ربى لغفور رحيم) أى إن ربى لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم (باسم الله مجريها) الآية » .

(وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) أى وهى تجرى فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد مايحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهيجها الرياح الشديدة عرف أن المبالغة فى هـذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنيهة يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاهق جبل تريد أن تنقضّ منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرفهم مايفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعته الشفقة على ابنه فناداه وأشار إلى ذلك بقوله :

(ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) أى وناداه حين الركوب فى السفينة ، وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى مكان منعزل بعيد عن أبيه و إخوته ومن آمن من قومه ، يابنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فرد ابنه عليه :

(قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) أى قال سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الغرق .

فأجابه نوح مبينًا له خطأه :

(قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) أى قال نوح لابنه لاشىء يعصم أحدا فى هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يتقى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المغرقين الهالكين .

وقد وصف الله سبحانه هذا الطوفان فى سورة القمر قال : « كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ » .

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا ، وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا يصير بحرا متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ، وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء فى بدء التكوين .

ثم ذكر ماحدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال :

(وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودىّ وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى وجاء نداء من الملأ الأعلى خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعى ماءك الذى عليك والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفّى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين واستقرت السفينة راسية على جبل الجودى ، وقيل هلاكا وسحقا للظالمين ، وبُعدًا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هٰذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) .

المعنى الجملى

الآيات الثلاث الأولى تبين أن حكم الله فى خلقه العدل بلا محاباة لولىّ ولا نبى وأن الأنبياء قد يجوز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ويعدّ ذلك ذنبا بالنظر إلى مقامهم الرفيع ومعرفتهم بربهم ، وذلك ماعرض له نوح عليه السلام من الاجتهاد فى أمر ابنه الذى تخلف عن السفينة فكان من المغرقين ، كما أن فى الآية الأخيرة استدلالا على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وطلب صبره على أذى قومه .

الإيضاح

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ودعاه إليها فلم يستجب ، فقال يارب إن ابنى هذا من أهلى الذى وعدتنى بنجاتهم إذ أمرتنى بحملهم فى السفينة، وإن وعدك الحق الذى لاخلف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قال تعالى : « وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » فحكمه تعالى لا يكون إلا بالحق والعدل لأنه يصدر عن كمال العلم والعدل والحكمة فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والخلاصة — إن نوحا كان يريد أن ينجى ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البيّن أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

(قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) أى قال تعالى يانوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح : أى فهو يتنكب الصلاح ويلتزم الفساد .

(فلا تسألن ماليس لك به علم) أى فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح وقد سمى دعاءه سؤالا لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده .

وفى الآية إيماء إلى أنه لايجوز الدعاء بطلب ماهو مخالف لسنن الله فى خلقه بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولابطلب ماهو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

(إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) أى إنى أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم .

وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء مانهى الله عنه نبيًا من أولى العزم من رسله أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم مالم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على مافرط منه من السؤال فقال حاكيا عنه:

(قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) أى قال نوح رب إنى ألتجىء إليك وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لاأعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سولته لى الرحمة الأبوية وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول

توبني برحمتك التي وسعت كل شيء ـ أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادي كلهم وسعادتهم بطاعتك وأنت أعلم بهم مني .

والعبرة في الآية من وجوه :

(١) إن ما سأله نوح لأبنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ في اجتهاد بنية صالحة ، وعدّ هذا ذنبا لأنه ما كان ينبغي لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حينا بعد حين .

(٢) إنه لاعلاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ومايحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة كلهم مؤمنين .

(٣) إنه تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لابأنسابهم ، ولا يحابي أحدا منهم لأجل الآباء والأجداد وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغترّ بنسبه ولا يعمل مايرضي ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب ربه الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) أي قال الذي بيده ملكوت كل شيء ومدبر أمر العالمَ كله لنوح بعد أن انتهى الطوفان وأقلعت السماء عن المطر وابتلعت الأرض ماءها وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يانوح اهبط من الجودي

الذى استوت عليه السفينة ، ممتعا بسلام وتحية منا كما قال تعالى : « سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ » وبركات فى المعايش والأرزاق تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة وعلى ذريات يتناسلون منهم ويتفرقون فى الأرض فيكونون أمماً مستقلا بعضها من بعض، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما تصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة لأنهم لا يحافظون على السلام ، بل يبغى بعضهم على بعض لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون .

ثم ذكر لنبيّه أن هذا قصص من عالمَ الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل فقال:

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب التى لم تشهدها حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرفكها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحى الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

(فاصبر إن العاقبة للمتقين) أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرّون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

تتمة لقصة نوح عليه السلام

هل كان الطوفان عامًا أو خاصا ؟

سئل الأستاذ الإمام محمد عبده فى ذلك فأجاب بما يلى :

ليس فى القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لايوجب اليقين ، والمطلوب فى تقرير مثل هـذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ماترجحه عنده ثقته بالراوى أو المؤرخ أو صاحب الرأى ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون فى هذه المسألة لايخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلا قطعيا على معتَقد دينى .

من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر فى طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخى الأمم .

فأهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان عاما لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لاتتكون إلا فى البحر ، فظهورها فى رءوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاما لمجرد احتمال التأويل فى آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفى شيئا مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول

إلى ذلك فى مثل هـذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد . وعلم غزير فى طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذىَ برأيه بدون علم يقينىّ فهو مجازف لايسمع له قول ، ولا يسمح له بيث جهالاته ، والله ورسوله أعلم اه بتصرف .

وخلاصة هذا — إن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عامّا شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولـكنه لايقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لادليل على أنهم كانوا يملئون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوان البحرية فى قُنن الجبال لايدل على أنها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة فى الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لايكفى لحدوث ماذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول إنه ظاهر النصوص ولانتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض (الجيلوجيا) خلافه فلا يضيرنا ، لأنه لاينقض نصّا قطعيا عندنا .

حادثة الطوفان

فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم

ذكرنا فيما سلف أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن ، وأن مافيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة الله فيهم .

وذكرنا أيضا أن قصة نوح عليه السلام جاءت فى عدة سور فى كل سورة منها ماليس فى سائرها ، ولم يذكر من حادثة الطوفان إلا مافيه العبرة والموعظة .

وجاءت هـذه القصة فى سفر التـكوين فى أربعة فصول ذكر فى أولها سبب الطوفان ، وهو فى جملته على نحو ماجاء فى القرآن الـكريم إلا أن الأسلوب على نحو أساليب التوراة ، وذكر فى الرابع منها رجوع المياه من الأرض بالتدريج واستقرار الفلك على جبل أراراط ثم خروج نوح ومن معه من السفينة .

وقد ورد فى تواريخ أكثر الأمم القديمة ذكر الطوفان منها الموافق لما فى سفر التكوين ، ومنها المخالف ، فروى اليونان خبرا عن الطوفان أورده أفلاطون قال : إن كهنة المصريين قالوا لسولون (الحكيم اليونانى) إن السماء أرسلت طوفانا غير وجه الأرض ، وروى عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشر بفعل (اهريمان) إله الشر ، وقالوا إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز (زول كوفه) إذ كانت تخبز خبزها فيه ، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا إنه كان خاصا بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان .

عمر نوح عليه السلام

جاء فى الكتاب الكريم فى سورة العنكبوت : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » وجاء فى سفر التكوين نحو من هذا ، وقد اشتبه الأمر على الناس فى أزمنة مختلفة حتى زعم بعضهم أن السنة عند المتقدمين أقل من السنة عند أهل القرون المعروفة بعد تدوين التاريخ ، ولا دليل على هذا .

والذى يظهر أن أعمار آدم وذريته إلى ماقبل الطوفان أو قبل ما كشف من آثار التاريخ لاتقاس بما عرف بعد ذلك ، لأن معيشة الإنسان الفطرية كانت أسلم للأبدان وأقل توليدا للأمراض ، وقول الله هو الحق ويجب الإيمان به على كل حال ، قال الشاعر :

نجيت يارب نوحا واستجبت له ... فى فلكٍ ماخرٍ فى اليمّ مشحونا
وعاش يدعو بآيات مبينة ... فى قومه ألف عام غير خمسينا

قصة هود عليه السلام

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)

المعنى الجملى

هذا القصص ذكر فى سورة الأعراف بأسلوب ونظم يخالف ماهنا ، وفى كل منهما من العظة والعبرة ما ليس فى الآخر ، وسيأتى فى السور التالية بسياق آخر .

وقد جاء فى بعض الروايات أن هودا أول من تكلم بالعربية ، فهو أول رسول عربى من ذرية نوح ، وآخر رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربى أيضا .

الإيضاح

(وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون) أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم فى النسب والوطن هودا فقال لهم : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره فلا تعبدوا من دونه وثنا ولا صنما ، فما أنتم فى عبادتكم غيره من الأنداد والشركاء إلا مفترون الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتماثيلهم وترجون النفع وكشف الضر عنكم بجاههم عنده .

(ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون) أى ياقوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله والبراءة من الأوثان أجرا فتتهمونى بأنى أريد المنفعة لنفسى ، ماثوابى الذى أرجوه على تبليغى إياكم إلا على الله الذى خلقنى على الفطرة السليمة مبرأ من هذه البدع الوثنية التى ابتدعها قوم نوح حين صنعوا التماثيل لحفظ ذكرى الصالحين فزين لهم الشيطان تعظيم هذه التماثيل فعبدوها ، أفلا تعقلون مايقال لكم فتميزوا بين مايضر وما ينفع ، وإنى لكم ناصح أمين فلا أغشكم فيما أدعوكم إليه .

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم) السماء هنا : المطر ، والمدرار : الكثير الدرور ، وأصله فى كثرة

درّ اللبن ، يقال درت الشاة تدر فهى دار أى كثر فيض لبنها ، أى ياقوم استغفروا ربكم من الشرك ثم أخلصوا له التوبة ، يرسل عليكم المطر متتابعا من غير ضرر (وقد كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمائر) ويزدكم عزا إلى عزكم وقد كانوا يهتمون بذلك ويفخرون على الناس ، وقد بسط الله لهم الأجسام وأعطوا القوة فيها كما قال تعالى : « فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ » .

(ولا تتولوا مجرمين) أى ولا تعرضوا عما دعوتكم إليه مما ربما يكون سببا لنعيم العيش وسعة الرزق وزيادة القوة ، وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من الإجرام .

قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)

شرح المفردات

البينة : الحجة ، واعتراه كذا : غشيه ونزل به ، والسوء هنا : الجنون والخبل ، والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، وحفيظ : رقيب عليه بالحفظ والحراسة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تبليغ هود عليه السلام قومه دعوة ربه ، ذكر هنا ردّ قومه لتلك الدعوة فى جحودهم للبينة ، ثم إنذاره لهم .

الإيضاح

(قالوا يا هود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) أى قالوا ياهود ماجئتنا بحجة واضحة تدل على صحة دعواك ، أنك مرسل من عند الله ، وقد قالوا ذلك عنادا منهم وجحودا للحق ، وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا بسبب قولك الذى لابينة عليه ، وما نحن بمصدقين ماجئت به .

ثم بالغوا فى الردّ وقالوا :

(إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى لانجد من قول نقوله فيك إلا أن بعض آلهتنا أصابك بمسّ من جنون أوخبل لإنكارك لها وصدّك إيانا عن عبادتها.

والخلاصة — إن ماتقوله لايصدر إلا عمن أصيب بشىء اقتضى خروجه عن قانون العقل ، فلا يعتد به لأنه من قبيل الخرافات والهذيانات التى لاتصدر إلا عن المجانين فكيف نؤمن بك ؟ .

والخلاصة — إنهم ترقوا فى حجاجهم من سيّ ٔ إلى أسوأ إذ قالوا أولا ماجئتنا بالبينة ثم نفوا تصديقهم له مع كونه مما يقبل التصديق، ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا .

(قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون. من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم) .

هذا جواب منه عن مقالتهم وهو يتضمن جملة أمور :

(١) البراءة من إشراكهم الذى اقترفوه ولا حقيقة له .

(٢) إشهاد الله على ذلك ثقة منه بأنه على بينة من ربه .

(٣) إشهادهم أيضا على ذلك إعلاما منه بعدم مبالاته بهم و بما يزعمون من قدرة شركائهم على إيذائه وضرره .

(٤) طلبه منهم أن يجمعوا كلهم على الكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا .

وفى هذا دليل واضح على أنه لايخافهم ولا يخاف آلهتهم، وقد صدرت مثل هذه المقالة عن نوح عليه السلام بقوله « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ » كما لقن الله نبيه مثل هذا بقوله « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ » .

(٥) عدم الخوف منهم ومن آلهتهم، إذ وكل أمر حفظه وخذلانهم إلى الله ربه وربهم ومالك أمره وأمرهم ، المتصرف فى كل مادب على وجه الأرض والمسخر له ، وهو سبحانه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب والعقاب ، كافٍ لمن اعتصم به وهو لايسلط أهل الباطل من أعدائه على أهل الحق من رسله ولا يفوته ظالم .

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) أى فإن استمررتم على ما أنتم عليه من التولّى والإعراض وأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعبادة الرسول ، فقد أبلغتكم رسالة ربى التى أرسلنى بها إليكم ، وليس علىّ غير البلاغ وقد لزمتكم الحجة وحقت عليكم كلمة العذاب .

(ويستخلف ربى قوما غيركم) أى إن الله يهلككم ويستخلف فى دياركم وأموالكم قوما آخرين .

(ولا تضرونه شيئا) بتوليكم عن الإيمان فإنه غنىّ عنكم وعن إيمانكم، وهو بمعنى قوله « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ » .

(إن ربى على كل شىء حفيظ) أى إن ربى رقيب على كل شىء قائم بالحفظ

عليه على ما اقتضته سننه وتعلقت به إرادته ، ومن ذلك أنه ينصر رسله ويخذل أعداءهم إذا أصروا على الكفر بعد قيام الحجة عليهم .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه إصرار قوم هود على العناد والعتوّ وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات ـ ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم ، وأنه تعالى أصابه برحمة من لدنه، وأنزل بهم العذاب الغليظ ، كِفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله .

الإيضاح

(ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) أى ولما نزل عذابنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة من لدنا وميزناهم عن الكافرين فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ ، وهو الريح العقيم التى لاتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، كما فصلها فى سورة القمر بقوله (إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ)

ثم ذكر سبب مانزل بهم من البلاء فقال :

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) أى وقد أحللنا بهم نقمتنا لأنهم جحدوا بآيات ربهم وحججه ، وعصوا رسله الذين

أرسلهم إليهم للدعاء إلى توحيده واتباع أمره ، وهم وإن كانوا قد عصوا رسولا واحدا فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع ، لأنه ما كان إلا لنفى الرسالة نفسها بدعوى أن الرسول لايكون بشرا .

وقد اتبع سوادهم ودهماؤهم كل جبار عنيد من رؤسائهم الطغاة العتاة المستبدين الذين يأبَوْن الحق ولا يذعنون له وإن قام عليه الدليل .

(وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أى ولحقت بهم لعنة فى هذه الدنيا ، فكان كل من علم بحالهم ومن أدرك آثارهم ، وكل من بلّغه الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم ، وتلحقهم أيضا يوم القيامة حين مايلعن الأشهاد الظالمين أمثالهم :

قال قتادة : تتابعت عليهم لعنتان من الله ، لعنة فى الدنيا ولعنة فى الآخرة .

ثم أكد كفرهم بشهادته عليهم فقال :

(ألا إن عادا كفروا ربهم) أى إن عادا كفروا نعمه عليهم بجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسله كبرا وعنادا .

(ألا بعدا لعاد قوم هود) هـذا دعاء عليهم بالهلاك والبعد من الرحمة ، وهو تسجيل عليهم باستحقاقه وإعلامٌ بدوامه .

قصة صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)

شرح المفردات

أعمرته الأرض واستعمرته إياها: إذا فوضت إليه عمارتها، والريب: الظن والشك يقال رابنى الشىء يريبنى: إذا جعلك شاكا ، وغير تخسير : أى غير إيقاع فى الخسران باستبدال الشرك بالتوحيد .

المعنى الجملى

جاء هذا القصص فى بيان دعوة صالح لقومه ثمود وردهم لها بعد احتجاجه عليهم، وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود ـ الحجر وهى بين الحجاز والشام وسيأتى ذكر قصصهم فى سورة الشعراء والنمل والقمر والحجر وغيرها ، وفى كل منها من الموعظة والعبرة ما لايغنى عنه غيره .

الإيضاح

(وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) الكلام فى هذا كالكلام فى نظيره السابق فى تبليغ هود عليهما السلام .

(هو أنشأكم من الأرض) أى ابتدأ خلقكم منها ، فهى المادة الأولى التى خلق منها آدم أبو البشر ، ثم خلقكم أنتم من سلالة من طين بالوسائط ، فإن النطفة التى تتحول إلى علقة ثم إلى مضغة ، ثم إلى هيكل عظمى يحيط به لحم ـ أصلها دم ، والدم من الغذاء وهو إما من نبات الأرض ، وإما من اللحم الذى يرجع إلى النبات بعد طور أو أكثر .

(واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارا لها فقد كانوا زراعا وصناعا وبنائين كما جاء فى الآية الأخرى « وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ » .

والخلاصة ـ إنه هو المنشىء لخلقكم والممد لكم بأسباب العمران والنعم فى الأرض،

فلا ينبغى أن تعبدوا فيها غيره، فهو ذوالفضل عليكم، وشكرانه واجب عليكم باخلاص العبادة له وحده .

(فاستغفروه ثم توبوا إليه) أى فاسألوه أن يغفر لكم ماتقدم من ذنوبكم باشراككم به سواه ، وبما اجترحتم من الآثام ، ثم ارجعوا إليه بالتوبة كلما فرط منكم ذنب عسى أن يغفر لكم .

(إن ربى قريب مجيب) أى قريب من عباده لا يخفى عليه استغفارهم ولا الباعث عليه ومجيب لدعاء من دعاه وسأله إذا كان مؤمنا مخلصا ، ونحو الآية ماتقدم فى سورة البقرة من قوله «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» .

(قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا) أى قد كنت عندنا موضع الرجا لمهام أمورنا لما لك من رجاحة عقل وأصالة رأى ، ولحسَبك ونسبك قبل هذه الدعوة التى تطلب بها إلينا أن نبدل ديننا زعما منك أنه باطل ، فالآن انقطع رجاؤنا منك .

ثم ذكروا أسباب انقطاع رجائهم بقولهم :

١ ـ (أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا) أى عجيب منك أن تنهانا عن عبادة ما كان يعبد آباؤنا من قبلنا ، وقد سرنا نحن على نهجهم ولم ينكره أحد علينا ولم يستقبحه ، فكيف تنكره ؟ .

٢ ـ (وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب) أى وإنا لفى شك من دعوتك إلى عبادته تعالى وحده دون أن نتوسل إليه بأحد من الشفعاء المقربين عنده ، ولا أن نعظم ماوضعه آباؤنا لهم من صور وتماثيل تذكرنا بهم ، فكل هذا يوجب الريب والتهمة وسوء الظن وعدم الطمأنينة إلى دعوتك .

فأجابهم صالح :

(قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة منه) أى أخبرونى عن حالى معكم إن كنت على برهان وبصيرة من ربى مالك أمرى وآتانى من قبله رحمة خاصة من عنده جعلنى بها نبيًا مرسلا إليكم .

(فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟) أى فمن يمنعنى من عذابه إذا أنا كتمت الرسالة ، أو كتمت مايسوءكم من بطلان عبادة الأصنام والأوثان تقليدا لآبائكم - أى لا أحد يدفع ذلك عنى فى هذه الحال فلا أبالى إذاً بقطع رجائكم فىَّ ولا بما أنتم فيه من شك وريب فى أمرى .

ثم ذكر مآل أمره إذا هو اتبعهم فقال :

(فما تزيدوننى غير تخسير) أى فما تزيدوننى باتقاء سوء ظنكم وارتيابكم غير إيقاعى فى الخسران بإيثار ماعندكم على ماعند الله واشتراء رضاكم بسخطه تعالى .

وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)

شرح المفردات

الآية : المعجزة الدالة على صدق نبوته ، وذروها : اتركوها ، وعقر الناقة بالسيف: قطع قوائمها به أو نحرها ، والتمتع : التلذذ بالمنافع ، والدار : البلد كما يقال ديار بكر : أى بلادهم ، وكذب فلانا حديثا وكذبه الحديث : أى كذب عليه فيه ، والوعد : خبر موقوت كأن الواعد قال للموعود إننى أفى به فى وقته ، فإن وفى فقد صدق ولم يكذبه ، وأصل الأخذ : التناول باليد ، ثم استعمل فى الأشياء المعنوية كأخذ الميثاق

والعهد وفى الإهلاك ، والصيحة : الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة ، وجاثمين : أى ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد ، وغنى بالمكان : أقام فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن قومه قالوا له إننا لفى شك مما تدعونا وسألوه الآية على مادعاهم إليه ـ ذكر هنا أنه قال لهم إن آيته على رسالته هى الناقة ، وأن من يمسها بسوء يصيبه عذاب أليم .

الإيضاح

(ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية) أى ياقومى هذه ناقة ممتازة عن سائر الإبل بما ترون من أكلها وشربها وجميع شئونها ، قد جعلها الله لكم آية منه بينة دالة على صدقى وعلى إهلاككم إن أنتم خالفتم أمره فيها .

(فذروها تأكل فى أرض الله) أى اتركوها تأكل مما فى الأرض من المراعى وليس عليكم مئونتها .

(ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) أى ولا يمسها أحد منكم بأذى فيأخذكم عذاب عاجل لايتأخر عن مسكم إياها بسوء إلا يسيرا .

ثم ذكر أنهم لم يستمعوا نصحه فقال :

(فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب) أى فكذبوه فعقروها فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم فى دار الدنيا ثلاثة أيام ، وهذا الأجل الذى أجلتم وعد من الله وعدكم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب ، لم يكذبكم فيه من أعلمكم ذلك .

ثم ذكر وقوع ما أوعدوا به فقال :

(فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ)

أى فلما جاء ثمود عذابنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا ، ونجيناهم من عذاب ذلك اليوم ونكاله باستئصالهم من الوجود ؛ و بما يتبعه من سوء الذكر والطرد من رحمة الله .

ثم بيّن عظيم قدرته على التنكيل بأمثالهم من المشركين فقال :

(إن ربك هو القوى العزيز) أى إن ربك أيها الرسول الذى فعل هذا بهم قادر أن يفعل مثل ذلك بقومك إذا أصروا على الجحود إذ لا يعجزه شىء ، وهو الغالب على أمره .

ثم ذكر مآل أمرهم وشديد عقابه بهم فقال :

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى فأخذتهم صيحة الصاعقة التى نزلت بهم فأحدثت رجفة فى القلوب وزلزلة فى الأرض وصعقوا بها جميعا فانكبوا على وجوههم لم ينج منهم أحد .

(كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بُعداً لثمود) أى كأنهم لسرعة زوالهم وعدم بقاء أحد منهم لم يقيموا فى ديارهم البتة ، وما سبب هذا إلا أن كفروا بآيات ربهم فجحدوها ، ألا بعدا وهلاكا لهم .

بشارة الملائكة لإبراهيم وامرأته بإسحاق

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ ، إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟

إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣)

شرح المفردات

فما لبث : أى ما أبطأ ، وحنيذ : أى مشوىّ بالرضف وهى الحجارة المحماة ، ولا تصل إليه : أى لاتمتد للتناول، ونكره وأنكره: ضد عرفه ، وأوجس القلب فزعا: أحسّ به ، ولوط : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به، وياويلتنا : أصلها ياويلى، وهى كلمة تقال حين يفجأ الإنسان أمر مهمّ من بلية أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، والبعل : الزوج وجمعه بعولة ، وأمر الله : قدرته وحكمته ، وحميد : أى تحمد أفعاله ، ومجيد : أى كثير الخير والإحسان .

الإيضاح

(ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) أى ولقد جاءت رسلنا من الملائكة ، واختلفت الرواية فيهم ، فعن عطاء إنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، وعن غيره إنهم جبريل وسبعة أملاك معه ، ومثل هذا لايعلم إلا بتوقيف من الوحى ولم يثبت ، والبشرى : البشارة بالولد لقوله : « فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ » الآية وقوله فى الذاريات : « وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ».

(قالوا سلاما) أى قالوا : نسلم عليك سلاما.

(قال سلام) أى قال : عليكم سلام .

(فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أى فما أبطأ أن جاءهم بعجل مشوىّ على الحجارة المحماة (وقد اهتدى البشر إلى شىّ اللحم من صيد وغيره على الحجارة المحماة بحر الشمس قديما قبل الاهتداء إلى إنضاجه بالنار) .

وجاء فى سورة الذاريات : « فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ » وفى هذا دليل على أنه كان مشويًّا معدا لمن يجىء من الضيوف، وربما كان قد شوى عند وصولهم بلا إبطاء ولا تريث .

(فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) أى فلما رأى إبراهيم أيديهم لاتمتد إلى الطعام الذى قدم إليهم نكر ذلك منهم ووجده على غير مايعهد من الضيوف (فالعادة قد جرت أن الضيف إذا لم يطعم مما قدم إليه ظن أنه لم يجئ بخير وأنه يحدث نفسه بشر) وأحس فى نفسه خوفا وفزعا إذ شعر أنهم ليسوا بشرا ، وربما كانوا من ملائكة العذاب .

(قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط) أى قالوا له حين علموا ما يساور قلبه من الخوف لاتخف، فنحن لانريد بك سوءا ، وإنما أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم، وكانت ديارهم قريبة من دياره ، وجاء فى سورة الحجر أنه صارحهم بالخوف فطمأنوه وبشروه بغلام عليم ، وكذا فى سورة الذاريات .

(وامرأته قائمة فضحكت) أى وكانت امرأة إبراهيم واقفة للخدمة فضحكت سرورا بالأمن من الخوف ، أو لقرب عذاب قوم لوط لكراهتها لسيرتهم الخبيثة .

(فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى فبشرناها بالتبع لبشارة إبراهيم بإسحاق ، ومن بعد إسحاق يعقوب أى إنه سيكون لإسحاق ولد أيضا كما قال تعالى : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ » .

(قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشىء عجيب) أى قالت سارة لما بشرت بإسحاق: كيف ألد وقد بلغت السن التى لايلد من كان قد بلغها من الرجال والنساء ، وهذا زوجى شيخا كبيرا لايولد لمثله ، إن هذا الذى بشرتمونا به لشىء عجيب مخالف لسنن الله التى سلكها فى عباده .

وقد جاء فى سفر التكوين أن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وأن زوجه

سارة كانت ابنة تسعين سنة ومثلها لايلد ، بل الغالب أن ينقطع حيض المرأة فى سن الخمسين فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقيما كما فى سورة الذاريات.

وربما كانت زوجه سارة علمت من حال زوجها بعد ولادة هاجر لابنه إسماعيل بمدة قليلة أو كثيرة أنه أصبح غير مستعد لمباشرة النساء ، أو كانت تعتقد كما يعتقد أن مثله فى تلك السن لايولد له.

(قالوا أتعجبين من أمر الله) أى قالوا لها : لاينبغى لك أن تعجبى من شىء يصدر عن أمر الله الذى لايعجزه شىء كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

والله الخالق للسنن وواضع نظام الأسباب هو الذى أراد أن يستثنى منها واقعة بعينها يجعلها من آياته لحكمة من حكمه أرادها لبعض عباده.

(رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) أى رحمة الله وبركاته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة تتوارث فى نسلكم إلى يوم القيامة ، وماتلك بأول آية لإبراهيم فقد نجاه من نار قومه الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين.

(إنه حميد مجيد) أى إنه جل ثناؤه مستحق لجميع المحامد ، حقيق بالخير والإحسان.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)

شرح المفردات

الروع : (بالفتح) الخوف والفزع : (وبالضم) النفس ، والحليم : الذى لايحب المعاجلة بعقاب ، والأوّاه : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، والمنيب الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ، وغير مردود : أى غير مدفوع لابجدال ولا بشفاعة.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه بعض ماجرى بين إبراهيم والملائكة ، وصل به بعضا آخر كالتتمة له .

الإيضاح

(فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط) أى فلما سُرِّى عن إبراهيم وانكشف له ما أوجس منه الخيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل من ملائكة العذاب ، وجاءته البشرى بالولد واتصال النسل أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط (وجعلت مجادلتهم مجادلة لله لأنها مجادلة فى تنفيذ أمره) وهذه المجادلة قد فصلت فى سورة العنكبوت فجاء فيها :

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ » .

كما جاءت هذه المجادلة فى الفصل الثامن عشر من سفر التكوين من التوراة ففيه : (إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس فى باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم وأتى لهم بعجل وخبز ملة فأكلوا و بشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة فضحكت وتعجبت لكبرها وانقطاع عادة النساء عنها ، فقال الرب لإبراهيم لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الرب شىء ؟ ... وانصرف الرجال (أى الملائكة) من هناك وذهبوا نحو سدوم (قرية قوم لوط) و إبراهيم لم يزل قائما أمام الرب فتقدم إبراهيم وقال : أتهلك البارّ مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خمسون بارا فى المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه ؟ فقال الرب إن وجدت فى سدوم خمسين بارا فإنى أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كلمه إبراهيم مثل

هذا فى خمسة وأربعين ثم فى أربعين ثم فى ثلاثين ثم فى عشرين ثم فى عشرة، والرب يعده فى كل من هذه الأعداد بأنه من أجلهم لا يهلك القوم ... وذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع ابراهيم إلى مكانه) اه .

(إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب) أى إنه جادل الملائكة فى عذاب قوم لوط لأنه كان حليما لايعجل بالانتقام من المسىء كثير التأوّه مما يسوء الناس ويؤلمهم ، يرجع إلى الله فى كل أموره .

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود) أى أعرض عن الجدال فى أمر قوم لوط والاسترحام لهم ؛ إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لايُرد عن القوم المجرمين، وإنهم آتيهم عذاب لاسبيل إلى دفعه ورده بجدل ولاشفاعة ولابغيرهما .

وفى هذه الآية عبرة لمن يتخذ من الله أندادا من أوليائه ، ويزعم أنهم يتصرفون فى الكون كما يريدون ولا يردّ لهم طلب كما قال : « لَهُمْ مَايَشَاءونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وفيها أكبر رد عليهم فيما يتخرصون به ، فهذا جدّ الأنبياء وأفضلهم بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو إبراهيم نهاه الله عن التعرض لما قضى به فأراده .

قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ

مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)

شرح المفردات

سىء بهم : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم ، الذرع والذراع : منتهى الطاقة ، يقال مالى به ذرع ولاذراع : أى مالى به طاقة ، ويقال ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله ، والعصيب : الشديد الأذى ، ويقال هرع وأهرع (بالبناء للمفعول) : إذا حمل على الإسراع ، وقال الكسائى لايكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة من برد أو غضب أو حمى أو شهوة ولا تخزون : أى لاتخجلونى ، والضيف يطلق على الواحد والجمع ، والرشيد : ذو الرشد والعقل ، لو أن لى بكم قوة : أى على الدفع بنفسى، أوآوى إلى ركن شديد من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين.

الإيضاح

فى سفر التكوين أن لوطا عليه السلام ابن هرون أخى إبراهيم صلى الله عليه وسلم وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما (أور الكلدانيين) فى العراق إلى أرض الكنعانيين وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سدوم بالأردن، ويظن بعض الباحثين أن بحيرة لوط غمرت موضعها بعد الخسف ، ويقال إن الباحثين فى العصر الحاضر عثروا على آثارها.

(ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب) أى ولما جاءت ملائكتنا لوطا ساءه مجيئهم ، وعجز عن احتمال ضيافتهم ، لما كان يتوقعه من اعتداء قومه عليهم كعادتهم (وقد روى أنهم جاءوه بشكل غلمان حسان الوجوه) وقال هذا يوم شديد شره ، عظيم بلاؤه .

(وجاءه قومه يهرعون إليه) أى وجاء لوطا قومه يهرولون كأن سائقا يسوقهم مما بهم من طلب الفاحشة .

(ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى ومن قبل هـذا المجىء كانوا يعملون السيئات الكثيرة التى أفظعها ما أنكرته الفطر البشرية والشرائع الإلهية والوضعية ، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء ومجاهرتهم بها فى أنديتهم كما حكى الله عنهم بقوله : «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ»

(قال ياقوم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم) فتزوجوهن ، أراد ببناتى بنات قومه لأن النبى فى قومه كالوالد فى عشيرته كما قال ابن عباس ، ويدخل فيهن نساؤهم المدخول بهن وغيرهن من المعدات للزواج ، ومراده أن الاستمتاع بهن بالزواج أطهر من التلوث برجس اللواط ، فإنه يكبح جماح الشهوة مع الأمن من الفساد .

(فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى فاخشوا الله واحذروا عقابه فى إتيانكم الفاحشة التى تطلبونها، ولاتذلونى وتمتهنونى بفضيحتى فى ضيوفى ؛فإن إهانة الضيوف إهانة للمضيف وفضيحة لهم .

(أليس منكم رجل رشيد) أى أليس منكم رجل ذو رشد وحكمة ينهى من أرادوا ركوب الفاحشة من ضيوفى فيحول بينهم و بين مايريدون .

(قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) أى لقد علمت من قبل أنه ليس لنا فى بناتك من رغبة فى تزوّجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده ، وقد يكون المعنى ــ لقد علمت الذى لنا فى نسائنا اللواتى تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن ، فلا ينبغى عرضك إياهن علينا لتصرفنا عما نريده .

(و إنك لتعلم مانريد) أى و إنك لتعرف حق المعرفة مانريد من الاستمتاع بالذكران ، و إننا لانؤثر عليه شيئا .

والخلاصة — إنهم أجمعوا أمرهم على فعل مايريدون .

(قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) أى قال لوط لقومه حين أبوا إلا المضىّ لما قد جاءوا له من طلب الفاحشة وأيس من أن يستجيبوا له إلى شىء مما عرض عليهم : لو أن لى بكم قوة بأنصار تنصرنى عليكم وأعوان تعيننى ، أو أنضم إلى عشيرة تجيرنى منكم لحلت بينكم وبين ماجئتم تريدونه منى فى أضيافى .

قَالَ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)

شرح المفردات

السرى : (بالضم) والإسراء فى الليل : كالسير فى النهار ، والقطع من الليل : الطائفة منه ، والسجيل : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى «حجارة من طين» قال الراغب: هو حجر وطين مختلط أصله فارسىّ فعرب، ومنضود: أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ومسومة : أى لها سومة (بالضم) وعلامة خاصة فى علم ربك

المعنى الجملى

بعد أن بين عز اسمه مايدل على أن لوطا كان قلقا على أضيافه مما يوجب الفضيحة لهم ، وذلك قوله : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ » ذكر هنا أن الرسل بشروه بأن قومه لن يصلوا إلى ماهموا به ، وأن الله مهلكهم ومنجيه مع أهله من العذاب.

الإيضاح

(قالوا يالوط إنا رسل ربك) أى قال الملائكة للوط بعد أن رأوا شديد الكرب الذى لحقه بسببهم وتمنيه أن يجد قوة تدفعهم عن أضيافه : إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم وتنجيتك من شرهم .

(لن يصلوا إليك) ولا إلى ضيفك بمكروه فهون عليك الأمر ، وحينئذ طمس الله أعينهم فلم يعودوا يبصرون لوطا ولا من معه كما جاء فى سورة القمر : «وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ » فانقلبوا عميا يتخبطون لايعرفون الطريق ولايهتدون إلى بيوتهم وصاروا يقولون النجاء النجاء فإن فى بيت لوط قوما سحرة .

(فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فاخرج من هذه القرى أنت وأهلك ببقية من الليل تكفى لتجاوز حدودها ، وجاء فى سورة الذاريات : « فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

(ولايلتفت منكم أحد) أى ولاينظر أحد إلى ماوراءه ليجدّوا فى السير ، أو لئلا يروا ماينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم ، وجاء فى سورة الحجر : « وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ».

(إلا امرأتك) فقد كان ضلعها مع القوم وكانت كافرة خائنة .

(إنه مصيبها ما أصابهم) أى إنه مصيبها ذلك العذاب الذى أصابهم ومقضىّ عليها بذلك ، فهو واقع لابد منه .

ثم علل الإسراء ببقية من الليل فقال :

(إن موعدهم الصبح) أى موعد عذابهم الصبح ابتداء من طلوع الفجر إلى الشروق كما جاء فى سورة الحجر (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ)

(أليس الصبح بقريب) أى أليس موعد الصبح بموعد قريب لم يبق له إلا ليلة واحدة فانج فيها بأهلك ، وهذا كالتأكيد لما قبله، وجواب عن استعجال لوط

لهلاكهم ، وحكمة تخصيص هذا الوقت أنهم يكونون مجتمعين فى مساكنهم فلا يفلت منهم أحد .

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) أى فلما جاء أمرنا بالعذاب وقضاؤنا فيهم بالهلاك قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض .

وقد جرت سنة الله أنه إذا أراد خسف أرض فى جهة ما أحدث تحتها فراغا بتفاعل الأبخرة التى فى جوفها فيندك الجزء الأعلى وينهدم ويغور إلى أسفل إما عموديا إن كان الفراغ بقدر ماانخسف من الأرض وإما مائلا إلى جانب من الجوانب إن كان الفراغ تحته أوسع ، وفى بعض هذه الحالات يكون عاليها سافلها؛ ويرجح بعض علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) أن قرى قوم لوط خسف بها تحت الماء المعروف ببحيرة لوط أو بحر لوط ، وقد عثر الباحثون على بعض آثارها من عهد قريب .

وقد روى المفسرون فى خسفها من الخرافات مالم يثبته نقل ولا يقبله عقل ، فقالوا إن جبريل عليه السلام قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج ونهيق الحمير ، ثم قلبها قلبا مستويا فجعل عاليها سافلها ، مع أن المشاهدة فى هذا العصر أثبتت أن الطائرات المطاردة التى تحلق فى الجو تصل فقط إلى حيث يخف ضغط الهواء وتستحيل الحياة حينئذ، ومن ثم يضعون فيها من أوكسجين الهواء مايكفى استنشاقه وتنفسه للحياة فى طبقات الجو العليا ثم يصعدون فيها ، وقد أشار الكتاب الكريم إلى مايكون للتصعيد فى جو السماء من التأثير فى ضيق الصدر وعسر التنفس بقوله : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ » .

(وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك) أى وأمطرنا عليهم قبل القلب أو فى أثنائه حجارة من سجيل : أى من طين متحجر كما جاء

فى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ » ومثل هذا المطر يحدث عادة بإرسال الله تعالى ريحا شديدة تحمل بعض الأحجار من المستنقعات أو الأنهار فتلقيها حيث يشاء الله .

وهذا السجيل قد نضد وتراكب بعضه فى أثر بعض بحيث يقع طائفة بعد طائفة وقد وضع على تلك الأحجار سُومة : أى علامة خاصة فى علم ربك بحيث لا تصيب غير أهلها .

وقد يكون المعنى إنه سخرها عليهم وحكمها فى إهلاكهم بحيث لا يمنعها شىء ، من قولهم : سومت فلانا فى الأمر إذا حكمته فيه وخليته وما يريد لا تثنى له يد فى تصرفه .

ويرى بعض المفسرين أن التسويم كان حسيا بخطوط فى ألوانها أو بأمثال الخواتيم عليها أو بأسماء أهلها وكل ذلك من أمور الغيب التى لا تثبت إلا بسلطان ونص من خاتم الرسل ، وأنى هو ؟ .

(وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه القرى التى حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم أيها المشركون من أهل مكة الظالمون لأنفسهم بتكذيبك والمماراة فيما تنذرهم به ، بل هى قريبة منكم على طريقكم فى رحلة الصيف إلى الشام كما قال فى سورة الصافات : «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى وإنكم لتمرون على آثارهم ومنازلهم فى أسفاركم وقت النهار وبالليل ، أفلا تعتبرون بما حل بهم

وفى هذا عبرة للظالمين فى كل زمان وإن اختلف العذاب باختلاف الأحوال وأنواع الظلم كثرة وقلة ومقدار أثره فى الأمة من إفساد عام أو خاص .

قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ

عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (٨٤) وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦)

المعنى الجملى

تقدم ذكر قصة شعيب فى سورة الأعراف ، وذكرت هنا مرة أخرى ، وقد جاء فى كل موضع منهما من العظات والأحكام والحكم ما ليس فى الآخر مع الإحكام فى السبك وحسن الرصف والسلامة من التعارض والاختلاف والتفاوت .

الإيضاح

(وإلى مدين أخاهم شعيباً) أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً .

(قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى فلما أتاهم قال ياقوم اعبدوا الله وحده ولا تعبدوا معه غيره فما لكم من إله إلا هو .

وقد جرت سنة الأنبياء أن يبدءوا بالدعوة إلى التوحيد، لأنه جِذْر شجرة الإيمان، ثم يتبعونه بالأهم فالأهم فيما يرون لدى أقوامهم، ومن ثم ثنى بالنهى عن نقص الكيل والميزان لأن أهل مدين اعتادوا ذلك فقال :

(ولا تنقصوا المكيال والميزان) أى ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى مكيالكم وميزانكم كما هى عادتكم ، وقد جاء مثل هذ النهى فى قوله :

« وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى ينقصون .

(إنى أراكم بخير) أى إنى أراكم بثروة وسعة فى الرزق تغنيكم عن الدناءة

فى بخس حقوق الناس وأكل أموالهم بالباطل بما تنقصون لهم من المبيع فى مكيل

وكانوا تجارا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم ينقصون المكيال والميزان .

أو موزون - إلى أن فى هذا كفرانا لنعمة الله عليكم إذ كان يجب عليكم شكرانها بالزيادة على سبيل الصدقة والإحسان .

(وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى وإنى أخشى عليكم يوما يحيط بكم عذابه إذا أنتم أصررتم على شرككم بالله بعبادة غيره ، وكفرتم بنعمه بنقص المكيال والميزان .

وهذا العذاب إما فى الدنيا بعذاب الاستئصال ، وإما فى يوم القيامة .

(وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أى ياقوم أتموهما بالعدل بلا زيادة ولا نقصان .

وقد أمرهم بالواجب بعد أن نهاهم عن ضده لتأكيده وللتنبيه إلى كون عدم التعمد للنقص لا يكفى لتحرى الحق بل يجب معه تحرى الإيفاء بالعدل والسوية من غير زيادة ولا نقص ، وإن كان التيقن من ذلك لا يكون إلا بزيادة طفيفة ، وتعمدها فى الكيل والوزن للناس سخاء وفضيلة يمدح فاعلها عليها ، وفى الاكتيال أو الوزن عليهم طمع فهو رذيلة مذمومة .

(ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس : النقص فى كل الأشياء ، يقال بخسه ماله وبخسه علمه وفضله ، أى لا تظلموا الناس أشياءهم ، وذلك يشمل ما للأفراد وما للجماعات من مكيل وموزون ومعدود ومحدود بحدود حسية وحقوق مادية أو معنوية .

(ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) الإفساد تعطيل يشمل مصالح الدنيا وأمور الدين وأخلاق النفس وصفاتها ، وكل ذلك فاش فى عصرنا أى لاتفسدوا فى الأرض وأنتم تتعمدون الافساد ، وإنما اشترط فى النهى تعمد الافساد لأن بعض ماهو إفساد

فى الظاهر قد يراد به الإصلاح أو دفع أخف الضررين كما يقع فى الحرب من قطع الأشجار أو فتح سدود الأنهار أو إحراق بعض الغابات، وكما فعل الخضر عليه السلام للسفينة التى كانت لمساكين يعملون فى البحر، لأجل منع الملك الظالم الذى وراءهم من أخذها إذا أعجبته .

وهذا نهى عام يشمل غير ما سبق كقطع الطرق وتهديد الأمن وقطع الشجر وقتل الحيوان ونحو ذلك .

(بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين) أى ما يبقى لكم بعد إيفاء الكيل والميزان من الربح الحلال خير لكم مما تأخذونه بالتطفيف ونحوه من الحرام، إن كنتم مؤمنين به حق الإيمان، فالإيمان يطهر النفس من رذيلة الطمع ويحليها بفضيلة السخاء والكرم .

(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وما أنا بالذى أستطيع أن أحفظكم من القبائح، وإنما أنا ناصح مبلغ، وقد أعذرت إذ أنذرت ولم آل جهداً فى ذلك .

قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

شرح المفردات

الحليم : ذو الأناة والتروّى الذى لايتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته ، والرشيد : الذى لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد ، والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولّ عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له ، وأناب إلى الله : رجع إليه ، وجرَم الذنب أو المال: كسبه ، ورحيم: عظيم الرحمة للمستغفرين ، ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر شعيب لقومه بعبادة الله وحده وعدم النقص فى الكيل والميزان ، ذكر هنا ردهم على كلا الأمرين ، فردوا على الأول بأنهم إنما ساروا على منهج آبائهم وأسلافهم فى التدين والإيمان ، وردوا على الثانى بأنهم أحرار فى أموالهم يتصرفون فيها بما يجلب لهم المصلحة فيها .

الايضاح

(قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) أى أصلاتك التى هى من نِتاج الوسوسة وفعل المجانين تأمرك بأن نترك ما سار عليه آباؤنا جيلا إثر جيل من عبادة الأوثان والأصنام . وانما جعلوه مأمورا مع أن الصادر عنه انما هو الأمر بعبادة الله وغيرها من الشرائع ، لأنه عليه السلام لم يكن يأمرهم من تلقاء نفسه بل بوحى من ربه ويبلغهم أنه مأمور بذلك ، وإسناد الأمر الى الصلاة دون غيرها من العبادات لأنه كان كثير الصلاة معروفا بذلك حتى إنهم كانوا إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، فكانت هى من بين الشعائر ضحكة لهم .

(أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) أى أو أن نترك فعلنا ما نشاء فى أموالنا من

التطفيف وغيره من التنمية والاستغلال والتصرف فى الكسب بما نستطيع من الحذق والاحتيال والخديعة ، فما ذاك إلا حجر على حريتنا وتحكم فى إرادتنا وذكائنا .

والخلاصة — إنهم ردوا عليه الناحيتين الدينية والدنيوية بما رأوا من شبه مزيفة وحجج آفنة ، ثم أتبعوا ذلك بما يدل على السخرية والهزء به فقالوا :

(إنك لأنت الحليم الرشيد) أى أنت ذو الجهالة والسفاهة فى الرأى ، والغواية فى الفعل بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية تهكما واستهزاء كما يقال للبخيل : لو رآك حاتم لاقتدى بك فى سخائك .

(قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى) أى قال ياقوم أخبرونى عن شأنى وشأنكم إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى فيما دعوتكم إليه وما أمرتكم به ونهيتكم عنه فكان وحيا منه لارأيا منى .

(ورزقنى منه رزقا حسنا) فى كثرته وفى صفته وقد كان ذلك بالحلال بلا تطفيف مكيال ولا ميزان ولا بخس لحق أحد من الناس ، فما أقوله لكم صادر عن تجربة فى الكسب الطيب وما فيه من خير وبركة ، لا عن آراء نظرية ممن ليست له خبرة — فماذا أقول غير الذى قلت عن وحى من ربى وعن تجربة فى مالى — هل يسعنى بعد هذا التقصير فى التبليغ والكتمان لأوامر الله .

(وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى وما أريد بنهيى إياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف أن أقصده بعد ماوليتم عنه فأستبد به دونكم مؤثرا لنفسى عليكم ، بل أنا مستمسك به قبلكم .

(إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت) أى ما أريد إلا الاصلاح بالنصيحة والموعظة ما استطعت إلى ذلك سبيلا لا آلو فيها جهدا ، وليس ذلك عن هوى ولا منفعة خاصة ، ولولا ذلك ما فعلته .

وفى ذلك إيماء إلى إثبات عقله ورشده وحكمته ، و إبطال لتهكمهم ، واستهزائهم بتلقيبهم إياه (بالحليم الرشيد) .

(وما توفيقى إلا بالله) التوفيق الفوز والفلاح فى كل عمل صالح وسعى حسن ، وحصول ذلك يتوقف على كسب العامل وطلبه من الطريق الموصل إليه ، وتيسير الأسباب التى يسهل معها الحصول عليه ، وذلك إنما يكون من الله وحده ، أى وما توفيقى لاصابة الحق والصواب فى كل ما آتى وما أذر إلا بهداية الله تعالى ومعونته.

(عليه توكلت وإليه أنيب) أى عليه توكلت فى أداء ما كلفنى من تبليغكم ما أرسلت به لا على حولى وقوتى ، وإليه أرجع فى كل ما أهمنى فى الدنيا ، وهو الذى يجازينى على أعمالى فى الآخرة .

والخلاصة — إنه لا يرجو منهم أجرا ولا يخشى منهم ضيراً .

(وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى وفراق الدين الذى أنا عليه على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس فى المكيال والميزان ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من العذاب أو قوم صالح من الرجفة .

(وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا ولا مكانا أى إن لم تعتبروا بمن ذكرنا قبلُ لقدم عهد أو بعد مكان فاعتبروا بهؤلاء فإنهم بمرأى منكم ومسمع .

وقد يكون المعنى — ليسوا ببعيد منكم فى الكفر والمساوى فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم من العذاب .

(واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه) أى واطلبوا من ربكم المغفرة مما أنتم عليه من عبادة الأوثان وبخس الناس حقوقهم فى المكيال والميزان ، ثم ارجعوا إلى طاعته والانتهاء إلى أمره ونهيه .

(إن ربى رحيم ودود) أى إن ربى رحيم بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة كثير الود والمحبة فيحب من يتوب ويرجع إليه .

وفى الآية إرشاد إلى أن الندم على فعل الفساد والظلم بالتوبة واستغفار الرب تعالى من أسباب خير الدنيا وخير الآخرة

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ؟ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

شرح المفردات

الفقه : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس الباعث على العمل ، والرهط : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة ، ولرجمناك : لقتلناك بالرمى بالحجارة ، بعزيز : أى ذى عزة وصفة ، واتخذه ظهريا (بالكسر والتشديد) أى جعله نسيا منسيا لايذكر كأنه غير موجود ، ومحيط : أى محص ماتعملون ، وعلى مكانتكم : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم و إمكانكم ، يقال مكن مكانة : إذا تمكن أبلغ تمكن ، وارتقبوا : أى وانتظروا ، والصيحة : أى صيحة العذاب ، وجاثمين : أى باركين على ركبهم مكبين على وجوههم ، وغنى بالمكان : أقام به ، و بعدا : أى هلاكا لهم .

المعنى الجملى

بعد أن جادلوه أولا بالتى هى أحسن وعُمِّيت عليهم العلل وضاقت بهم الحيل ولم يجدوا للمحاورة ثمرة ـ تحولوا إلى الإهانة والتهديد وجعلوا كلامه من الهذيان والتخليط الذى لايفهم معناه ولا تدرك فحواه ، فقابلهم بالإنذار بقرب الوعيد، ونزول العذاب الشديد .

الإيضاح

(قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) أى مانعلم حقيقة كثير مما تقول و تخبرنا به من بطلان عبادة آلهتنا ، وقبح حرية التصرف فى أموالنا ، ومجىء عذاب يحيط بنا ، و إصابتنا بمثل الأحداث التى أصابت من قبلنا ، كأن أمرها بيدك ، يصيب بها ربك من يشاء لأجلك .

(وإنا لنراك فينا ضعيفا) لاقوة لك ولاقدرة على شىء من الضر والنفع ، ولاتستطيع أن تمتنع منا إن أردنا أن نبطش بك .

(ولولا رهطك لرجمناك) أى ولولا عشيرتك الأقربون لقتلناك بالحجارة حتى تدفن فيها .

(وماأنت علينا بعزيز) أى وماأنت بذى عزة ومنَعة تحول بيننا و بين رجمك ، وإنما نعز رهطك على قلتهم ؛ لأنهم منا وعلى ديننا الذى نبذته وراء ظهرك وأهنته ودعوتنا إلى تركه لبطلانه فى زعمك .

ثم و بخهم على سفالتهم :

(قال ياقوم أرهطى أعزّ عليكم من الله) أى قال ياقوم أرهطى أعز عليكم وأ كرم من الله ؟ حتى كان امتناعكم عن رجمى بسبب انتسابى إليهم . وأنهم رهطى لابسبب انتسابى إلى الله تعالى الذى أدعوكم إليه بأمره .

(واتخذتموه وراءكم ظهريا) أى واستخففتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم

لا تأتمرون لأمره ولا تخافون عقابه ولا تعظمونه حق التعظيم ، وكان القوم يؤمنون بالله ويشركون به سواه . وأكثر الناس اليوم لايراقبون الله فى أقوالهم ولا فى أعمالهم فيرجوه إذا أحسنوا ، ويخافوه إذا أساءوا ، ويتسابقوا إلى الإحسان ابتغاء مرضاته .

(إن ربى بما تعملون محيط) أى إن ربى محيط علمه بعملكم فلا يخفى عليه شىء منه وهو مجازيكم عليه ، وأما رهطى فلا يستطيعون لكم ضرا ولا نفعا .

ولا يخفى ما فى ذلك من التهديد والوعيد .

ثم هددهم مرة أخرى فقال :

(وياقوم اعملوا على مكانتكم) أى وياقوم اعملوا مااستطعتم على منتهى تمكنكم فى قوتكم وعصبيتكم .

وخلاصة ذلك — أثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة وسائر ما لاخير فيه ، وهذا كلام من واثق بقوته بربه وضعف قومه على كثرتهم ، وإدلالهم عليه وتهديدهم له بقوتهم .

(إنى عامل) على مكانتى على قدر مايؤيدنى الله به من وسائل التأييد والتوفيق .

(سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويذله ، أنا أم أنتم ، ومن هو كاذب فى قوله، ومن هو صادق منى ومنكم ـ وهذا تصريح منه بالوعيد بعد التلميح بالأمر بالعمل المستطاع تعجيزاً لهم .

(وارتقبوا إنى معكم رقيب) أى وانتظروا ما أقول لكم من حلول ما أعدكم به وظهور صدقه ، إنى مرتقب منتظر .

ثم ذكر أنه كان صادقا فى وعيده لهم فحل بهم سوء العذاب فقال :

(ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) أى ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذروه ـ نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به فصدقوه على ماجاءهم به من عند ربهم برحمة خاصة بهم .

(وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) أى وأخذت

أولئك الظالمين بسبب ظلمهم صيحة العذاب التى أخذت ثمود فأصبحوا جميعا باركين على ركبهم مكبين على وجوههم فى ديارهم .

(كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين فى أطرافها متقلبين فى أكنافها .

ثم دعا عليهم بالهلاك فقال :

(ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) أى هلاكا لهم و بُعدا من رحمة الله كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم .

والخلاصة — إن الله أرسل على كل من ثمود ومدين صاعقة ذات صوت شديد فرجفت أرضهم وزلزلت من شدتها وخروا ميتين ، وكانت صاعقتهم أشد من الصاعقة التى أخذت بنى إسرائيل حين قالوا (أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً) وقد أحياهم الله عقبها ، لأن هذه تربية لقوم نبىّ فى حضرته ، وتلك صاعقة كانت عذاب خزى لمشركين ظالمين معاندين أنجى الله نبىّ كل منهم ومؤمنيهم قبلها .

قصة موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع المعدودة فى سورة الإسراء والمفصلة فى سورة الأعراف وغيرها ، والسلطان المبين : هو ما آتاه الله من الحجة البالغة فى محاوراته مع فرعون

وملئه ، والملأ : أشراف القوم وزعماؤهم ، وما أمر فرعون : أى ماشأنه وتصرفه ، برشيد : أى بذى رشد وهدى ، وقدم يقدم (كنصر ينصر) : تقدم ، فأوردهم النار : أى أدخلهم إياها ، والورد : بلوغ الماء فى مورده من نهر وغيره، والمورود : الماء، والمراد به هنا النار ، وأتبعوا : أى وألحقت به لعنة ، والرفد : (بالكسر) : العطاء والعون فيقال رفده وأرفده : أعانه وأعطاه ، والمرفود : المعطى .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات قصص موسى مع فرعون وملئه للإعلام بأن عاقبة فرعون وأشراف قومه اللعنة والهلاك ككفار أولئك الأقوام الظالمين و إن كان عذاب الخزى وهو الغرق فى البحر لم يعم جميع قومه ، بل لحق من اتبع موسى وسار أثره للأسباب التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه) أى ولقد أرسلنا موسى إلى فرعون وملئه مصحوبا بآيات بينات دالة على توحيد الله وفيها السلطان المبين والحجة الواضحة على صدق نبوته ، و إنما خص الملأ بالذكر وقد أرسل إلى قومه جميعا ، لأنهم أهل الحل والعقد والاستشارة فى دولته و يعهد إليهم بتنفيذ مايقرره من الأمور ، فغيرهم يكون تبعا لهم فى كل ما يأتون و يذرون .

(فاتبعوا أمر فرعون) فى كل ماقرره من الكفر بموسى وردّ ماجاءهم به من عند الله ، وتشديد الظلم على بنى إسرائيل بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم إلى نحو أولئك مما جاء فى السور الأخرى مفصلا .

(وما أمر فرعون برشيد) أى ماشأنه وتصرفه بصالح حميد العاقبة ، بل هو محض غىّ وضلال وظلم وفساد لغروره بنفسه وكفرانه بربه وطغيانه فى حكمه .

ثم ذكر جزاءه مع قومه فى الآخرة فقال :

(يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أى يتقدم قومه يوم القيامة ويكونون تبعا له كما كانوا تابعين فى الدنيا إلا من آمن ، فيوردهم جهنم معه أى يدخلهم إياها .

وقد ورد أن آله يعرضون على النار منذ ماتوا صباحا ومساء من كل يوم كما قال تعالى : « وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَونَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » .

(وبئس الورد المورود) أى وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن وارد الماء إنما يرده لتبريد كبده وإطفاء غلته من حر الظمأ ، ووارد النار يحترق فيها احتراقا .

قال ابن عباس رضى الله عنه فى الآية : الورود الدخول وقد ذكر فى أربعة مواضع : فى هود (وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) وفى مريم (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) وفى الأنبياء (حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) وفى مريم أيضا (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) وكان يقول : والله ليردن جهنم كل برّ وفاجر (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)

(وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة) أى وألحقت بهم لعنة عظيمة ممن بعدهم من الأمم ، ويوم القيامة أيضا يلعنهم أهل الموقف جميعا ، فهى تابعة لهم حيثما ساروا ، ودائرة أينما داروا .

والآية بمعنى قوله : « وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » .

وقد سمى الله هذه اللعنات رفدا تهكما بهم فقال :

(بئس الرفد المرفود) أى بئس العطاء المعطى هـذه اللعنة التى أتبعوها فى الدنيا والآخرة .

وفى الآيات من العبرة أن فى البشر فراعنة كثيرين يغوون الناس و يستعبدونهم فيطيعونهم و يذلون لهم ذل العبيد ، ولاتفيدهم هداية القرآن شيئا . ومنهم من يدعون الإسلام ولا يفقهون قول الله لرسوله فى آية مبايعة النساء (وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لأحد فى معصية الله إنما الطاعة فى المعروف » .

العبرة بقصص الأمم الظالمة وبما آل إليه أمرها

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص الأمم الماضية والقرون السالفة مع الرسل الذين أرسلوا إليهم، نبه إلى ما فى ذكرها من عظة واعتبار بقوله : (منها قائم وحصيد) فالسامع لها والقارئ يلين قلبه ، وتخضع نفسه ، فيحمله ذلك على النظر والاعتبار بها ـ إلى ما فى إخباره صلى الله عليه وسلم بها من غير مطالعة كتب ولا مدارسة مع معلم ، من عظيم الدلالة على نبوته ، إذ أن هذا لا يكون إلا بوحى من العلى الأعلى أتاه به روح القدس

الإيضاح

(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) أى ذلك الذى قصصناه عليك بعض أخبار الأمم الماضية ، وأهمّ أطوار اجتماعها فى المدائن والقرى من قوم نوح ومن بعدهم ، نقصه عليك فى هذا القرآن لتتلوه على الناس و يتلوه المؤمنون آناء الليل وأطراف النهار إنذارا وتبليغا عنا .

(منها قائم وحصيد) أى من تلك القرى مابقيت آثارها ماثلة كالزرع القائم فى الأرض كقوم صالح ، ومنها ماعفت ودرست آثارها كالزرع المحصود الذى لم يبق منه بقية فى الأرض كقرى قوم لوط.

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) أى وما كان إهلاكهم بغير جرم استحقوا به الهلاك ، ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم و إفسادهم فى الأرض و إصرارهم على ذلك حتى لم يبق فيهم استعداد لقبول الحق ، حتى إنهم لو بقوا زمانا آخر ماازدادوا إلا ظلما وفجورا وفسادا فى الأرض كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا » .

وقد بالغ رسلهم فى وعظهم و إرشادهم فما زادهم ذلك إلا عتوًّا واستكبارا ، وأنذروهم بالنّذر فما زادهم ذلك إلا إصرارا وعنادا ثقة منهم بأن آلهتهم تدفع عنهم كل مخوف وتبعد عنهم كل محذور ، جهلا منهم بما كانوا يعملون ، ومن ثم قال :

(فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك) أى فما نفعتهم ولا دفعت بأس الله عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ويطلبون منها أن تدفع عنهم الضر بنفسها أو بشفاعتها عنده ــ لما جاء عذاب ربك تصديقا لما أنذرهم به رسله .

(وما زادوهم غير تتبيب) يقال تببه تتبيبا: أهلكه، وتبّ فلان وتبت يده : خسر

أو هلك ، وتبًّا لفلان: دعاء عليه بالهلاك، أى وما زادوهم إلا هلاكا وتدميرا ، إذ أنهم باتكالهم عليهم ازدادوا كفرا و إصرارا على الظلم والفساد ظنا منهم أنهم ينتقمون لهم من الرسل كما حكى الله تعالى عن بعضهم قوله : « إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ » .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب وعلى نهجه وطريقه ، أخذ ربك أهل القرى وهى متلبسة بالظلم ، فذلك عقاب لامفرّ منه ولا مهرب .

وفى هذا إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم لكل قرية ظالمة فى كل زمان ومكان .

(إن أخذه أليم شديد) أى إن أخذه وجيع قاسٍ لا يرجى منه الخلاص .

روى أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » فليعتبر الظالمون بهذا ولا يغتروا بالدين الذى ينتسبون إليه دون أن يعملوا ما يرفع عنهم غضب ربهم ونقمته فربما كان ذلك إملاء منه تعالى واستدراجا لهم .

العظة بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ

شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر العبرة فى إهلاك الأمم الظالمة فى الدنيا ـ ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة للأشقياء والسعداء ، فالأولون يصلون النار التى لهم فيها شهيق وزفير ، والآخرون يتمتعون بالجنة التى فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون .

الإيضاح

(إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) أى إن فيما قصه الله من إهلاك أولئك الأمم و بيان سنته فى عاقبة الظالمين ، لحجة بينة وعبرة ظاهرة لمن يخاف عذاب الآخرة يعتبر بها فيتقى الظلم فى الدنيا على سائر ضروبه إذ يعلم أن مَنْ عذب الظالمين فى الدنيا قادر على أن يعذبهم فى الآخرة ، وأن ما حاق بهم فى دار الفناء أنموذج لما يكون لهم فى دار البقاء .

والماديون فى هذا العصر وفى عصور سابقة كما حكاه البيضاوى عن بعض أهل عصره يقولون : إن الطوفان والصاعقة وخسف الأرض كل ذلك قد حدث بأسباب طبيعية لا بإرادة الله واختياره لتربية الأمم ـ ويكفى فى الرد عليهم أن يقال إن حدوث هذه الأشياء وغيرها بالأسباب الموافقة لسنن الله فى نظام العالم هو المراد

بالقضاء والقدر فى القرآن الكريم ،والله تعالى أحدث هذه الأسباب فى أوقات معينة بحكمته لعقاب تلك الأمم بها ، ولم تكن من قبيل المصادفات .

والدليل على ذلك أن أولئك الرسل أنذروا أقوامهم بحدوثها قبل أن لم تكن ، ومنهم من ذكر وقتها على سبيل التعيين والتحديد ، وهكذا يفعل الله بالظالمين فى كل زمان وإن لم يكن فيهم من ينذرهم بوقوع ما يحل بهم اكتفاء بإنذار القرآن كما قال : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

(ذلك يوم مجموع له الناس) أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب الآخرة يوم يجمع له الناس كلهم ليحاسبوا على ما عملوا ثم يوفوا جزاءهم بالعدل والقسطاس .

(وذلك يوم مشهود) أى يوم يشهده الخلائق جميعا من الإنس والجن والملائكة وغيرهم .

(وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء مدة معلومة فى علمنا لا تزيد ولا تنقص ، وهى انتهاء مدة الدنيا ، وكل شىء معدود محدود فهو قريب ، ولم يطلع الله أحدا من خلقه على معرفة ذلك اليوم .

(يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه) أى فى ذلك الحين الذى يجىء فيه اليوم المعين لاتتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلا بإذنه تعالى ، إذ لا يملك أحد فيه قولا ولا فعلا إلا بإذنه كما قال تعالى « يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » وقال : « هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » وقال : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » .

(فنهم شقى وسعيد) أى فمن يجمع فى ذلك اليوم، شقى مستحق للعذاب الأليم الذى أوعد به الكافرون ، وسعيد مستحق لما وعد به المتقون من الثواب والنعيم الدائم، والأطفال والمجانين لا يدخلون فى هذا التقسيم لعدم التكليف — ويدخل فيه من

استوت حسناتهم وسيئاتهم من المؤمنين ، ومن تغلب سيئاتهم ويعاقبون عليها إلى حين ثم يدخلون الجنة ، لأنهم من فريق السعداء باعتبار العاقبة . فالسعداء درجات ، والأشقياء دركات .

روى الترمذى وأبو يعلى وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) قلت : يارسول الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرغ منه أو على شىء لم يُفرغ منه ؟ قال : « بل على شىء قد فرغ منه وجرت به الأقلام ياعمر ، ولكن كلٌّ ميسر لما خلق له » وروى عن على كرم الله وجهه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان فى جنازة فأخذ عودا فجعل ينكت فى الأرض فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وقرأ : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » والمراد أن الله يعلم الغيب وأنه يعلم المستقبل كله بجميع أجزائه وأطرافه ، ومنه عمل العاملين وما يترتب على كل عمل من الجزاء على حسب وعده ووعيده فى كتابه المنزل وكتابته للمقادير ، والنبى صلى الله عليه وسلم علّمنا أن الجزاء بالعمل وأن كل إنسان ميسر له ومسهل عليه ما خلقه الله لأجله من سعادة الجنة ، أو شقاوة النار ، وأن ما وهبه من الاستعداد والعزيمة يكون له تأثير فى تربية النفس وتوجيهها إلى ماتعتقد أن فيه سعادتها وخيرها ، ثم فصل جزاء الفريقين فقال :

(فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق) الزفير تنفس الصُّعَداء من الهمّ والكرب إذا امتد واشتد وسمع صوته ، والشهيق النشيج فى البكاء إذا اشتد تردده فى الصدر وارتفع به الصوت ، أى فأما الذين شقوا فى الدنيا بما كانوا يعملون من أعمال الأشقياء لفساد عقيدتهم الموروثة وسوء القدوة فى العمل حتى أحاطت بهم خطيئاتهم وانطفأ نور الفطرة من أنفسهم ، فلهم فى النار التى هى مستقرهم ومثواهم زفير وشهيق من حرج صدورهم وضيق أنفاسهم وشدة كروبهم .

(خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) أى ماكثين فيها مكث خلود

و بقاء مدة دوام السموات التى تظلهم والأرض التى تقلّهم ، والمراد التأبيد ونفى الانقطاع على منهج قولهم : لاأفعله مابدا كواكب وما أضاء الفجر وما تغنت حمامة ، والنصوص متظاهرة على تأبيد قرارهم فيها .

وسماء كل من أهل الجنة والنار ما هو فوقهم ، وأرضهم ماهم مستقرون عليه وهو تحتهم ، كما قال تعالى « يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » وقال: ابن عباس والسدّى والحسن : لكلٍّ أرض وسماء.

(إلا ما شاء ربك) أى إن هذا الخلود دائم إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر إذ أنه إنما وضع بمشيئته وسيبقى كذلك ، ويراد بمثل هذا فى سياق الأحكام القطعية الدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئته تعالى فقط، لا لإفادة عدم عمومها كما فى قوله : « قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ » أى لاأملك شيئا من ذلك بقدرتى إلا ما شاء الله أن يملكنيه منه بتسخير أسبابه وتوفيقه، ونحو ذلك قوله : « سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ » أى إنه تعالى ضمن لنبيه حفظ القرآن الذى يقرئه إياه وعصمه ألا ينسى منه شيئا كما هو مقتضى الضعف البشرى إلا أن يكون بمشيئة الله فهو وحده القادر على ذلك .

(إن ربك فعال لما يريد) فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ ومشيئته تعالى إنما تتعلق بما سبق به علمه واقتضته حكمته ، وما كان كذلك لم يكن إخلافا لشىء من وعده ولا من وعيده كخلود أهل النار فيها .

(وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) المجذوذ: المقطوع، من جذه إذا قطعه أو كسره ، وهو كقوله: « لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » أى إن هذا الجزاء هبة منه و إحسان دائم غير مقطوع ، وقد كثر وعد الله تعالى للمؤمنين المحسنين بأنه يزيدهم من فضله ، و بأنه يضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، و بأكثر من ذلك إلى سبعمائة ضعف ، و بأنه يجزيهم بالحسنى ، و بأحسن مما عملوا ـ ولم يوعد بزيادة جزاء الكافرين والمجرمين على

ما يستحقون ، بل أوعدهم بأنه يجزيهم بما عملوا ، و بأن السيئة بمثلها وهم لا يظلمون ، و بأنه لايظلم أحدا ، وهذا الجزاء وهو الخلود فى النار أثر طبيعى لتدسية النفس بالكفر والظلم والفساد .

وبعد أن شرح سبحانه أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء والسعداء ، أنذر أعداء النبى صلى الله عليه وسلم والمشركين من قومه بما حل بالأمم المهلكة من العذاب فقال :

(فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء) أى إذا كان أمر الأمم المشركة الظالمة فى الدنيا ثم فى الآخرة كما قصصناه عليك ، فلا تكن فى أدنى ريب مما يعبد قومك هؤلاء فى عاقبته بمقتضى تلك السنن التى لاتبديل لها .

وفى ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ووعيد لقومه كما لايخفى .

ثم بين حالهم فى عبادتهم وجزاءهم فقال :

(مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، و إنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) أى إنهم أشبهوا آباءهم فى الجهل والتقليد فهم مقلدون لهم ، و إنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى الدنيا والآخرة وافيا تاما لاينقص منه شىء كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ، فأعمال الخير التى يعملونها فى الدنيا كبرّ الوالدين وصلة الأرحام و إغاثة الملهوف يوفون جزاءهم عليها بسعة الرزق وكشف الضر جزاء تاما وافيا ولايجزون عليها فى الآخرة ، ومثل هذا الجزاء متاع عاجل لايلبث أن يزول .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكّر الله مشركى مكة بأقوام الذين غلب عليهم الكفر والجحود ولم يؤمن إلا القليل منهم ، فوفاهم جزاء أعمالهم فى الدنيا وسيوفيهم جزاءهم فى الآخرة ـ ذكّرهم فى هاتين الآيتين بقوم موسى الذين آتاهم الكتاب فاختلفوا فيه ، وأن مثل الذين يختلفون من أمته فى الكتاب مثل هؤلاء .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أى فاختلف فى الكتاب وكونه من عند الله فآمن به قوم وكفر به آخرون ، فلا تبال باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن كقولهم « لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » وزعمهم أن القرآن مفترى .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) الكلمة هى كلمة القضاء بتأخير العذاب إلى الأجل المسمى على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك ، أى ولولا ما تقدم من حكم الله بتأخير عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة لكان الذى يستحقه هؤلاء الكفار بسبب كفرهم عظيما ، وهو إنزال عذاب الاستئصال بهم ، كما أهلك الذين ردوا دعوة الرسل جحودا وعنادا ، ولكن أخر ذلك عنهم ما تقدم من قضائه .

(وإنهم لفى شك منه مريب) أى وإن المكذبين به منهم لفى شك من أنه من عند الله ، فلا يدرون أحق هو أم باطل ولكنهم فيه ممترون ، وجاء فى معنى الآية قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ . وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ

مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ » والذين أورثوا الآيات بعد من تقدم ذكرهم من الأنبياء هم اليهود والنصارى وقد عرض لهم من الشك والريب فى كتبهم ما لم يكن فى عهد سلفهم ، إذ أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام قد فقدت فى إحراق البابليين لهيكل سليمان ، والنصارى كانوا أشد اختلافا فى كتبهم ومذاهبهم .

(وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) أى وإن كل أولئك المختلفين الذين قصصنا عليك قصصهم ليوفينهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إذ لا يخفى عليه شىء منها .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣)

المعنى الجملى

بعد أن بين أمر المختلفين فى التوحيد والنبوة ، وأطنب فى شرح الوعد والوعيد ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن تاب معه بالاستقامة وهى كلة جامعة لكل مايتعلق بالعلم والعمل والأخلاق الفاضلة .

الإيضاح

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) أى الزم الصراط المستقيم الذى لا عوج فيه واثبت عليه ، وكذلك فليستقم من تاب من الشرك وآمن معك ، ولا تنحرفوا عما رسم لكم بتجاوز حدوده غلوا فى الدين ، فإن الإفراط فيه كالتفريط كلاهما زيغ عن الصراط المستقيم .

وفى هذا إيماء إلى وجوب اتباع النصوص فى الأمور الدينية من عقائد وعبادات واجتناب الرأى و بطلان التقليد فيها .

و إيضاح هذا — إن تحكيم العقل البشرى فى الخوض فى ذات الله وصفاته وفيما دون ذلك من عالم الغيب كالملائكة والعرش والجنة والنار ــ تجاوز لحدوده ، فإن أكبر العلماء والفلاسفة عقولا عجزوا إلى اليوم عن معرفة كنه أنفسهم وأنفس ما دونهم من المخلوقات صغيرها وكبيرها حتى الحشرات منها كالنحل والنمل ، فأنى لهم أن يعرفوا كنه ذات الله وصفاته أو معرفة حقيقة ملائكته وغيرهم من جند الله ؟ .

ولما خرج متأخرو الأمة عن هدى سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان زاغوا فكانوا : « مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » فسقط بعضهم فى خيال التشبيه ، و بعضهم فى خيال التعطيل .

ولو كانوا قد نهجوا نهج السابقين لتجنبوا أسباب الخلاف والتفرق فى الدين الذى أوعد الله أهله بالعذاب العظيم و برأ رسوله منهم .

والواجب التزام كتاب الله وما فسرته به سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من العبادات العملية بدون تحكم بالرأى والقياس ، والمعاملات على النحو الذى بينه الكتاب والسنة على السنن القويم دون تأويل ولا تخريج لهما على غير ما يفهم من ظاهرهما .

أما الاختلاف فيما عدا ذلك من أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش من زراعات وتجارات فهو أمر طبيعى لا يمكن الغنى عنه ، فلولاه لما تقدمت شئون الحياة ، ولما حصل التنافس لدى أرباب المهن والصناعات ، ولما جد كل يوم بدع جديد (موضه) ولكان الناس دائما على الفطرة الأولى ، وأنى لعقل الإنسان أن يستمر على حال واحدة وقد أوتى الخلافة فى الأرض وحسن استعمارها ، و بهذا وحده فضل الملائكة ولله فى خلقه شئون .

وقد بين سبحانه لنا المخرج إذا حدث بيننا الخلاف فى الدين فقال : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ » الآية وقد فسر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ بن جبل حين ولاه القضاء فى اليمن « بم تقضى قال بكتاب الله . قال فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسوله . قال فإن لم تجد . قال أجتهد رأيي ـ فأقره على ذلك» .

وهذا هو الاستقامة فى الدين التى بها يرقى المرء إلى أعلى عليين ، وقد حث الله رسوله عليها فى هـذه الآية وحث موسى وهرون عليها فقال : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا » .

ومدح من اتصفوا بها ووعدهم بالخير والفلاح فى الآخرة فقال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » .

وروى مسلم عن سفيان الثقفى قال : « قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : (قل آمنت بالله ثم استقم) » .

(إنه بما تعملون بصير) أى إنه تعالى بصير بعملكم ومحيط به فيجزيكم به ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم عاملون بخلاف أمره ، ونظير هذه الآية قوله « فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ » .

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) الركون إلى الشيء : الاعتماد عليه ، وركن الشيء : جانبه الأقوى ، وما تتقوى به من ملك وجند وغيره ومنه قوله تعالى « فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ » والمراد من الظالمين هنا أعداء المؤمنين الذين يؤذونهم ويفتنونهم عن دينهم من المشركين ليردوهم عنه ، فهم بمعنى الذين كفروا فى الآيات الكثيرة ، وتمسكم النار ، أى تصيبكم ، أى

لا تستندوا إلى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فتجعلوهم ركنا لكم تعتمدون عليه فتقروهم على ظلمهم وتوالوهم فى شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية ، فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض .

وخلاصة ذلك — لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم رضيتم بأعمالهم فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التى هى جزاء الظالمين بسبب ركونكم إليهم والاعتزاز بهم والاعتماد عليهم ، والركون إلى الظلم وأهله ظلم « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وليس لكم فى هذه الحال التى تركنون فيها إليهم غير الله وليًّا ينقذكم ويخلصكم من عذابه ، ثم لاتنصرون أى لاينصركم الله لأن الذين يركنون إلى الظالمين يكونون منهم وهو لا ينصر الظالمين كما قال « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » بل تكون عاقبتكم الحرمان مما وعد الله رسله ومن ينصره من المؤمنين .

والخلاصة — إن الركون إلى الظالمين المنهى عنه هو الاعتماد على أعداء المؤمنين الذين يفتنونهم ويصدونهم عن دينهم ، ويؤيده ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه فسر الظلم هنا بالشرك ، والذين ظلموا بالمشركين، وقيل إنها عامة فى الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومن ابتلى بمخالطة الظلمة فليزن أقوالهم وأفعالهم بميزان الشرع ، فإن زاغوا عن ذلك فعلى أنفسهم قد جنوا ، وطاعتهم واجبة على كل من دخل تحت أمرهم ونهيهم فى كل ما يأمرون به مالم يكن فى معصية الله ، فمن أمروه أن يدخل فى شىء من الأعمال التى وكلها إليهم كالمناصب الدينية ونحوها فليدخل فيه إذا وثق من نفسه القدرة على القيام به ، إلى أنه يجب الأخذ على أيدى الظالمين عامة وعلى أئمة الجور والأمراء خاصة ، ويجب تغيير المنكر أولا باليد فإن لم يستطع ذلك فباللسان ، وإلا

فبالقلب، وذلك أضعف الإيمان ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية - يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم - حتى أتى على آخر الآية، ألا و إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا و إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)

شرح المفردات

طرف الشيء : الطائفة منه والنهاية ، فطرفا النهار : الغدو والعشى ، وروى عن الحسن وقتادة والضحاك أنهما صلاة الصبح والعصر ، والزلف واحدها زلفة ؛ وهى الطائفة من أول الليل لقربها من النهار، وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء ، وذكرى : عبرة وعظة ، وللذاكرين أى المعتبرين المتعظين .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله بالاستقامة وعدم تجاوز ما رسمه الدين ، وعدم الركون إلى أولى الظلم - أمره هنا بأفضل العبادات وأجلّ الفضائل التى يستعان بها على ماسلف.

الإيضاح

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل) أى أدّها على الوجه القويم وأدمها فى طرفى النهار من كل يوم ، وفى زلف من الليل ، ونظير هذه الآية قوله فى سورة

طه « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى » والتسبيح عام يشمل الصلاة وغيرها .

والآية الصريحة فى أوقات الصلوات الخمس قوله تعالى « فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فالمساء ما بين الظهر والمغرب وهو صلاة العصر ، وصلاة المغرب العشاء الأولى وصلاة العتمة العشاء الآخرة التى يزول عندها الشفق وهو آخر أثر لنور النهار .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أس العبادات المغذية للإيمان والمعينة على سائر الأعمال .

ثم بين فائدة الأمر السابق وحكمته فقال :

(إن الحسنات يذهبن السيئات) أى إن الأعمال الحسنة تكفر السيئات وتذهب المؤاخذة عنها ، لما فيها من تزكية النفس وإصلاحها ، فتمحو منها تأثير الأعمال السيئة فى النفس وإفسادها لها ، والمراد بالحسنات ما يعم الأعمال الصالحة جميعا حتى ما كان منها تركا لسيئة كما قال تعالى « إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » وجاء فى الحديث الشريف « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » والمراد بالسيئات الصغائر لأن الكبائر لا يكفرها إلا التوبة بدليل مارواه مسلم « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر »

(ذلك ذكرى للذاكرين) أى إن فيما ذكر من الوصايا السابقة من الاستقامة والنهى عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلاة فى تلك الأوقات ، لعبرة للمتعظين الذين يراقبون الله ولاينسونه ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بها.

(واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى وطّن نفسك على احتمال المشقة فى سبيل ما أمرت به ، وما نهيت عنه فى هذه الوصايا وفى غيرها ، فإن الله لايضيع أجر من أحسن عملا بل يوفيه ثواب عمله من غير بخس له .

وفى الآية إيماء إلى أن الصبر من باب الإحسان .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

شرح المفردات

لولا: كلمة تفيد التحضيض والحث على الفعل، والقرون واحدهم قرن: وهو الجيل من الناس ، قيل هو ثمانون سنة ، وقيل سبعون ، وشاع تقديره بمائة سنة ، والبقية : مايبقى من الشىء بعد ذهاب أكثره ، واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ماعندهم و يستبقون الأجود ، و يقال أترفته النعمة أى أبطرته وأفسدته ، وكلمة ربك : أى قضاؤه وأمره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عاقبة الأمم المكذبة لرسلها فى الدنيا والآخرة و إنذار قومه صلى الله عليه وسلم بهم ، و بيّن ما يجب عليه وعلى من آمن به وتاب معه من الاستقامة والصلاح واجتناب أهل الظلم والفساد .

ذكر هنا بيان السنن العامة فى إهلاك الأمم الذين قص الله قصصهم وأمثالهم ممن عصوا رسل ربهم بعد أن أنذروهم عقابه ، ووعدوهم إذا أطاعوهم ثوابه .

الإيضاح

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض) أى فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين أهلكناهم بظلمهم وفسادهم فى الأرض جماعة أولو عقل ورأى وصلاح ينهونهم عن الفساد فى الأرض باتباع الهوى والشهوات التى تفسد عليهم أنفسهم ومصالحهم ، فيحولون بينهم و بين الفساد ، ومن سنة الله ألا يهلك قوما إلا إذا عمّ الفساد والظلم أكثرهم .

(إلا قليلا ممن أنجينا منهم) أى ولكن كان هناك قليل من الذين أنجيناهم مع رسلهم منبوذين لا يقبل نهيهم وأمرهم مهددين مع رسلهم بالإبعاد والأذى .

(واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) أى واتبع الظالمون وهم الأكثرون مارزقناهم من أسباب الترف والنعيم فبطروا واستكبروا وصدوا عن سبيل الله ، وكانوا ذوى جرائم بما ولده الترف والنعيم ، فكان هو المسخر لعقولهم ، و بذا رجحوا ما أتوا على اتباع الرسل .

وخلاصة ذلك — إن العقول السليمة كافية لفهم مافى دعوة الرسل من الخير والصلاح لو لم يمنع استعمال هدايتها الافتتان بالترف والنعيم بدلا من القصد والاعتدال فيه وشكر المنعم عليه ، وقد هدت التجارب إلى أن الترف هو الباعث على الفسوق والعصيان والظلم والإجرام ، ويظهر ذلك بديئا فى الرؤساء والسادة ، ومنهم ينتقل إلى الدهماء والعامة فيكون ذلك سببا فى الهلاك بالاستئصال ، أو فى فقد العزة والاستقلال ، وتلك هى سنة الله فى خلقه كما قال : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » .

ثم بين سبحانه مايحول بين الأمم وإهلاكها فقال :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) الظلم هو الشرك أى إنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ماداموا مصلحين فى أعمالهم

الاجتماعية والعمرانية والمدنية ، فلا يبخسون الناس حقوقهم كما فعل قوم شعيب ، ولا يبطشون بالناس بطش الجبارين كقوم هود ، ولا يذلون لمتكبر جبار كقوم فرعون ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر كقوم لوط ، بل لابد أن يضموا إلى الشرك الإفساد فى الأعمال والأحكام ، ويفعلوا الظلم المدمر للعمران ، ومن ثم قالوا : الأمم تبقى مع الكفر ولاتبقى مع الظلم والجور ، ويؤيد هذا ما أخرجه الطبرانى والديلمى وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن تفسير هذه الآية فقال: « وأهلها ينصف بعضهم بعضا »

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أى ولو شاء ربك أيها الرسول الكريم، الشديد الحرص على إيمان قومك، الحزين من أجل إعراض أكثرهم عن إجابة دعوتك واتباع هديك ـ لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة لا اختيار لهم فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكة مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق وعدم الميل إلى الزيغ والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالاختيار لا مجبورين ولا مضطرين ، وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، وكانوا فى أطوارهم الأولى لا اختلاف بينهم ، ثم لما كثرت وتنوعت حاجاتهم وكثرت مطالبهم ظهر فيهم الاستعداد للاختلاف كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا » .

(ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزالون مختلفين فى شئونهم الدنيوية والدينية على حسب استعدادهم الفطرى ، إلا من رحم الله منهم فإنهم اتفقوا على حكم كتاب فيهم وهو الذى عليه مدار جمع الكلمة ووحدة الأمة .

(ولذلك خلقهم) أى ولمشيئته تعالى فيهم الاختلاف والتفرق فى علومهم ومعارفهم وآرائهم ، ومايتبع ذلك من الإرادة والاختيار فى الأعمال ـ خلقهم ، وبهذا كانوا خلفاء فى الأرض ، ومن ذلك اختلافهم فى الدين والإيمان والطاعة والعصيان ،

و بذا كانوا مظهرًا لأسرار خلقه الروحية والجسدية أو المادية والمعنوية ، وقال ابن عباس خلقهم فريقين فريقا يُرحم فلا يختلف ، وفريقا لايُرحم فيختلف ، فذلك قوله : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ».

والخلاصة — إن الناس فريقان : فريق اتفقوا فى الدين فجعلوا كتاب الله حكما بينهم فيما اختلفوا فيه فاجتمعت كلمتهم وكانوا أمة واحدة فرحمهم الله ووقاهم شر الاختلاف فى الدنيا وعذاب الآخرة ، وفريق اختلفوا فى الدين كما اختلفوا فى منافع الدنيا فكان بأسهم بينهم شديدا فذاقوا عقاب الاختلاف فى الدنيا وأعقب ذلك جزاءه فى الآخرة ، فحرموا من رحمة الله بظلمهم لأنفسهم ، لا بظلم منه تعالى لهم.

(وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى قد سبق فى قضائه وقدره وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأن الجنة والنار لابد أن يملأ من عالمى الجن والإنس الذين لايهتدون بما أرسل به رسله و بما أنزل عليهم من كتبه لهداية المكلفين والحكم بين المختلفين .

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)

شرح المفردات

القص : تتبع أثر الشىء للإحاطة به كما قال تعالى : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » والنبأ : الخبر الهام ، ونثبت : أى نقوى ونجعل فؤادك راسخا كالجبل ، على مكانتكم : أى على تمكنكم واستطاعتكم .

المعنى الجملى

بعد أن قص عز وجل قصص أشهر الأنبياء مع أممهم الماضين ـ بين هنا ما لذلك من فائدة لرسوله وللمؤمنين وهى تثبيت الفؤاد والعظة والاعتبار ، ثم أمر رسوله بالعبادة والتوكل عليه وعدم المبالاة بعداوة المشركين والكيد له .

الإيضاح

(وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل) أى وكل نبأ من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وما جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه وخذل أعداءه الكافرين ، نقصّه عليك على وجهه لفائدتين :

(١) (ماتثبت به فؤادك) أى مابه يقوى فؤادك ويكون ثابتا كالجبل لتقوم بأعباء الرسالة ونشر الدعوة ، لما لك من الأسوة بإخوانك المرسلين .

(٢) (وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى إن فى هذه الأنباء بيان الحق الذى دعا إليه الرسل وهو اعتقاد أنه تعالى واحد مع إخلاص العبادة له وحده والتوبة إليه وترك الفواحش ماظهر منها وما بطن ، وفيها موعظة وذكرى للذين يتعظون بما حلّ بأولئك الأمم من عقاب ، و بيان أن ذلك إنما نالهم بسبب الظلم والفساد .

(وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) أى وقل للكافرين الذين لايؤمنون فلا يتعظون : اعملوا على مافى مكنتكم وعلى قدر ماتستطيعون من مقاومة الدعوة و إيذاء الداعى والمستجيبين له .

وفى هذا تهديد ووعيد لهم بما يلقونه من العذاب جزاء ما كسبت أيديهم .

(إنا عاملون) على مكانتنا وعلى قدر مانستطيع من الثبات على الدعوة وتنفيذ أمر الله وطاعته .

(وانتظروا إنا منتظرون) أى وانتظروا بنا ماتتمنونه من انتهاء أمرنا إما بموت أو غيره مما تحدثون به أنفسكم كما حكى الله عنهم فى قوله : « أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » إنا منتظرون أن ينزل بكم مثل مانزل بأمثالكم من عقابه تعالى بعذاب من عنده أو بأيدى المؤمنين ، وأن يكفل لنا النصر والغلبة وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ، وقد أنجز وعده ونصر رسوله وأيده ، ونظير الآية قوله تعالى : « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » .

(ولله غيب السموات والأرض) أى إنه سبحانه يعلم كل ماهو غائب عن علمك أيها الرسول وعن علمهم ، مما هو فى السموات والأرض ، وهو المالك المتصرف فيه ، وهو العالم بكل ماسيقع فيهما والعالم بوقته الذى يقع فيه .

(وإليه يرجع الأمر كله) فأمرك وأمرهم لامحالة راجع إليه ، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن .

(فاعبده وتوكل عليه) أى وإذا كان أمر كل شىء يرجع إليه فاعبده بإخلاص الدين له وحده ، وادع إلى طاعته واتباع أمره بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتوكل عليه فيما لايدخل فى مكنتك واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه إذ لايدخل تحت كسبك ولاتناله يدك ، والتوكل لايجدى نفعا بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة ، وبدون ذلك يكون من التمنى الكاذب ، والعبادة لاتكمل إلا بالتوكل إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى .

روى أحمد والترمذى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» .

وخلاصة ذلك — امتثل ما أمرت به وداوم على التبليغ والدعوة وتوكل عليه فى سائر أمورك ولاتبال بالذين لايؤمنون ولايضق صدرك بهم .

(وما ربك بغافل عما تعملون) أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت أيها النبى

ومن اتبعك من المؤمنين من عبادته والتوكل عليه والصبر على أذى المشركين فيوفيكم جزاءكم فى الدنيا والآخرة، وعما يعمل المشركون من الكيد لكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وسيجزيهم على أعمالهم يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، وقد صدق الله وعده ونصر عبده وأظهر دينه على الدين كله .

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

بيان بإجمال للمقاصد الدينية التى حوتها هذه السورة

قد اشتملت هذه السورة على مااشتملت عليه سابقتها من أصول الدين ومبادئه العامة التى لايكون المؤمن مؤمنا حقا إلا إذا سلك سبيلها ونهج نهجها ومن ذلك :

(١) التوحيد وهو ضربان :

(ا) توحيد الألوهية ــ وهو أول مادعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إليه كل رسول قبله ، وهو عبادته تعالى وحده وعدم عبادة أحد معه كما قال: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ» فعبادة غيره من الأصنام كحجر وشجر وكوكب أو بشر ولىّ أونبى أوشيطان أو ملك إذا توجه العبد إليها توجها تعبديا ابتغاء النفع أو كشف الضر فى غير الأسباب التى سخرها الله لجميع الناس ــ كل ذلك كفر لافرق بينه وبين عبادة الصنم أو الوثن إذ جميع ماعدا الله فهو عبد وملك له لايتوجه بالعبادة إليه .

(ب) توحيد الربوبية ــ أى اعتقاد أن الله وحده هو الخالق المدبر لهذا الكون والمتصرف فيه على مقتضى حكمته ونظام سننه وتسخيره الأسباب لمن شاء بما شاء ، وكان أكثر المشركين من العرب ومن قبلهم يؤمنون بأن الرب الخالق المدبر واحد ، ولكن يقولون بتعدد الآلهة التى يتقرب بها إليه توسلا وطلبا للشفاعة عنده .

(٢) إثبات رسالته صلى الله عليه وسلم بالقرآن بتحديهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات ودعوة من استطاعوا من دون الله لمظاهرتهم و إعانتهم على الإتيان بها

إن كانوا صادقين وقوله بعد ذلك : « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ » وما جاء فى قوله : « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » .

(٣) جاءت آيات البعث والجزاء فى القرآن لدعوة المشركين إلى الإيمان والاستدلال بها على قدرة الخالق ، ولتذكير المؤمنين به للترغيب والترهيب والموعظة والجزاء كما جاء فى قوله : « إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقوله : « وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(٤) إهلاك الأمم بالظلم كما جاء فى قوله لخاتم رسله : « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ » وقوله : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ » .

(٥) سنته تعالى فى ضلال الناس وغوايتهم ــ فإن الإغواء والإضلال يكون بارتكاب أسبابهما من الأعمال الاختيارية والإصرار عليها إلى أن تتمكن من صاحبها وتحيط به خطيئته حتى يفقد الاستعداد للهدى والرشاد .

(٦) من طباع البشر العجل والاستعجال لما يطلب من النفع والخير وما ينذر به من الشر كما قال : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » .

(٧) سنته تعالى فى تكوين الخلق وأنه كان أطوارا فى أزمنة مختلفة بنظام محكم ولم يكن شىء منه فجائيا بلا تقدير ولا ترتيب كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » فكلمة الخلق معناها التقدير المحكم الذى تكون فيه الأشياء على مقادير متناسبة ثم أريد بها الإيجاد التقديرى ، فالسموات السبع المرئية للناظرين والأجرام السماوية قائمة بسنن دقيقة النظام ، وما فيها من البسائط

والمركبات الغازية والسائلة والجامدة كذلك ، والكون فى جملته قائم بسنة عامة فى ربط بعضه ببعض وحفظ نظامه أن يبنى بعضه على بعض وهو مايسميه العلماء الجاذبية العامة والجاذبية الخاصة .

(٨) إن الطغيان والركون إلى الظالمين من أمهات الرذائل كما قال: «وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » .

(٩) الاختلاف فى طبائع البشر ، وفيه فوائد ومنافع علمية وعملية لاتظهر مزايا هذا النوع بدونها ، وفيه مضار وشرور أكبرها التفرق والتعادى به ، وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذى لامجال فيه للاختلاف ، فاستحق الذين يحكمونه فيما يتنازعون به رحمة الله وثوابه ، والذين اختلفوا فيه سخطه وعقابه .

(١٠) اتباع الإتراف وما فيه من الفساد والإجرام – ذلك أن مثار الظلم والإجرام الموجب لهلاك الأمم هو اتباع أكثرها لما أترفوا فيه من أسباب النعيم والشهوات واللذات ، والمترفون هم مفسدو الأمم ومهلكوها .

وقد علم هذا المهتدون الأولون بالقرآن من الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين فكانوا مثلا صالحا فى الاعتدال فى المعيشة أو تغليب جانب الخشونة والشدة على الإتراف والنعمة ففتحوا الأمصار وأقاموا دولة عز على التاريخ أن يقيم مثلها باتباع هدى القرآن وبيان السنة له ، وبذلك خرجوا من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، ثم أضاعها مَن خلف من بعدهم من متبعى الإتراف وكيف ضلوا بعد أن استفادوا الفنون والعلوم والملك والسلطان، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

(١١) إقامة الصلاة فى أوقاتها من الليل والنهار ، لأن الحسنات يذهبن السيئات وأعظم الحسنات الروحية الصلاة لما فيها من تطهير النفس وتزكية الروح .

(١٢) النهى عن الفساد فى الأرض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما سياج الدين والأخلاق والآداب .

(١٣) سننه تعالى فى اختبار البشر لإحسان أعمالهم كما قال: «لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » .

(١٤) أول أتباع الرسل والمصلحين هم الفقراء كما حكى عن قوم نوح «وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ»

(١٥) التنازع بين رجال المال ورجال الإصلاح فى حرية الكسب المطلقة أو تقييد الكسب بالحلال ومراعاة الفضيلة .

(١٦) من سننه تعالى جعل العاقبة للمتقين وذلك هو الأساس الأعظم فى فوز الجماعات الدينية والسياسية والأمم والشعوب فى مقاصدها وغلبها لخصومها ومناوئيها .

(١٧) بيان أن الاختلاف فى الدين ضرورى للعباد كما قال : « وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ».

(١٨) بيان أن نهى أولى الأحلام عن الفساد يحفظ الأمة من الهلاك كما قال : « فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ »

تقدمة لتفسير سورة يوسف

رأينا أن نقدم لك أيها القارىء صورة موجزة تبين لك حال هذا النبي الكريم والعبرة من ذكر قصته فى القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئين والسامعين .

يوسف الصديق : مثل كامل فى عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته فى شبابه ، وقوته فى دينه ، و إيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا فى العفة والصيانة التى لاتتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ومراقبته له فى السر والعلن .

وسورته منقبة عظمى له ، وآية بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء فالرجال ، فبتلاوتها يشعر القارئ بما للشهوة الخسيسة على النفس من سلطان ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة فى المؤمن على كل رذيلة ، بقوة الإرادة ووازع الشرف والعصمة ، ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء ، فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بِنْية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تذل نفسها له ، وتخون بعلها فتراوده عن نفسه (وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لاطالبات) فيسمعها من حكمته ، ويريها من كماله وعفته ماهو أفضل درس فى الإيمان بالله والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه فيقول : « إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » فتشعر حينئذ بالذل والمهانة ، والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلى أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه

وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فزج فى السجن فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ علم مافى الفاحشة من مفاسد ، ومافى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم ، وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته ، ومكّن له فى الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين ، قال سبحانه : « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته فقد ظهرت جليّا حين تولى الحكم فى مصر أيام السبع السنين العجاف التى أكلت الحرث والنسل وكادت توقع البلاد فى المجاعات ثم الهلاك المحقق لولا حكمته وعدله بين الناس والسير بينهم بالسوية وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ولا ميل مع الهوى .

مافى قصص يوسف من عبرة

إن فى هذه القصة لعبرة أيما عبرة لعِلْية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجّانهم وأعفائهم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غوية ولا كانت فى سيرتها غير عادية ، لكنها ابتليت بحب هذا الشاب الفاتن الذى وضعه عزيز مصر فى قصره ، وخلى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمراودته عن نفسه فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع فى مصر دورها وقصورها ذلها له ، وإباؤه عليها كما قال سبحانه : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

وقد ذكرنها بالوصف (امرأة العزيز) دون الاسم الصريح استعظاما لهذا الأمر منها ، ولاسيما وزوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها ، وذلك أقبح لوقوعها منها وهى السيدة وهو المملوك ، وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هـذه الدناءة ولاترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لابالسيادة ، وبالضعة لابالعظمة ، ولله فى خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد فى حبها ولافى طلبها . أما الأول فقولهن فيها : « قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها (الغشاء المحيط به) وغاض فى سويدائه كما قال شاعرهم :

الله يعلم أن حـــبك منى في سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » .

فلما سمعت بهذا المكر القولى قابلتهن عليه بمكر فعلى فقد جمعتهن وأخرجته عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفى أيديهن مُدى يقطعن بها مماياً كلنه فقطعن أيديهن وهن لايشعرن بما فعلن مأخوذات بذلك الحسن كما جاء فى قوله سبحانه: « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَاهٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ، قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها ، وكاشفت النسوة فى أمرها ، وتواطأن معها على كيدها ــ آثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على مايدعونه إليه من الفحش والخنا : «قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وإنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات .

قال فى الكشاف عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعة لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن ويسخره لها .

وإنا لنستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

(١) إن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفراح .

(٢) إن الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الجوائح التى تكون مصدر النكبات والمصائب .

(٣) إن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة ، لمن اعتبر وتدبر ونظر بعين الناقد البصير .

(٤) إن إسهاو دعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة ، فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث « ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما » .

وإنا لنرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوى ، والفساد الخلق ، الذى وصل إلى الغاية (وكلنا نلمس آثاره ، ونشاهد بلواه) مابلغ إلى مانرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى ، والاشتراك معهم فى المفاسد والمعاصى كمعاقرة الخمور ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة.

وبعد فهل لهذه البلوى من يفرج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آسٍ ، وهل لهذه الفوضى من علاج ، ولهذه الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ويكون فيه من الشجاعة مايجعله يرفع الصوت عاليا بالنزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع والحرص على آدابه إلى ماقرره الدين ، وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره وتزهو الفضيلة وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين فى بلاد المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

سورة يوسف عليه السلام

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ومائة ، والمناسبة بينها و بين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله دالاً على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلها ، أن السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ الدعوة والمحاجة فيها وعاقبة من آمن منهم ومن كذبوهم لإنذار مشركى مكة ومن تبعهم من العرب . وأما هذه السورة فهى قصة نبى ربِّىَ فى غير قومه قبل النبوة وهو صغير السن حتى بلغ أشده واكتهل فنبئ وأرسل ودعا إلى دينه ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم فأحسن الإدارة والسياسة فيه وكان خير قدوة للناس فى رسالته وفى جميع مادخل فيه من أطوار الحياة وتصريف أمورها على أحسن مايصل إليه العقل البشرى ، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه و إخوته آل بيت النبوة ، وكان من حكمة الله أن يجمعها فى سورة واحدة ، ومن ثم كانت أطول قصة فى القرآن الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)

المعنى الجملى

جاءت فاتحة هذه السورة كفاتحة سورة يونس ، خلا أن القرآن وصف هنا بالمبين ، وهناك بالحكيم ، ذاك أن موضوع الأولى قصص نبىٍّ تقلبت عليه صروف

الزمان بين نحوس وسعود كان جميعها خير أسوة ، وموضوع الثانية أصول الدين من توحيد الله و إثبات الوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة.

وروى عن سعد بن أبى وقاص فى سبب نزولها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غبر يتلو القرآن زمانا على أصحابه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فيكون فى ذلك ترويح لنفوسنا و إحاطة بما يتضمنه من عبر وعظات .

الإيضاح

(الر) تقدم لك الكلام فى هذا بما فيه الكفاية .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى آيات هذه السورة هى آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه ، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين وأحكام التشريع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة .

(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على النبى العربى ليبين لكم بلغتكم العربية مالم تكونوا تعلمونه من أحكام الدين وأنباء الرسل والحكمة وشئون الاجتماع وأصول العمران وأدب السياسة ، لتعقلوا معانيه وتفهموا ماترشد إليه من مطالب الروح ومدارك العقل وتزكية النفس و إصلاح حال الجماعات والأفراد بما فيه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين) أى نحن نقص عليك ونحدثك أحسن مايقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة لما يتضمنه من العبر والحكم ، بإيحائنا إليك هذه السورة من القرآن الكريم ، إذ هى الغاية فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس وحسن موضوعها ، وقد كنت من قبل ذلك فى زمرة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لايخطر فى بالهم التحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم و بيان ما كانوا عليه من دين وشرع كيعقوب وأولاده وهم فى بداوتهم ولا ما كان فيه المصريون الذين جاء يوسف إليهم من حضارة وترف ،

ولا ماحدث له فى بعض بيوتات الطبقة الراقية ، ولا حاله فى سياسة الملك وإدارة شئون الدولة وحسن تنظيمها .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

شرح المفردات

لأبيه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، روى أحمد والبخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم» أحد عشر كوكبا : هم أخوته وكانوا أحد عشر نفرا ، والشمس والقمر: أبوه وأمه، والسجود: من سجد البعير ، إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس فى تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرهما الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم ، وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة ، وقص الرؤيا: الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة ، وكاد له: إذا دبر الكيد لأجل مضرته أو لمنفعته كما قال« كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ» والاجتباء، من جبيت الشيء: إذا حصلته لنفسك، والتأويل : الإخبار بما يئول إليه الشيء فى الوجود ،

وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، والآل أصلها أهل، وهو خاص بمن لهم شرف وخطر فى الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث فى قص يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير ، وفيما أجابه به أبوه من منعه عن قصه لأخوته خيفة الحسد والكيد له ، وفى تعبير تلك الرؤيا له ، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة وأنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، وقد شغف أبوه بحبه وتعلق به أمله وكان ذلك بدءا لما جد له من أحداث ضر و بؤس ثم عاقبة حميدة كانت ذكرى للذاكرين وعبرة للمتقين ، ولم يذكر ذلك إلا فى أواخر السورة ، وقد احتذى هذا الأسلوب كثير ممن وضعوا كتب القصص (الروايات) فتراهم يبدءون بذكر نبأ هامّ يشغل بال القارئ ويحيره فى فهم علله وأسبابه ومايزالون يتدرجون به من حال إلى حال ومن شرح معمى وكشف خفى رويدا رويدا بأناة وحذق حتى يشرحوا ذلك النبأ فى نهاية القصص .

الإيضاح

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) أى قال يوسف لأبيه يعقوب إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لى سجدا،وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لاأضغاث أحلام تثيرها فى النوم الهواجس والأفكار ، وأن يوسف سيكون له شأن عظيم وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وأخوته ، وخاف أن يسمع أخوته ما سمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه ، ومن ثم نهاه أن يقص عليهم رؤياه .

(قال يا بنىّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أى لا تخبر

إخوتك بما رأيت فى منامك خيفة أن يحسدوك فيحتالوا للايقاع بك بتدبير يحكمونه بالتفكير والروية .

ثم بين السبب النفسى لهذا الكيد بقوله :

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين) أى إن الشيطان عدو لآدم و بنيه ، قد أظهر لهم عداوته فأحذر أن يغرى أخوتك بك بحسدهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك ، إذ من دأبه أن ينزغ بين الناس حين تعرض لهم داعية من هوى النفس ولا سيما الحسد الغريزى فى فطرة البشر ، وقد أرشد إلى هذا يوسف بقوله «مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي» .

(وكذلك يجتبيك ربك) أى وكما أراك ربك الكواكب والشمس والقمر سجّدا لك ، يجتبيك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم بفيض إلهى يكملك به بأنواع من المكرمات بلا سعى منك فتكون من المخلصين من عباده .

(ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى ويعلمك من علمه اللدنى تأويل الرؤى وتعبيرها أى تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تئول إليه فى الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) .

وتعليم الله تعالى يوسف التأويل إعطاؤه إلهاما وكشفا لما يراد أو فراسة خاصة فيها أو علما أعم من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبى السجن « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

(ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) أى ويتم نعمته عليك باجتبائه إياك واصطفائك بالنبوة والرسالة والملك ، وعلى أبيك وإخوتك وذريتهم بإخراجهم من البدو وتبوئهم مقاما كريما فى مصر ثم فى تسلسل النبوة فى أسباطهم حيناً من الدهر .

(كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) أى كما أتم النعمة من قبل هذا العهد على جدك وجد أبيك ، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف منهما والعرب وغيرها تفعل ذلك وقد كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم يابن عبد المطلب .

وقد قال يعقوب ذلك لما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله وجعل النبوة والكتاب فى ذريته وما علم من رؤيا يوسف إلا أنه حلقة السلسلة النبوية بعده من أبنائه .

(إن ربك عليم حكيم) أى إن ربك عليم بمن يصطفيه ومن هو أهل للفضل والنعمة فيسخر له الأسباب التى تبلغ به الغاية إلى مايريده له ، حكيم فى تدبيره فيفعل ما يشاء جريا على سنن علمه وحكمته .

وخلاصة ما تقدم — إن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما جمليًا كل مابشر به ابنه يوسف الرائى لها، وأما كيد إخوته له إذا قصها عليهم فقد استنبطه من طبع البشر وعداوة الشيطان له ، ثم قفى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه ومن تأويل الأحاديث وهو الذى سيكون وسيلة بينه وبين الناس فى رفعة قدره وعلوّ مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبله .

لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

المعنى الجملى

صدّر سبحانه هذا القصص بمقدمتين: أولاهما فى وصف القرآن وكونه تنزيلا من عند الله دالاً على رسالة من أنزل عليه وكون النبى صلى الله عليه وسلم كان من قبله

غافلا عما جاءه فيه لايدرى منه شيئا . ثانيتهما رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما جليًا و بنى عليه تحذيره و إنذاره وما يستهدف له من كيد إخوته ثم تبشيره بحسن العاقبة ، ثم بنى على الأولى قوله بعد تمام القصة « ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » و بنى على الثانية قوله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له « يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

الإيضاح

(لقد كان فى يوسف و إخوته آيات للسائلين) أى لقد كان فى قصة يوسف و إخوته لأبيه عبر أيما عبر دالة على قدرة الله وعظيم حكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم ، للسائلين عنها الراغبين فى معرفة الحقائق والاعتبار بها ، فإنهم هم الذين يعقلون الآيات و يستفيدون منها .

تأمل تر أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه فى غيابة الجب ، ولو لم يلقوه فيها لما وصل إلى عزيز مصر ولو لم يعتقد العزيز بصادق فراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه و يستعصم منها لما ظهرت نزاهته ، ولو لم تفشل فى كيدها وكيد صويحباتها لما ألقى فى السجن، ولو لم يسجن ما عرفه ساقى ملك مصر وعرف صدقه فى تعبير الرؤيا و إرشاد ملك مصر إليه فآمن به وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب ما أمكنه أن ينقذ أبو يه و إخوته وأهله أجمعين من الجوع والمخمصة و يأتى بهم إلى مصر فيشاركوه فيما ناله من عز و بذخ ورخاء عيش ونعيم عظيم ، وما من مبدإ من هذه المبادىء إلا كان ظاهره شرا مستطيرا ثم انتهى إلى عاقبة كانت خيرا وفوزا مبينا .

فتلك ضروب من آيات الله فى القصة لمن يريد أن يسأل عن أحداثها الحسية الظاهرة وعلومها الباطنة كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم فى دعوى أكل الذئب له ، ومن ثمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر ذاهبة إلى

أرض كنعان ، ومن رؤية برهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ومن علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيرا بعد عمى بقى كثيرا من السنين .

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة) أى إن فى شأنهم لعبرة حين قالوا : ليوسف وأخوه شقيقه بنيامين أحب إلى أبينا منا فهو يفضلهما علينا بمزيد محبة على صغرهما وقليل نفعهما ، ونحن رجال أشداء أقوياء نقوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والكفاية .

(إن أبانا لفى ضلال مبين) أى إن أبانا لقد أخطأ فى إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالمحبة ، وهو قد ضل طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لا يخفى على أحد ، فكيف يفضل غلامين ضعيفين لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبة أولى القوة والكسب والحماية عن الذمار .

وفى الآية من العبرة وجوب عناية الوالدين بمداراة الأولاد وتربيتهم على المحبة واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم واجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى قال إخوة يوسف بعضهم لبعض :اقتلوا يوسف حتى لا يكون لأبيه أمل فى لقائه ، أو انبذوه فى أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يهتدى إلى العودة إلى أبيه إن هو سلم من الهلاك .

(يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) أى يخل لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف فيكن كل توجهه إليكم وكل إقباله عليكم ، بعد أن تخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشارككم فى عطفه وحبه وتكونوا من بعد قتله قوما صالحين تائبين إلى الله مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها مع عدم التصدى لمثلها وبذا يرضى عنكم أبوكم ويرضى عنكم ربكم .

(قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) الجب : البئر غير المبنية بالحجارة، وغيابته : مايغيب عن رؤية البصر

من قعره ، والسيارة : جماعة المسافرين الذين يسيرون فى الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها .

أى قال قائل منهم وهو روبين : لاتقتلوا يوسف وألقوه فى قعر البئر حيث يغيب خبره فيلتقطه بعض المسافرين ويأخذوه إلى حيث ساروا فى الأقطار البعيدة وبذا يتم لكم ماتريدون ، وهو إبعاده عن أبيه إن كنتم فاعلين ماهو المقصد لكم بالذات إذ لاشك أن قتله لايعنيكم لذاته ، فعلام تسخطون خالقكم باقتراف جريمة القتل والغرض يتم بدونها ؟ وجاء فى سفر التكوين من التوراة أن روبين مكر بهم إذ كان يريد إخراجه من الجب وإرجاعه إلى أبيه فإنهم وضعوه فى بئر لاماء فيها ، فمرت بها سيارة من تجار العرب مسافرة إلى مصر فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم إذ لافائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (١٤)

شرح المفردات

الناصح : المشفق المحب للخير ، والرتع : الاتساع فى الملاذ ، والمراد باللعب لعب المسابقة والانتضال بالسهام ونحوهما مما يتدرب به لمقاتلة الأعداء وتعليم فنون الحرب ، والحزن : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه ، والخوف : ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه ، والعصبة : الجماعة التى تعصب بها الأمور وتكفى بآرائها الخطوب ، وخاسرون : ضعفاء عاجزون ، أو هالكون لاغناء عندنا ولا نفع .

المعنى الجملى

هذا بيان جىء به لبيان ما كادوا به أباهم بعد أن أتمروا بيوسف ليرسله معهم وفيه إيماء إلى أنه كان يخافهم عليه ولولا ذلك ماقال لهم تلك المقالة التى أظهروا فيها أنهم فى غاية المحبة والشفقة له .

الإيضاح

(قالوا ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) أى قالوا له : لم تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به ونخلص النصح له ، وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف وربما علموا بهذا منه .

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) أى أرسله معنا غداة غد حين نخرج كعادتنا إلى المرعى فى الصحراء يشاركنا فى الرياضة والأنس والسرور وأكل الفواكه والبقول وغيرهما مما يطيب ، وقد كان أكثر لعب أهل البادية السباق والصراع والرمى بالعصىّ والسهام إن وجدت ، وإنا لحافظوه من كل أذى يصيبه .

(قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) أى قال مجيبا لهم : إنى ليحزننى ويقضّ علىّ مضجعى أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء خيفة أن يأكله الذئب وأنتم غافلون عنه لاتشعرون به لاشتغالكم عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، أو لعله لولم يذكر هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ولكن شدة الحذر والاحتياط هو الذى جعله يقول ذلك .

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى قالوا له والله لئن اختطفه منا الذئب فى الصحراء ونحن جماعة شديدة البأس تكفى بنا الخطوب وتدفع مهمات الأمور إنا إذاً لهالكون ولاغناء عندنا ولا نفع ولا ينبغى أن يعتدّ بنا ويركن إلينا .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

شرح المفردات

أجمعوا : أى عزموا عزما لاتردد فيه ، وأوحينا إليه : أى ألهمناه كما فى قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » والعشاء : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار ، والاستباق : تكلف السبق فى العَدْو أو فى الرمى ، والمتاع : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ، ومؤمن : أى مصدق ، وسولت : زينت وسهلت ، والصبر الجميل : ما لاشكوى فيه إلى الخلق، على ماتصفون: أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات الأربع لبيان مااعتزموا عليه ونفذوه بالفعل وما اعتذروا به لأبيهم من كذب ، وما قابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل .

الايضاح

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون) أى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له وقدعزموا

عزما إجماعيا لاتردد فيه على إلقائه فى غيابة الجب ، نفذوا ذلك وحينئذ أوحينا إليه وحيا إلهاميا تطييبا لقلبه وتثبيتا لنفسه : لاتحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا وسينصرك الله عليهم ويرفع درجتك وستخبرهم بما صنعوا وهم لايشعرون بأنك يوسف .

وفى هذا إيماء إلى أنه سيخلص من هذه المحنة ويصيرون تحت سلطانه وقهره .

(وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى جاءوه وقت العشاء حين خالط سواد الليل بياض النهار ـ حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يريدون قائلين له : إنا ذهبنا من موضع اجتماعنا نتسابق ونترامى بالنبال وتركنا يوسف عند ثيابنا وأزوادنا ليحفظها إذ لايستطيع مجاراتنا فى استباقنا الذى يرهق القوى فأكله الذئب إذ بعدنا عنه ولم نسمع استغاثته ولا صراخه ، ونحن نعلم أنك لاتصدقنا ولو كنا عندك صادقين فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ؟ ولك العذر فى هذا لغرابة ماوقع وعجيب ماتفق لنا فى ذلك الأمر .

(وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) أى إنهم جاءوا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف ، وهم يدّعون أنه دمه ليشهد بصدقهم فكان دليلا على كذبهم ، ومن ثم قال : (على قميصه) ليستبين للقارىء والسامع أنه موضوع وضعا متكلفًا إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص وتغلغل الدم فى كل قطعة منه ، ومن أجل هذا كله لم يصدقهم وقال: هيهات، ليس الأمر كما تدّعون بل سهلت لكم أنفسكم الأمّارة بالسوء أمرا نكرا وزينته فى قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه ، وسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ، وإنى أستعين به على أن يكفينى شر ماتصفون من الكذب .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

شرح المفردات

السيارة : الرفقة تسير معا ، والوارد : الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وأسروه : أى أخفوه من الناس ، والبضاعة : القطعة من المال يفرز للاتجار به ، وشرى الشىء : باعه واشتراه : ابتاعه ، والبخس : الناقص والمعيب كما قال : « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » والمراد هنا الحرام أو الظلم لأنه بيع حر .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن إخوة يوسف أجمعوا أمرهم على إلقائه فى غيابة الجب ونفذوا ذلك ، ذكر هنا طريق خلاصه من تلك المحنة بمجىء قافلة من التجار ذاهبة إلى مصر فأخرجوه من البئر وباعوه فى مصر بثمن بخس .

الإيضاح

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هـذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) أى وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مدين إلى مصر فأرسلوا واردهم الذى يجلب لهم المـاء للاستسقاء فأرسل دلوه ودلاه فى ذلك الجب فتعلق به يوسف ، ولما خرج ورآه قال مبشرا جماعته السيارة : يابشرى هذا غلام أى آن وقت البشرى فاحضرى ، كما يقال يا أسفا و ياحسرتا إذا وقع ماهو سبب لذلك فاستبشرت به السيارة وأخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والله عليم بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله

إخوة يوسف ، فلكل منهم مقصد خاص فى يوسف، فالسيارة يدّعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، و إخوة يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه ويدّعون أن الذئب قد أكله ، وذلك كيد بالباطل ، ليمضى فيه وفيهم حكمه السابق فى علمه وليرى إخوة يوسف و يوسف وأبوه قدرته تعالى على تنفيذ ما أراد .

وفى هذا تذكير من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتسلية له عما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فكأنه يقول له اصبر على ما نالك فى الله فإنى قادر على تغيير ذلك كما قدرت على تغيير ما لقى يوسف من إخوته وسيصير أمرك إلى العلوّ عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم .

(وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) أى و باعه السيارة فى مصر بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التى تعد عدًا ولا توزن وزنا ، وكانوا لايزنون إلا ما بلغ الأوقية (أربعين درهما) فما فوقها و يعدون ما دونها ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود، وفى سفر التكوين من التوراة أن إخوته قرروا بيعه للاسماعيليين أى للعرب ، وقد أخرجه من الجب جماعة من أهل مدين و باعوه لهم ، وكان الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لأنه حرّ ، والثمن لم يكن مقصودا لهم حين بيعه ومن ثم قنعوا بالبخس منه .

وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

شرح المفردات

المثوى: مكان الثواء والإقامة، مكنا ليوسف: أى جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر، ومن تأويل الأحاديث: أى بعض تعبير الرؤى التى عمدتها رؤيا الملك وصاحبى السجن، وغالب على أمره: أى لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد، وأشده: هو رشده وكمال قوته باستكمال نموه الجسمانى والعقلى، حكما، أى حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق، وعلما بحقائق الأشياء.

المعنى الجملى

هاتان الآيتان مبدأ قصص يوسف فى بيت العزيز الذى اشتراه، وفيهما بيان تمكين الله له وتعليمه تأويل الأحاديث وإيتائه حكما وعلما وشهادة من الله له بأنه من زمرة المحسنين.

الإيضاح

(وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه) لم يبين الكتاب الكريم اسم الذى اشتراه فى مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته، لأن ذلك لا يهم فى العبرة من القصة ولا يزيد فى العظة، ولكن لقبه النسوة فيما يأتى (بالعزيز) وهو اللقب الذى لقب به يوسف بعد أن تولى إدارة الملك فى مصر، والظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك، وفى سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون، وأن اسمه فوطيفار وقد تفرس هذا الوزير فيه أصدق الفراسة إذ وصى امرأته بإكرام مثواه أى بحسن معاملاته فى كل شئونه حتى يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم.

وخلاصة ما قال — أحسنى تعهده وانظرى فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتمه.

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته (أكرمى مثواه) والمرأة التى قالت لأبيها (يا أبت استأجره) الآية وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم بين علة إكرامه برجائه فيه وعظيم أمله فى جليل مساعدته فقال :

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى علّه أن ينفعنا فى أمورنا الخاصة إذا تدرب فيها وعرف مواردها ومصادرها أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنجابة ، أو نتبناه ونقيمه مقام الولد فيكون قرة عين لنا ووارثا لمالنا ومجدنا إذا تم رشده ونضج عقله . وفى الآية إيماء إلى شيئين .

(١) إن العزيز كان عقيما .

(٢) إنه كان صادق الفراسة ثاقب الفكر ، فقد استدل من كمال خَلْقِه وَخُلُقِه على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته مما يكمل استعداده الفطرى فالتجارب قد دلت على أنه لايفسد الأخلاق شىء أكثر مما تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة.

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وعلى ذلك النحو من التدبير جعلنا ليوسف مكانة عالية فى أرض مصر كان مبدؤها عطف العزيز عليه ورجاءه فيه ، فوقع له فى بيته ثم فى السجن من الأحداث ما كان سببا فى اتصاله بساقى الملك ثم بالملك نفسه .

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى ولنعلمه بعض تعبير الرؤى ومعرفة حقائق الأمور مما ينتهى إلى غاية التمكين لدى الملك حتى ليقول له «اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ» ويقول له الملك «إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ» .

(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى والله غالب على كل أمر يريده فلا يُغلب على شىء منه بل يقع كما أراد « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» فما حدث من أخوة يوسف له وما فعله مسترقوه وبائعوه ، وما وصى به الذى اشتراه امرأته من إكرام مثواه ، وما وقع له مع هذه

المرأة من الأحداث ومن دخوله السجن ـ قد كان من الأسباب التى أراد الله تعالى له بها التمكين فى الأرض، ولكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها كما زعم إخوة يوسف أنه لو أبعد يوسف عنهم خلا لهم وجه أبيهم وكانوا من بعده قوما صالحين ، وقوله: أكثر الناس ، إيماء إلى أن الأقل يعلمون ذلك كيعقوب عليه السلام فإنه يعلم أن الله غالب على أمره فهاهى أقواله السابقة واللاحقة صريحة فى ذلك ، ولكن علمه إجمالى لا تفصيلى إذ لا يحيط بما تخبئه الأقدار .

وبعد أن بين سبحانه أن إخوة يوسف أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد حتى مكن الله له فى أرض مصر، بين هنا أنه آتاه الحكم والعلم حين استكمال سن الشباب وبلوغ الأشد ، وأن ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه فى سيرته فقال عزّ اسمه :

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) أى ولما بلغ سن رشده وكمال قوته باستكمال نموه البدنى والعقلى ، وهبناه حكما صحيحا فيما يعرض له من مهامّ الأمور ومشكلات الحوادث مقرونا بالحق والصواب وعلما لدنيا وفكريا بما ينبغى أن تسير عليه الأمور .

وقدر الأطباء هذه السن بخمس وعشرين سنة ، وقد أثبت علماء الاجتماع أن الاستعداد الإنسانى يظهر رويدا رويدا حتى إذا ما بلغ المرء خمسا وثلاثين سنة وقف عند هذا الحد ولم يظهر فيه شىء جديد غير ما ظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة .

(وكذلك نجزى المحسنين) أى ومثل ذلك الجزاء العظيم نجازى به المتحلين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسيئات الأعمال ، فنؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، وعلما يظهره القول الفصل ، إذ يكون لذلك الإحسان تأثير فى صفاء عقولهم وجودة أفهامهم وفقههم لحقائق الأشياء غير ما يستفيدون بالكسب من غيرهم ولا يتهيأ مثل ذلك للمسيئين فى أعمالهم المتبعين لأهوائهم وطاعة شهواتهم .

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

شرح المفردات

روادته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة، فالمراود يتلطف فى طلبه تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف (سنراود عنه أباه) أى نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك (بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وضمها) أى هلمّ أقبل و بادر، وقد روى أنها لغة عرب حوران واختيرت لأنها أخص ما يؤدى المراد مع النزاهة الكاملة ، ومعاذ الله: أى أعوذ وأتحصن بالله من أن أكون من الجاهلين الفاسقين ، وهمت به: أى همت لتبطش به لعصيانه أمرها ، وهمّ بها ليقهرها فى الدفع عما أرادته و يرد عنفها بمثله ، و برهان ربه : إما النبوة التى تلى الحكم والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الأشد ، و إما مراقبة الله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا إليه كما جاء فى الحديث فى تفسير الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » والمخلصون : هم الذين اجتباهم الله واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب : أى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهى لتمنعه من الخروج ، وقدّت قميصه من دبر : أى قطعته طولا من خلف، وألفيا : أى وجدا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه ، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه ثم بين عنايته سبحانه به وتمهيد سبل كماله بتمكينه فى الأرض - ذكر هنا مراودة امرأته له ونظرها إليه بغير العين التى نظر بها زوجها إليه وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراد الله من فوقهما وأعدت العُدة لذلك فغلقت الأبواب فهرب منها إلى باب المخدع فقدّت قميصه من خلف ووجدا زوجها بالباب الخارجى فبادرت إلى اتهامه بالسوء إلى أن استبانت براءته .

الإيضاح

(وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه) أى وخادعت امرأة العزيز يوسف عن نفسه وراوغته ليريد منها ما تريد هى منه مخالفا لإرادته وإرادة ربه، والله غالب على أمره ، قال فى الكشاف : كأن المعنى خادعته عن نفسه أى فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهى عبارة عن التمحل فى مواقعته إياها اهـ .

(وغلقت الأبواب) أى وأحكمت إغلاق باب المخدع الذى كانا فيه وباب البهو الذى يكون أمام الغرف فى بيوت العظماء وباب الدار الخارجى وربما كان هناك غيرها .

(وقالت هيت لك) أى وقالت هلمّ أقبل ، وزيدت كلمة (لك) لبيان المخاطب كما يقولون : سقيا لك ورعيا لك ، وهذا الأسلوب هو الغاية فى الاحتشام فى التعبير، وقد يكون هناك ما زادته من إغراء وتهييج مما تقتضيه الحال . وما نقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب ، فمثل هذا لا يعلم إلا من الله أو من الرواية الصحيحة عنها أو عنه ، ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك .

(قال معاذ الله) أى أعوذ بالله عزّ وجل وألتجئ إليه مما تريدين منى فهو يعيذنى أن أكون من الجاهلين كما سيأتى من قوله « وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(إنه ربى أحسن مثواى) أى إنه سيدى المالك لرقبتى قد أحسن معاملتى فى إقامتى عندك وأوصاك بإكرام مثواى فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه فى أهله، ثم علل ما صنع بقوله :

(إنه لايفلح الظالمون) أى إنه تعالى لا يفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتعدّ على الأعراض لا فى الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة ولا فى الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم .

وفى هذا إيماء إلى الاعتزاز بربه والأمانة لسيده والتعريض بخيانة امرأته واحتقارها بما أضرم نار الغيظ فى صدرها .

(ولقد همت به) أى ولقد همت بأن تبطش به إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهى سيدته وهو عبدها ، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه، وكلما ألحت عليه ازداد عتوّا واستكبارا معتزا عليها بالديانة والأمانة والترفع عن الخيانة وحفظ شرف سيده وهو سيدها، ولا علاج لهذا إلا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعت فى تنفيذه أو كادت بأن همت بالتنكيل به .

(وهمّ بها) لدفع صيالها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته .

(لولا أن رأى برهان ربه) أى ولكنه رأى من ربه فى سريرة نفسه ماجعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها .

والخلاصة — إن الفارق بين همها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد وأهينت بعتوه واستكباره و إبائه لما أرادت ، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أمارة وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد المضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم تر مثله إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعده له ، فاستبقا باب الدار وكان من أمرها ما يأتى بيانه فيما بعد ، هذا خلاصة رأى نقله ابن جرير وأيده الفخر الرازى وأبو بكر الباقلانى .

ويرى غيرهم من المفسرين أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا ممانع وهمّ هو بمثل ذلك ، ولولا أن رأى برهان ربه لاقترفها .

وقد فنده بعض العلماء لوجوه :

(١) إن الهم لا يكون إلا بفعل للهامّ والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهم به ، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه .

(٢) إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه همًّا لها، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته .

(٣) إنه لو وقع ذلك لوجب أن يقال (ولقد هم بها وهمت به) لأن الهم الأول هو المقدم بالطبع وهو الهم الحقيق والهم الثانى متوقف عليه .

(٤) إنه قد علم من هذه القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلبا جازما ومصرة عليه فلا يصح أن يقال إنها همت به ، إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، بل الأنسب فى معنى الهم هو مافسرناه به أوّلا وذلك لإرادة تأديبه بالضرب .

وقد رووا هنا أخبارا من الاسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذلها مما لايقع مثله من أوقح الفساق الذين تجردوا من جلابيب الحياء فضلا عمن ابتلى بالمعصية أول مرة من سليمى الفطرة الذين لم تغلبهم سورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وحيائهم من نظر ربهم إليهم .

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) أى جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء وما راودته عليه قبله من الفحشاء ـ بعصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية فى نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو فى رده عليها بأنهم لا يفلحون ، وقال : لنصرف عنه السوء والفحشاء ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء لأنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما .

(إنه من عبادنا المخلصين) أى إنه من جماعة المخلصين وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ

أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ » .

(واستبقا الباب) أى تسابقا إلى الباب ففر يوسف من أمامها هاربا إليه طالبا النجاة منها مرجحا الفرار على الدفاع الذى لاتعرف عاقبته ، وتبعته هى تبغى إرجاعه حتى لايفلت من يدها ، وهى لاتدرى إذا هو خرج إلى أين يذهب ولا ماذا يقول ولا مايفعل ؟ لكنها أدركته .

(وقدت قميصه من دبر) أى جذبته من ردائه وشدت قميصه فانقدّ .

(وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا زوجها عند الباب ، وقد كان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، ولم يقل سيدهما لأن استرقاق يوسف غير شرعى ، وهذا كلام ربه العليم بأمره ، لا كلام من استرقّه .

(قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) أى وحينئذ خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة من جُرمها وقاذفة يوسف : ماجزاء من أراد بأهلك شيئا يسوءك صغيرا كان أو كبيرا إلا سجن يعاقب به أو عذاب مؤلم موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة .

وفى هذا القول ضروب من الحيل .

(١) إيهام زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه .

(٢) إنها لم تصرح بجرمه حتى لايشتد غضبه ويقسو فى عقابه . كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ، وذلك غير ما تريد .

(٣) إنها هددت يوسف وأنذرته بما يعلم منه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها.

(٤) إنها قالت : إلا أن يسجن والمراد منه أن يسجن يوما أو أقل على سبيل التخويف فحسب ، أما الحبس الدائم فكان يقال فيه : (يجب أن يجعل من المسجونين) ألا ترى أن فرعون حين هدد موسى قال (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) قاله الرازى .

وجملة القول فى هذا — إن يوسف عليه السلام كان قوى الإرادة لايمكن غيره أن يحتال عليه ويصرفه عن رأيه ويجعله خاضعا له، ومن ثم لم تستطع امرأة العزيز أن تحوّل إرادته إلى ماتريد بمراودتها، ولا عجب فى ذلك فهو فى وراثته الفطرية والمكتسبة ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين، ومااختصه به ربه من تربيته والعناية به، وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء، وما صرف عنه من دواعى السوء والفحشاء - فى مكان مكين وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات وارتكاب المنكرات، فكل ماصوّروه به من الصور البشعة الدالة على الميل إلى الفجور إنما هو من فعل زنادقة اليهود ليُلْبسوا على المسلمين دينهم ويشوّهوا به تفسير كلام ربهم، ولا يغرنك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين فهى موضوعة عليهم، ولا ينبغى أن يعتدّ بها لأن نصوص الدين تنبذها، إلى أنه من علم الغيب فى قصة لم يُعلم الله رسوله غير ماقصه عليه فى هذه السورة، وكفى بهذا دلالة على وضعها.

تحقيق زوجها وحكم قريبها وظهور براءة يوسف

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآيات السابقة مخادعتها ليوسف عن نفسه وتغليقها الأبواب وهربه منها إلى الباب وجذبها لقميصه ورؤية سيدها لذلك الحادث واتهامها ليوسف

بإرادة السوء منها ـ ذكر هنا تبرئة يوسف لنفسه وحكم قريبها فى القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها ، ثم علم الزوج ببراءة يوسف وثبوت خطيئتها .

الإيضاح

(قال هى راودتنى عن نفسى) أى هى طلبتنى فامتنعت وفررت كما ترى ، وقد قال هذه المقالة وهتك سترها خوفا على النفس والعرض ، ولاشك أن هذه حال تحتاج إلى بحث وتشاور وأخذ وردّ لم يبينه لنا الكتاب الكريم وإن كان لابد أن يحصل حتما كما هو مقتضى العادة والعقل ، لأن المقصد من القصة بيان نزاهة يوسف وفضائله لتكون عبرة لغيره .

وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجوه :

(١) إن يوسف كان مولى لها ، وفى مجرى العادة أن المولى لايجرؤ أن يتسلط على سيدته ويتشدد إلى مثل هذا .

(٢) إنهم رأوا يوسف يعدو عدوا شديدا ليخرج ، ومن يطلب امرأة لايخرج على هذا النحو .

(٣) إنهم رأوا الزينة قد بدت على وجه المرأة ، ولم يكن لها من أثر على وجه يوسف .

(٤) إنهم لم يشاهدوا من أخلاق يوسف فى تلك الحقبة الطويلة مايؤيد مثل هذه التهمة أو يقوى الظن عليه بأنه هو الطالب لا الهارب .

وقد أظهر الله لبراءته ما يقوى تلك الدلائل الكثيرة التى تظاهرت على أن بدء الفتنة كانت منها لامنه وأنها هى المذنبة لاهو وذلك ما أشار إليه بقوله :

(وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أى وحكم ابن عمّ لها مستدلا بما ذكر ، وكان عاقلا حصيف الرأى فقال : قد سمعنا جلبة وضوضاء ورأينا

شق القميص إلا أنا لاندرى أيكما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدام فصدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءا ، إذ الذى يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدّ قميصه وهما يتنازعان و يتصارعان ، وهو من الكاذبين فى دعواه أنها راودته فامتنع وفر هاربا فتبعته وجذبته تريد إرجاعه ، و إن كان قميصه قدّ من الخلف فكذبت فى دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ، وهو من الصادقين فى قوله : أنه فرّ هاربا منها .

روى أن هذا الشاهد كان صبيا فى المهد وأيدوه بما نقل عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم » وما روى عن أبى هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا فى المهد »وهذا موقوف لايصلح الاحتجاج به ، والأول قد ضعفه رجال الحديث ، إلى أنه لو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا فى تفنيد زعمها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص لأنه من الدلائل الظنية ، وكلامه فى المهد من الدلائل اليقينية ، وأيضا لو كان كذلك لما كان هناك داع إلى قوله : من أهلها الذى ينفى التحامل عليها ويمنع إرادة الضربها ، وأيضا فإن لفظ (الشاهد) لا يقع عرفا إلا على من تقدمت معرفته لما يشهد و إحاطته به .

(فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى فلما نظر إلى القميص ورأى الشق من الخلف أيقن بصدق قوله واعتقد كذبها ، وقال إن هذا محاولة للتنصل من جرمها باتهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء ، فهو سنة عامة فيهن ، فهن يجتهدن فى التبرى من خطاياهن ماوجدن إلى ذلك سبيلا ، وكيد النساء عظيم لا قِبَل للرجال به ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفعوها قدر المستطاع ، ولا شك أن هذه شهادة من قريب لها لايتهم بالتحامل عليها ولا بظلمها وتجريحها رميها بما هى منه براء .

(يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أى يا يوسف

أعرض عن ذكر هذا الكيد الذى حصل ولا تتحدث به كى لا ينتشر أمره بين الناس ولا تخف من تهديدها وكيدها لك ، وأنتِ أيتها المرأة توبى إلى ربك واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من زمرة المجرمين الذين يتعمدون ارتكاب الخطايا ويجترحون السيئات وهم مصرّون عليها .

حديث النسوة فى المدينة ومكر امرأة العزيز بهن

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥)

شرح المفردات

فتاها : عبدها ورقيقها ، والشغاف : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه ، كما يقال : كبدته إذا أصبت كبده ، والضلال : الحيدة عن طريق

الرشد وسن العقل ، بمكرهن : أى بقولهن ، وسمى ذلك مكرا لأنهن كن يردن إغضابها كى تعرض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيعذرن بمشاهدته ، وأعتدت : أعدت وهيأت ، والمتكأ : مايُجلس عليه من كراسى وأرائك ، وأكبرنه : أعظمنه ودهشن من جماله الرائع ، وقطعن أيديهن : أى جرحنها ، حاش لله : أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر ، واستعصم : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عمن نشئوا عليها ، الصاغرين : أى الأذلة المقهورين ، وأصبُ إليهن : أى أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، والجاهلين : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح ، فاستجاب له : أى أجاب دعاءه ، وبدا : ظهر ، والآيات هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام ، والحين : وقت من الزمن غير محدود .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تحقيق زوجها فى الحادث وحكم أحد أقاربها بما رأى ، وقد استبان منه براءة يوسف ، ذكر هنا أن الأمر قد استفاض فى بيوت نساء الوزراء والكبراء ، فأحببن أن يمكرن بها لتريهن هذا الشاب الذى فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكماله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها ، خشية لله وحفظا لأمانة السيد المحسن إليه أن يخونه فى أعز شىء لديه – علّه بعد هذا يصبو إليهن ويجذبه جمالهن ويكون له فيهن رأى غير ما رآه فيها ، فإنه قد ألف جمالها قبل أن يبلغ الأشد ، وكان ينظر إليها نظرة العبد إلى سيدته ، أو الولد إلى والدته .

الإيضاح

(وقال نسوة فى المدينة) لم يشر الكتاب الكريم إلى عددهن ولا إلى صفاتهن لأن العبرة ليست فى حاجة إلى ذلك ، والذى يقتضيه العرف ومجرى العادة أنه عمل

جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة يعهد منهن فى العرف أن يأتمرن ويتفقن على الاشتراك فى مثل هذا المكر ، إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى لاتتجه أنظارهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة ، ولا إلى مشاركتها فى ساب عشيقها ولا إلى التمتع بجماله الساحر ، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقل من بيت إلى بيت بوساطة الخدم ويكون الشغل الشاغل للنساء فى مجالسهن الخاصة وسمرهن فى البيوت، وخلاصته :

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وهذا كلام يقال للإنكار والتعجب من حصوله لوجوه عدة :

(١) إنها امرأة العزيز الأكبر فى الدولة ، ولها المنزلة السامية بين نساء العظماء .

(٢) إن الذى تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها .

(٣) إنها قد بلغ بها الأمر أن جادت بعفتها فكانت هى المراوِدة والطالبة لا المراوَدة المطلوبة .

(٤) إنها وقد شاع ذكرها فى المدينة لم ينثن عزمها عما تريد ، بل لاتزال مجدة فى نيل مرغوبها والحصول على مطلوبها كما يفيد ذلك قولهن (تراود) وهو فعل يدل على الاستمرار فى الطلب .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

(قد شغفها حبا) أى قد شق حبه شغاف قلبها أى غلافه المحيط به وغاص فى سويدائه فملك عليها أمرها ، فلا تبالى بما يكون من عاقبة تهتكها ، ولا بما يصير إليه حالها .

ثم زادوا ذلك تأكيدا بقولهم :

(إنا لنراها فى ضلال مبين) أى إنا لنعلم أنها غائصة فى مهاوى الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد ، ولم يكن قولهن هذا إنكارا للمنكر ولا كرها للرذيلة ولا نصرا للفضيلة ، بل قلنه مكرا وحيلة ليصل الحديث إليها فيحملها ذلك

على دعوتهن والرؤية بأبصارهن ما يكون فيه معذرة لها فيما فعلت . وذلك منهن مكر لا رأى ، وقد وصلن إلى ما أردن كما قال تعالى :

(فلما سمعت بمكرهن) أى فلما سمعت مقالتهن التى يردن بها إغضابها حتى تريهن يوسف إبداء لمعذرتها فينلن مايبغين من رؤيته ، وقد كان من المتوقع أن تسمع ذلك لما اعتيد بين الخدم من التواصل والتزاور ، وهن ماقلنه إلا لتسمعه ، فإن لم يتم لهن ما أردن احتلن فى إيصاله ، وقد كان ما أردن كما قال :

(أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا) أى مكرت بهن كما مكرن بها ودعتهن إلى الطعام فى دارها وهيأت لهن مايتكئن عليه من كراسى وأرائك كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة وأعطت كل واحدة منهن سكينا لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة .

(وقالت اخرج عليهن) أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها محجوبا عنهن ، وقد تعمدت إتماما للحيلة والمكر بهن أن يفجأهن وهن مشغولات بمايقطعنه ويأكلنه علما منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ما أرادت كما يشير إلى ذلك قوله :

(فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) أى فخرج عليهن فلما رأينه أعظمنه ودهشن لذلك الجمال البارع وذهلن فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع مايأكلن ذهولا عما يعملن ، أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار حتى لم يشعرن بما عملن ولا ألمن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم فيقولون كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدى حتى كدت أقطعها .

(وقلن حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الألباب وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أُتْرُنجا (ثمر من نوع الليمون الحامض كبير مستطيل يؤكل بعد إزالة قشرته) وعسلا فكن يحززن بالسكين ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن خرج ، فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترنج ، قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

(قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتنّ بأعينكن وما أكبرتن فى أنفسكن وما فعلتن بأيديكن وماقلتن بألسنتكن ، فذلكن هو الذى لمتننى فيه وأسرفتن فى لومى وتعنيفى وقلتن فيا قلتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخادم الصعلوك الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا إنسيا لاجنيا ، وجسدا لاملكا روحانيا ، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلىّ ولا يظهر نحوى عطفا ولا يرفع إلىّ طرفا .

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عمن نشئوا عليها ، ولا عجب فإنّ نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا .

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين) أى ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا : ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ولا يعصينى فى أمر ، وسيعاقبه بما أريد ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه وجعله كولده .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أوّلا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه

وألطفها كحبس فى حجرة الدار، أو لطمة على خديه تزيل منها الاحمرار، وهنا أنذرته بسجن مؤكد وذل وصغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام، فأشقّ الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار.

وفى هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ويثبت لديه عدم غيرته عليها كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن والمحرومين من نعمة الأولاد منهن.

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غل وجوى بظهور كذبها وصدقه، وتصميمه على عصيان أمرها، ولتظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل، ولينصحنه فى موافقتها ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها.

يالله إن هذا لموقف يهدّ الجبال الراسيات، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله، فامرأة ماكرة هتكت سترها، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها، ونسوة تواطأن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء، وإبعاد تلك اللأواء، إلا بمعونة من ربه وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه:

(قال رب السجن أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه) أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى، والقدير على كشف تلك البلوى: إن السجن الذى هُددت به والمكث فى بيئة المجرمين على شظف العيش ورقة الحال - أحب إلى نفسى مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك.

وفى قوله مما يدعوننى إليه إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها وزيّن له مطاوعتها فقلن له: أطع مولاتك وأنلها ما تهوى، لتُكفى شرها، وتأمن عقوبتها.

(وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن) أى وإن لم تبعد عنى شراك كيدهن وتثبتنى على ما أنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهن على أهوائهن وأقع فى شباك صيدهن وأرتع فى حمأة غوايتهن ، وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله ، فى فزعهم إلى مولاهم لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغة فى استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه .

(وأكن من الجاهلين) أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات ، فمن يعش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ماصبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ما عوّده من كشف السوء عنه فى قوله « كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ » .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) أى فأجاب له ربه دعاءه الذى تضمنه قوله : وإلا تصرف عنى كيدهن الخ فصرف عنه كيدهن وعصمه من الجهل والسفه باتباع أهوائهن .

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية وما خلاه ونفسه فى أهون أموره .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أى ثم ظهر للعزيز وامرأته ومن يهمه أمرها كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها ـ من الرأى مالم يكن

ظاهرا لهم من قبل - بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا فى أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته، ويحرسه بوافر رعايته، وقد استبان لهم ذلك من وجوه:

(١) إن افتتان سيدته فى مراودته وجذبها خلسات نظره لم تؤثر فى ميل قلبه إليها، بل ظل معرضا عنها متجاهلا لها حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه، وعيرها بالخيانة لزوجها.

(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها، ولم يمنعه إلا ما رأى فى دخيلة نفسه من برهان ربه الذى يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء.

(٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة فى اتهامها إياه وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إياه عن نفسه بدلالة القميص على ذلك.

كل هذا أثبت لهم أن بقاءه فى هذه الدار بين ربتها وصديقاتها مثار فتنة لا تدرك غايتها، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره وكف ألسنة الناس عنها فى أمره، وأقسموا ليسجننه حتى حين دون تقيد بزمن معين ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن وحديث الناس عنه.

وفى تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت حتى فقد الغيرة عليها فهو يجرى وراء هواها ويستجلب رضاها، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيست من طاعته وطمعت فى أن يذلله السجن لأمرها ويقف به عند مشيئتها.

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ، إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَىْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مكر النسوة بامرأة العزيز لتريهن يوسف ، ثم مكر امرأة العزيز بهن حتى قطعن أيديهن وقلن فى يوسف ما قلن من وصف جماله ، ثم إظهار امرأة العزيز المعذرة لنفسها فيما فعلت ، وعزمها على سجنه إن لم يكن مطواعا لها ، ثم حماية الله له من كيدها بعد دعائه إياه ، ثم تدبير مؤامرة بين العزيز وامرأته وأهلها على إدخاله السجن مع كل ماراوا من الآيات حتى ينسى الناس هذا الحديث وتسكن تلك الثائرة فى المدينة .

ذكر هنا تنفيذهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن ، وما كان من لطف الله به إذ آتاه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يعبر لكل حالم عما يراه ، ويخبر كل أحد عما يسأله عنه مما لم يكن حاضرا لديه وما سيأتى له من طعام وشراب ونحو ذلك ، ثم ذكر قول يوسف إن هذا كله نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيم و إسحق و يعقوب .

الإيضاح

(ودخل معه السجن فتيان) أى فسجنوه ودخل معه فتيان مملوكان من غلمان ملك مصر أحدهما خبازه والآخر ساقيه ـ لخيانة نسبت إليهما كانت ستودى بحياته، وبعد أن استقر بيوسف المقام فى السجن ـ سأله من فيه عن عمله فقال إنى أعبر الرؤى ، فقال أحد الفتيين لصاحبه تعال فلنجرّبه وكان من شأنهما معه ما قصه الله علينا بقوله .

(قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً) أى قال صاحب شرابه : إنى رأيت فى المنام أنى أعصر خمرا أى عنبا ليكون خمرا ، إذ الخمر لايعصر ، وقيل إن عرب غسان وعَمّان يسمون العنب خمرا . روى أنه قال رأيت حُبْلَة من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد فكنت أعصرها وأسقى الملك .

(وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) أى وقال الآخر وهو الخباز، وقد روى أنه قال: رأيت أنى أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال فيها خبز والطير تأكل من أعلاه .

(نبئنا بتأويله) أى قال كل واحد منهما نبئنى بتأويل ما رأيت أى بتفسيره الذى يئول إليه فى الخارج إذا كان حقا لا أضغاث أحلام .

ثم بينا له ثقتهما به فقالا :

(إنا نراك من المحسنين) أى الذين يحسنون تأويل الرؤى ، وما قالا هذا إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما جعله كعبة قصادهم وقبلة استفتائهم .

وقد يكون المعنى : إنا نراك من الذين يحسنون بمقتضى غريزتهم ويريدون الخير للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة لهم .

وقد وجد يوسف عليه السلام من ثقة السائلين بعلمه وفضله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما ما جعله يحدثهما بما هو المهم عنده وهو دعوتهما وجميع من

فى السجن إلى توحيد الله ، ولـكنه جعل فى صدر كلامه ما يطمئنهم على الثقة بصدقه ، وذلك بإظهار مامنّ الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب ، وأقرب ذلك إلى إقناعهم مايختص بمعيشتهم ومن ثم جعله بدء الحديث معهم .

(قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) أى قال لهما لايأتيكما طعام إلا أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وماينتهى إليه بعد وصوله إليكما ، روى أن رجال الدولة كانوا يرسلون إلى المجرمين طعاما مسموما يقتلونهم به ، وأن يوسف أراد هذا من كلامه .

وفى ذلك إيماء إلى أنه كان يعلم الغيب ، وهذا يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام : « وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » .

ومن هـذا يعلم أن وحى الرسالة جاءه وهو فى السجن ، وبذلك تحقق قوله : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » كما أن وحى الإلهام جاءه حين إلقائه فى غيابة الجب كما تقدم ذكره ، وكأنه سبحانه جعل فى كل محنة منحة ، وفى كل ماظاهره أنه بلاء نعمة .

(ذلـكما مما علمنى ربى) أى ذلـكما الذى أنبأتكما به بعض ما علمنى ربى بوحى منه إلىّ لابكهانة ولا عِرافة ولا مايشبه ذلك من تعليم بشرىّ يلتبس به الحق بالباطل ويشتبه فيه الصواب بالخطأ .

(إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) القوم هنا الـكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد ، والمصريون الذين هو بينهم فقد كانوا يعبدون آلهة منها الشمس ويسمونها (رع) ومنها عجلهم (أبيس) ومنها فراعنهم ، وكان التوحيـد خاصا بحكمائهم وعلمائهم ، ومعنى تركها أنه ترك دخولها واتباع أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها ، وفى ذلك استجلاب لهما لأن يتركا تلك الملة التى هم عليها .

والمعنى — إنى برئت من ملة من لايصدق بالله ولايقر بوحدانيته وأنه خالق السموات والأرض ومابينهما .

(وهم بالآخرة هم كافرون) أى وهم يكفرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الذى دعا إليه الأنبياء ، إذ أنهم كانوا يصورون حياة الآخرة على صور مبتدعة ، منها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة ويرجع إليهم الحكم والسلطان كما كانوا فى الدنيا ، ومن ثم كانوا يضعون معهم فى مقابرهم جواهرهم وحليهم ، ويبنون الأهرام لحفظ جثثهم وما معهم ، ولهم معتقدات أخرى فى تلك الحياة لاتشاكل ماجاء عنها على ألسنة الرسل عليهم السلام .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) أى واتبعت ملة آبائى الذين دعوا إلى التوحيد الخالص وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وفى ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه فى الإيمان والتوحيد وتنفير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال .

ثم بين أساس الملة التى ورثها عن أولئك الآباء الكرام فكانت يقينا له بقوله :

(ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) أى لا ينبغى لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا فنتخذه ربا مدبرا معه ولا إلها معبودا من الملائكة أو البشر كالفراعنة ، فضلا عما دونهما من البقر كالعجل أبيس أو من الشمس والقمر ، أومايتخذ من التماثيل والصور لهذه الآلهة .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) أى عدم الإشراك من فضل الله علينا إذ هدانا إلى معرفته وتوحيده فى ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته فى الأنفس والآفاق ، وعلى الناس بإرسالنا إليهم ننشر فيهم الدعوة ونقيم عليهم الحجة فنهديهم سبيل الرشاد ونبين لهم محجة الصواب ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال .

(ولكن أكثر الناس لايشكرون) نعم الله عليهم فيشركون به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم .

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن أبطل يوسف عليه السلام ماهما عليه من الشرك فيما سلف ، وذكر أنه قد اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب وبيّن أن هذا فضل من الله ومنة عليهم وعلى الناس وكثير من الناس لايشكرون الخالق لهذه النعم فيعبدوه وحده دون أن يشركوا به أحدا ــ دعاهما هنا إلى التوحيد الخالص وأيده بالبرهان الذى لايجد العقل محيصا من التسليم به والإقرار بصحته فقال :

الإيضاح

(ياصاحبى السجن) أى ياصاحبىّ فى السجن ، وناداهما بعنوان الصحبة فى هذه الدار التى هى دار الأشجان وموضع الهموم والأحزان ، وفيها تصفو المودة وتخلص النصيحة ــ ليصغيا إلى مقاله ويقبلا على استماع ما يلقى إليهما به ، فالآذان حينئذ مرهفة والقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها وتفرغت لعالم آخر غير ما يشغل الناس من زِبرج هذه الحياة وزخرفها .

(أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) هذا الاستفهام لتقرير مايذكر بعده وتوكيده ، والمراد بالتفرق : التفرق فى الذوات والصفات المعنوية التى ينعتونهم بها والصفات الحسية التى يصورها لهم بها الكهنة والرؤساء من رسوم منقوشة وتماثيل منصوبة فى المعابد والهياكل ، والقهار : الغالب على أمره الذى لايغلبه أحد .

والمعنى — أأرباب كثيرون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام وما يقتضيه ذلك من التنازع والاختلاف فى الأعمال والتدبير الذى يفسد النظام ـ خير لكما ولغيركما فيما تطلبون من كشف الضر وجلب النفع وكل ماتحتاجون فيه إلى المعونة من عالم الغيب ، أم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لاينازع ولايعارض فى تصرفه وتدبيره وله القدرة التامة والإرادة العامة ، وهو المسخر لجميع القوى والنواميس الظاهرة التى تقوم بها نظم العوالم السماوية والأرضية من نور وهواء وماء ، والغائبة عنا كالملائكة والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها ؟ ولا شك أن الجواب عن هذا مما لايختلف فيه عاقل ، فلا خير فى تفرق المعبودات التى لاتستطيع ضرا فى الأرض والسموات .

ثم بين لها أن مايعبدونه ويسمونه آلهة إنما هى جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلف عن سلف ليس لها مستند من العقل ولاالوحى السماوى فقال :

(ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى ما تعبدون من دون الواحد القهار إلا أسماء لمسميات وضعتموها أنتم وآباؤكم من قبلكم ونحلتموها صفات الربوبية وأعمالها ، وماهى بأرباب تخلق وترزق وتضر وتنفع ، ما أنزل الله حجة وبرهانا على أحد من رسله بتسميتها أربابا ، حتى يقال إنكم تتبعونها تعبدا له وحده وطاعة لرسله .

والخلاصة — إنها تسمية لادليل عليها من نقل سماوى فتكون أصلا من أصول الإيمان ، ولادليل عليها من عقل فتكون من نتاج الحجة والبرهان .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم الحق فى الربوبية والعبادة إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ولايمكن بشرا أن يحكم فيه بهواه ورأيه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، وهذه قاعدة اتفقت عليها كل الأديان ، دون اختلاف فى الأمكنة والأزمان .

ثم بين ما حكم به الله فقال :

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه) أى أمر ألا تعبدوا غيره ولا تدعوا سواه ، فله وحده

اركعوا واسجدوا ، و إليه وحده توجهوا ؛ حنفاء غير مشركين به شيئا من ملك من الملائكة ولا ملِك من الملوك الحاكمين، ولا شمس ولا قمر ولا نجم ولا شجر، ولا حيوان كالعجل أبيس لدى المصريين .

فالمؤمن الصادق الإيمان لايذل ولا يخزى لأحد غير الله مما خلق ، بدعاء ولا استغاثة ولا طلب فرج من ضيق ، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء ، وأن كل ماسواه فهو خاضع لسلطانه ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى ، فإليه وحده الملجأ فى كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب ، و إليه المصير فى الجزاء على الأعمال يوم يقوم الحساب .

(ذلك الدين القيم) أى إن تخصيصه بالعبادة هو الدين الحق الذى لاعوج فيه ، والذى دعا إليه جميع الرسل ودلت عليه براهين العقل والنقل .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن ذلك هو الدين الحق الذى لا اعوجاج فيه ، لاما ساروا عليه تبعا لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد بأرباب متفرقين .

وقد خفيت هذه الحقيقة على كثير ممن يدّعون اتباع القرآن فتراهم يتوجهون إلى غير الله من الأولياء والصلحاء إذا مسهم الضر و يدعونهم خاشعين متذللين و يسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، وما هذا إلا مثل فعل من قبلهم من المشركين ، فليس لهم من صفات الربوبية أدنى حظ ولا من صفات الألوهية أقل نصيب .

و بعد أن بين لهما الحق فى مسألة التوحيد وعبادة الله وحده شرع فى إنبائهما عما استنبآه عنه فقال :

يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

تأويل يوسف عليه السلام رؤيا صاحبى السجن ووصيته للناجى منهما

الإيضاح

(يا صاحبى السجن أما أحدكما) وهو الساقى الذى رأى أنه يعصر خمرا ، ولم يعينه ثقة بدلالة الحال ورعاية لحسن الصحبة .

(فيسقى ربه خمرا) أى فيسقى سيده ومالك رقبته . وقد روى أن يوسف قال له فى تعبير رؤياه : ما أحسن ما رأيت ، أما الكرمة فهى الملك وحسنها حسن حالك عنده ، وأما الأغصان الثلاثة فثلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى عملك .

(وأما الآخر) وهو الذى رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه .

(فيصلب فتأكل الطير من رأسه) أى الطير الكواسر كالحدأة والرخمة ونحوهما. روى أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال الثلاث ، فثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتصلب .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) الاستفتاء فى اللغة : السؤال عن المشكل المجهول ، والفتوى جوابه : أى إن الأمر الذى يهمكما ويشكل عليكما وتستفتيانى فيه قد بتّ فيه وانتهى حكمه .

وهذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على تعبير رؤياهما داخلة فى باب المكاشفة والإنباء عن الغيب ، قالها لهما ليثقا بقوله ويعلما أنه إنما قالها بوحى من ربه وأن الملك قد حكم فى أمرهما بما قاله .

(وقال للذى ظن أنه ناج منهما) وهو الذى أول له رؤياه بأنه يسقى ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، وقد يكون هذا بناء على وحى فيكون

الظن بمعنى اليقين وهو كثير فى القرآن الكريم كما قال : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » وقال : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ » .

(اذكرنى عند ربك) أى اذكرنى لدى سيدك الملك بما رأيت منى وما سمعت وعلمت من أمرى علّه أن ينصفنى ممن ظلمنى ويخرجنى من ضائقة السجن ، ومما هو جدير أن يذكره به دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباؤهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب وغيرهما قبل إتيانه وفتياه التى أفتى بها .

(فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى فأنسى الشيطان ذلك الساقى الناجى تذكر إخبار ربه أى أن يذكر يوسف للملك .

(فلبث فى السجن بضع سنين) منسيا مظلوما ، والبضع من ثلاث إلى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع وعليه الأكثرون فى مدة سجن يوسف .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا

تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)

شرح المفردات

السمان : واحدها سمين وسمينة ، والعجاف : واحدها عجفاء أى هزيلة ضعيفة ، والسنابل : واحدها سنبلة وهى ما يكون فيها الحب ، واليابس من السنبل : ما آن حصاده ، وعبرت الرؤيا وعبرتها (بالتخفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، والأضغاث : واحدها ضغث وهو الحزمة من النبات ، والأحلام واحده حلم (بضمتين وبالتسكين للتخفيف) : مايرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد يكون مهوشا مضطربا فهو يشبه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التى لاتناسب بينها ، وادكر : تذكر (أصله إذتكر) ، والدأب : استمرار الشىء على حال واحدة يقولون هو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، فذروه : أى اتركوه وادخروه ، والشداد : الصعاب التى تشتد على الناس ، وتحصنون : أى تحرزون وتدخرون للبذر ، وأغاثه : أعانه ونجاه ، وغوّث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ويعصرون : أى ما من شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم ، والأشربة من القصب والنخيل والعنب .

المعنى الجملى

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك العرب الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة

عن تأويلها ، وقالوا أضغاث أحلام ، وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف فى تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك وتعيينه وزيرا له .

الإيضاح

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى إنى رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية كأنى أراها الآن ، سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة والعلماء وقال:

(يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى عبروها لى و بينوا حكمها وما تئول إليه ، إن كنتم تعبرون الرؤى وتبينون المعنى الحقيق المراد من المعنى المثالى ، فيكون حالكم حال من يعبر النهر من ضفة إلى أخرى .

(قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى قالوا هذه رؤيا من نوع أضغاث الأحلام : أى الأحلام المختلطة من خواطر وأخيلة يتصورها الدماغ فى النوم فلا تومئ إلى معنى معين مقصود ، وما نحن بأولى علم بتأويل مثل هذه الأحلام المضطربة ، بل نحن نعلم غيرها من الأحلام المفهومة المعقولة .

وقد يكون مرادهم نفى العلم بجنس الأحلام لأنها مما لايعلم أو مما لايكون له معنى تدل عليه تلك الصور المتخيلة فى النوم كما هو رأى الماديين الآن .

وقد كان حديث الملك فى رؤياه مع كهنته وعلمائه ورجال دولته مذكرا للذى نجا من الفتيين بيوسف وحسن تعبيره للرؤى بعد أن مضى على ذلك ردح من الزمان كما يشير إلى هذا مابعده :

(وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى إنّ عجز الملأ كان فرصة سانحة للذى نجا من الفتيين أن يخبر الملك بأن فى الحبس رجلا صالحا

عالما كثير الطاعة ـ خبيرا بتأويل الرؤى ، فإن أنت أذنت لى مضيت إليه وجئتك بالجواب (وكان ذلك الفتى تذكر بعد مدة من الزمن وصية يوسف له بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك) فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجزوا عنه وقال:

(يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) أى يايوسف البالغ غاية الكمال بصدقك فى أقوالك وأفعالك وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ، أفتنا فى ذلك المنام الذى رآه الملك ، وإنى لأرجو أن يحقق الله أملك بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بفضلك وعلمك .

(قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى قال يوسف للملك وملئه مبينا لهم مايجب عليهم أن يعملوه لتلافى ماتدل عليه الرؤيا من الخطر على البلاد وأهلها قبل وقوع تأويلها ، من زراعة القمح سبع سنين متوالية بلا انقطاع ثم بادخار مايحصد منه فى كل زرعة فى سنابله على طريق تحفظه من السوس بتسرب الرطوبة إليه حتى يكون القمح لغذاء الناس والتبن للدواب حين الحاجة إليه ، إلا قليلا من ذلك تأكلونه فى كل سنة مع الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة ويكفى دفع المخمصة ، وهذه السنون السبع هى تأويل البقرات السبع السمان . أما السنبلات الخضر فعلى حقيقتها فى كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) أى ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين كلهن جدب وقحط ، يأكل أهلها كل ما ادخرتم فى تلك السنين لأجلهم ، إلا قليلا مما تخزنون وتدخرون للبذر ، ونسبة الأكل إلى السنين هو ما جرت به عادتهم فيقولون أكلت هذه السنة كل شىء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ، ولاسَبَدا ولا لَبَدا : أى لاشعرا ولا صوفا .

فهذا تأويل البقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات .

(ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ثم يعقبهم بعد تلك الشدائد عام فيه يغاث الناس: أى يغيثهم الله من تلك الشدة أتم إغاثة و يعينهم بجميع أنواع المعونة ، فتغلّ البلاد وتكثر المحصولات بجميع أنواعها و يعصرون ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمن ونحوها من الفواكه .

وخلاصة ذلك — أن العام يكون عام خصب وإقبال ويكون للناس فيه مايبغون من النعمة والإتراف ، والإنباء بهذا العام زائد على تأويل الرؤيا ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلا بوحى من الله عز وجل .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

طلب الملك ليوسف وتريثه فى الإجابة
حتى يحقق حادثة النسوة

بعد أن رجع الرسول إلى الملك وملئه وأبلغهم ما قاله يوسف عليه السلام ، فهموا منه سعة علمه وحسن تدبيره لدى ذلك الخطب الجلل الذى سيحل بالبلاد، فطلب الملك رؤيته ليتحقق بنفسه صدق ما فهمه من كلامه ، إذ ليس الخبر كالخُبْر وليس السماع كالمشاهدة ، وذلك هو الرأى والحزم .

الإيضاح

(وقال الملك ائتونى به) كى أستمع كلامه وأعرف درجة عقله وأعلم تفصيل رأيه.

(فلما جاءه الرسول) و بلغه أمر الملك وطلب إليه إنفاذه .

(قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) البال : هو الأمر الذى يبحث عنه ويهتم به : أى ارجع إلى سيدك قبل شخوصى إليه ومثولى بين يديه ، وسله عن حال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ليعرف حقيقة أمره ، إذ لا أود أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت من أجلها بالسجن وقد طال مكثى فيه دون تعرف الحقيقة ولا البحث فى صميم التهمة .

(إن ربى بكيدهن عليم) أى إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور ، وهو الذى صرف عنى كيدهن فلم يمسسنى منه سوء .

وقد دل هـذا التريث والتمهل من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له حتى تحقق براءته على جملة أمور :

(١) جميل صبره وحسن أناته ، ولا عجب فمثله ممن لقى الشدائد جدير به أن يكون صبورا حليما ، ولاسيما ممن ورث النبوة كابرا عن كابر ، وقد ورد فى الصحيحين مرفوعا « ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى » ، وفى رواية أحمد « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

(٢) عزة نفسه وصون كرامته ، إذ لم يرض أن تكون التهمة بالباطل عالقة به ، فطلب إظهار براءته وعفته عن أن يُزَنَّ بريبة أو تحوم حول اسمه شائبة السوء .

(٣) إنه عف عن اتهـام النسوة بالسوء والتصريح بالطعن عليهن حتى يتحقق الملك بنفسه حين ما يسألهن عن السبب فى تقطيع الأيدى ويعلم ذلك منهن حين الإجابة .

(٤) إنه لم يذكر سيدته معهن وهى السبب فى تلك الفتنة الشعواء وفاء لزوجها

ورحمة بها ، و إنما اتهمها أولا دفاعا عن نفسه حين وقف موقف التهمة لدى سيدها و بعد أن طعنت فيه .

(قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) الخطب الشأن العظيم الذى يقع فيه التخاطب إما لغرابته و إما لإنكاره ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » وقول موسى : « فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ » أى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول يوسف إنه لايخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق قصة النسوة ـ جمعهن وسألهن : ماخطبكن الذى حملكن على مراودته عن نفسه : هل كان عن ميل منه إليكن ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ، وماذا كان السبب فى إلقائه فى السجن مع المجرمين .

(قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) أى معاذ الله . ماعلمنا عليه سوءا يشينه ويسوءه لا قليلا ولا كثيرا .

(قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق) حصحص : ظهر بعد أن كان خفيا أى إن الحق فى هذه القضية كان فى رأى من بلغهم ـ موزع التبعة بيننا معشر النسوة و بين يوسف ، لكل منا حصة بقدر ما عرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق فى جانب واحد لاخفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفى ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

(أنا راودته عن نفسه) لا أنه راودنى ، بل استعصم وأعرض عنى .

(و إنه لمن الصادقين) فى قوله حين افتريت عليه : هى راودتنى عن نفسى ، والذى دعاها إلى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من رعاية حقها وتعظيم جانبها و إخفاء أمرها حيث قال : (ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) ولم يعرض لشأنها .

وفى هذا الاعتراف شهادة صريحة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب وطهارته من كل العيوب .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى ذلك الاعتراف منى بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه ، ليعلم أنى لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن ، فلم أنل من أمانته ، أو أطعن فى شرفه وعفته بل صرحت لأولئك النسوة بأنى راودته عن نفسه فاستعصم ، وهأنذا أقر بهذا أمام الملك ورجال دولته وهو غائب عنا .

(وأن الله لايهدى كيد الخائنين) أى لاينفذه بل يبطله وتكون عاقبته الفضيحة والنكال ، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجناه فبرأه الله وفضح مكرنا ، حتى شهدنا على أنفسنا فى مثل هـذا الحفل الرهيب والمقام المنيف ببراءته من كل العيوب ، وسلامته من كل سوء .

وعلى الجملة فالتحقيق أسفر عن أن يوسف كان مثل الكمال الإنسانى فى عفته ونزاهته لم يمسسه سوء من فتنة أولئك النسوة ، وأن امرأة العزيز أقرت فى خاتمة المطاف بذنبها فى مجلس الملك إيثارا للحق و إثباتا لبراءة يوسف عليه السلام .

نسألك سبحانك الهداية والتوفيق ، وأن تسدد خطانا إلى أقوم طريق ، بمنك وكرمك وجزيل معونتك ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

وصل ربنا على محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثمان بقين من صفر من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف هجرية .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٥	كان عرش الله على الماء فى أثناء خلق العالم قبل تكوين السموات والأرض .
٦	الماء أصل جميع الأحياء .
٧	استعجال المشركين للعذاب .
٨	الإنسان محروم من فضيلتى الصبر والشكر .
١١	كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضيق صدره لعناد المشركين وجحودهم لدعوته .
١٢	دعواهم أن القرآن مفترى وليس بوحى من عند الله .
١٤	قصص القرآن والأغراض منه .
١٥	حكمة التحدى بعشر سور .
١٧	الدين يبيح التمتع بالطيبات ويبيح الزينة فى غير سرف ولا خيلاء .
٢٧	الإيمان لا يكون بالإكراه .
٢٩	الرسول لا يعلم الغيب .
٣٨	دعوة نوح لابنه إلى الإيمان .
٤١	لا يجوز الدعاء بغير ما يخالف سنن الله فى الخلق .
٤٢	لا علاقة للصلاح بالوراثة والنسب .
	من يغتر بنسبه ولا يعمل بما يرضى ربه فهو جاهل بكتابه .
٤٣	قصص القرآن من عالم الغيب .
٤٤	هل كان الطوفان عاما أو خاصا .
٤٥	حادث الطوفان فى التوراة والكتب القديمة .
٤٦	عمر نوح عليه السلام .

الصفحة	المبحث
٥٦	آية صالح ناقته .
٥٧	الصيحة التى أهلكت بها ثمود .
	بشارة الملائكة لإبراهيم وامرأته بإسحاق .
٥٩	مرور الملائكة بإبراهيم حين إهلاك قوم لوط .
	ولد إسحاق لإبراهيم وسنه مائة سنة وكانت سن امرأته تسعين .
٦٠	الفرق بين الروع (بالضم) والروع (بالفتح) .
٦١	مجادلة إبراهيم للملائكة فى سفر التكوين من التوراة .
٦٦	أمر لوط بالسرى ليلا .
٧٠	الإفساد تعطيل شامل لمصالح الدين والدنيا .
٧٧	تهديد قوم شعيب له بالرجم .
٧٩	آيات موسى التسع .
٨٦	الناس يوم القيامة فريقان .
٨٨	إنذار المشركين بحلول العذاب بهم كما حلّ بسالف الأمم .
٩١	تحكيم العقل البشرى فى الخوض فى ذات الله وصفاته تجاوز لحدوده .
	الاختلاف فى أمور القضاء والسياسة وأمور المعاش أمر طبيعى .
٩٢	أمر الرسول بالاستقامة .
٩٣	الاستعانة بالظلمة رضا بأعمالهم .
	يجب الأخذ على أيدى الظلمة وأئمة الجور .
٩٥	الصلاة أس العبادات المغذية للإيمان .
٩٦	السنن العامة فى إهلاك الأمم .
٩٧	العقول السليمة تكفى لفهم ما فى دعوة الرسل من الخير .
	الله لا يهلك أمة لشركها مادام أهلها مصلحين .
٩٨	لو شاء الله لجعل الناس على دين واحد .
١٠٠	فى قصص الرسل مع أممهم تثبيت لفؤاده صلى الله عليه وسلم وبيان لوجه الحق فى دعوته

الصفحة	المبحث
١٠٥	أتباع الرسل هم الفقراء .
١٠٦	يوسف الصديق مثل كامل فى عفته وصبره .
١٠٧	ما فى قصص يوسف من عبرة .
١١٢	قصص يوسف أحسن القصص .
١١٣	قصص يوسف رؤياه على أبيه .
١١٤	نهى أبيه له عن إخبار إخوته بهذه الرؤيا .
١١٨	تآمر إخوة يوسف على الفتك به وتدبير المكيدة له .
١١٩	خوف يعقوب على يوسف مع ذكر السبب فى ذلك .
١٢١	إلقاء يوسف فى الجب .
١٢٢	ادعاؤهم أن الذئب قد أكله ومجيئهم بدم كذب تصديقا لذلك .
١٢٣	عثور السيارة عليه فى الجب وفرحهم به .
١٢٤	بيعه فى مصر بثمن بخس دراهم معدودة .
	شراء رئيس وزراء مصر له وأمر زوجه بإكرامه .
١٢٦	كان عزيز مصر عقيما وكان صادق الفراسة .
١٢٧	علم يوسف تعبير الرؤى .
١٢٨	مراودة امرأة العزيز له عن نفسها .
١٢٩	امتناعه عن إجابة طلبها .
١٣٠	رأى ابن جرير والفخر الرازى فى تفسير الآية .
١٣١	رأى الجمهور فى تفسيرها ثم تفنيد ذلك بالأدلة .
١٣٢	شكوى المرأة لزوجها من يوسف وتحيلها فى ذلك .
١٣٣	تحقيق زوجها للحادث وحكم قريبها ببراءة يوسف .
١٣٤	الأمارات الدالة على صدق يوسف .
١٣٥	هل كان شاهد يوسف صبيا ؟ .

الصفحة	المبحث
١٣٦	حديث النسوة فى المدينة ومكر امرأة العزيز بهن .
١٣٨	تعجب النسوة من حصول الحادث لأسباب .
١٣٩	تدبيرها المحكم للكيد بهن .
١٤٠	سلواها بما يكون معذرة لها فى ظنها .
	تهديدها إياه بالسجن إن لم يجبها إلى ما تطلب .
١٤١	دعاؤه ربه أن يصرف عنه كيد النسوة .
١٤٢	استجابة ربه لدعائه .
١٤٣	تصميمهم على سجنه مع ظهور براءته .
١٤٤	تعبيره الرؤى لمن فى السجن .
١٤٥	عظاته للمسجونين وطلبته منهم الإيمان بالله وحده .
١٤٧	صادق الإيمان لايذل إلا لله .
١٤٨	تعبيره رؤيا ساقى الملك وخبازه .
١٤٩	رؤيا الملك فى المنام وطلبه تعبيرها .
١٥١	تأويل الكهنة لها .
١٥٢	تأويل يوسف لها .
١٥٣	طلب الملك ليوسف وتريثه فى الإجابة .
١٥٤	الأسباب التى حملته على التريث فى إجابة الطلب .
١٥٥	اعتراف المرأة ببراءة يوسف .
١٥٦	ما أسفر عنه التحقيق .

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036758604

JAN 13 [illegible]